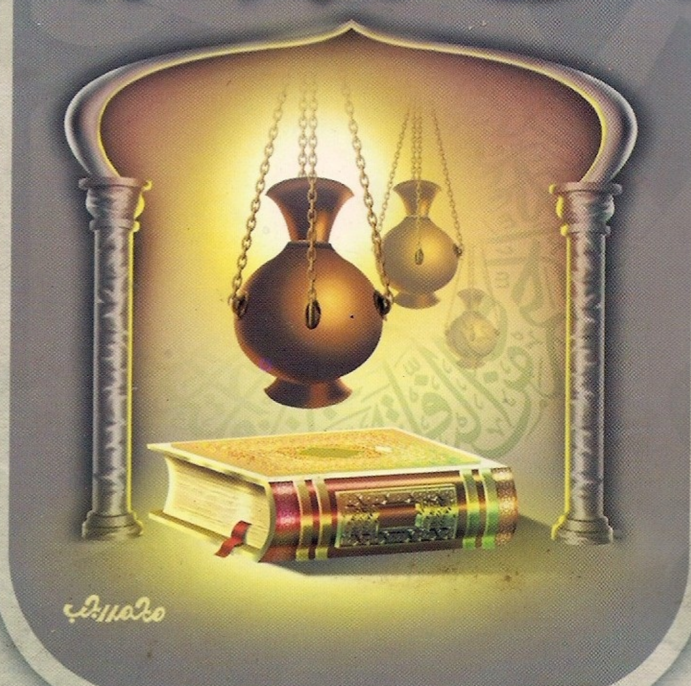
طريق الوصول إلى إيضاح الثلاثة الأصول





شرح / فضيلة الشيخ العلامة زيد بن محمد المدخلي
تحقيق وتعليق
فواز بن علي بن علي المدخلي

دار الأرقم للإنتاج والتوزيع

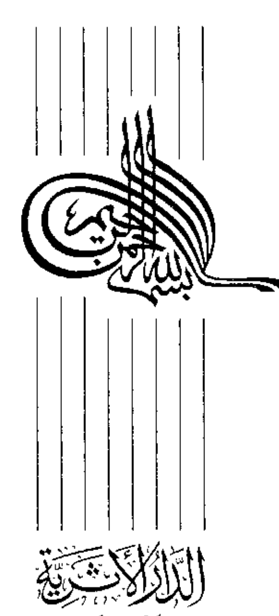
الدار الأثرية للنشر والتوزيع

طَرِيقُ الوُصُولِ

إِلَىٰ

إِيضَاحِ الثَّلَاثَةِ الأُصُولِ





الطبعة الثانية في الجزائر
1428 هـ - 2007 م

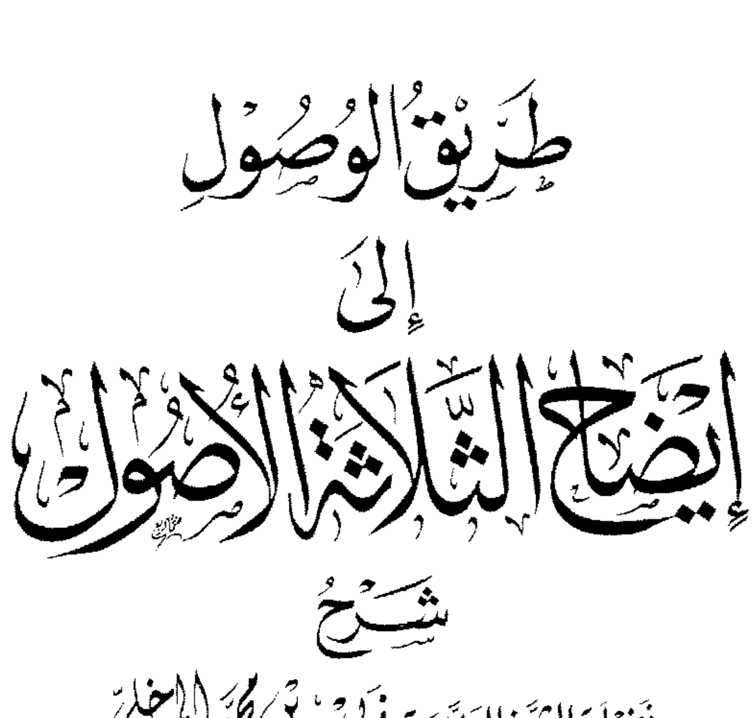
رقم الإيداع: 2103-2007
ردمك : 978-9961-934-66-1

المقر : 27 حي الشيخ الطاهر، مقابل مديرية الشؤون الدينية - عنابة الجزائر
جوال : 071.25.08.36 - فاكس : 038.86.78.57
البريد الإلكتروني:Dar_elatharia@yahoo.fr



حي بومرشي مقابل مسجد الفضيل الورثلاني - سطيف الجزائر
هاتف وفاكس : 036.82.08.15
البريد الإلكتروني: Dar.erkame@gmail.com




طريق الوصول
إلى
إيضاح الثلاثة الأصول
شرح
فضيلة الشيخ العلامة زيد بن محمد المدخلي
تحقيق وتعليق
فواز بن علي بن علي المدخلي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، ودعا ..عوته الرحيمة واهتدى بهداه ..

أما بعد:

فقد اطلعت على ما قام بتفريغه وتحقيقه وتخريج أحاديثه الأستاذ: فواز بن علي بن ـبـ المدخلي من دروس «شرح الثلاثة الأصول»، فحمدت الله على ذلك، وشكرت . ستاذ ما بذل من جهد في الإخراج؛ فإن عملاً كهذا ليس بالأمر السهل، وقد أذنت له ـ سَعي في الطبع متى تَسَنَّى له ذلك، كما أذنت له في التسجيل والتفريغ؛ ليستفيد منه ـ ب العلم، وبالأخص الذين يؤمون دورة الشيخ: عبد الله بن محمد القرعاوي -رحمه .- ومن في مستواهم، وبالله التوفيق ..

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ..

وكتب ذلك الفقير إلى عفو ربه

زيد بن محمد بن هادي المدخلي

١٤٢٠/٨/١٠هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله؛ فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له ..

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد:

فإن أولى ما يتنافس فيه المتنافسون، وأحرى ما يَتَسَابق في ميدان سباقه المتسابقون: ما يكفل للعبد الحياة الهنيئة في دينه ودنياه، وذلكم هو العلم النافع والعمل الصَّالح، اللذان لا سعادة للعبد إلاَّ بهما، ولا فوز ولا نجاة في الآخرة إلاَّ بإقامتهما على الوجه الصحيح.

ولما كان العلم والعمل قرينين، وعلى طريق واحد لا يفترقان؛ كان أشرف العلوم على الإطلاق: علم التوحيد الذي هو حَقُّ الله على العبيد.

وأولاها بالاهتمام والعناية بها على وجه التمام ما ألفه الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- «الأصول الثلاثة»، التي حَوَت من أصول الدِّين المهمَّة، والقواعد العظيمة الجمَّة، المؤيدة بالأدلة من الكتاب والسنَّة، ما يسهل على الطالب المبتدي حفظها، ولا يستغنى الراغب المنتهي عن فهمها.

وهذه الرسالة «الأصول الثلاثة» وإن كانت صغيرة في حجمها، إلا أنها كبيرة في معناها، قد اهتمَّ بها العلماء حفظًا وتحقيقًا، وشرحًا وتعليقًا، وتناقلها طلاب العلم اللاحق عن السابق.

ومن قام بشرح الرسالة المذكورة: شيخنا العلامة الفاضل: زيد بن محمد بن هادي المدخلي -حفظه الله- ضمن شرح دروس أقيمت في «دورة الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي -رحمه الله- العلمية الأولى»[1] عام (١٤١٥هـ) في منطقة جازان، وبالتحديد في

(١) هو عبد الله بن محمد بن حمد القرعاوي النجدي: من منطقة القصيم في نجد، له نشاط كبير في الدَّعوَة إلى الله، ونشر العقيدة الصحيحة، ولاسيما في منطقة الجنوب حيث أثمرت هذه الدعوة ونجحت، ولد -رحمه الله- في شهر ذي الحجة سنة (١٣١٥هـ) في مدينة عُنيزة، وقد توفي والده قبل ولادته بشهرين، نشأ يتيمًا في كنف أمه وعمِّه، تربى منها على تعلم المبادئ الفاضلة والعفاف والطهارة وحفظ القرآن، اشتغل في أول حياته بالتجارة، ثم انتقل إلى طلب العلم، سافر إلى الهند سفرتين، ثم تنقل بين مدن المملكة يطلب العلم، فمن بُريدة إلى مكة المكرمة، والمدينة النبوية، والرياض، والأحساء، وقطر، بل تعَدَّى ذلك إلى خارج الجزيرة العربية، فذهب إلى العراق، ومصر، والشام.

ثم بعد ذلك بدأ بدعوته الإصلاحية، فتوجه إلى الجنوب، فاستوطن بصامطة، وجعلها مركزًا لدعوته، فبدأ يدعو الناس إلى تقوى الله، وإلى التمسك بمذهب السَّلف الصَّالح بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان يجمع حوله الطلبة، فاجتمع إليه عدد كبير من الراغبين في العلم، فجلس يُقرئهم القرآن، والتفسير، والتجويد، والتوحيد، والحديث، والفقه، والفرائض، وبعض علوم اللغة العربية.

واتجه إلى القرى المجاورة لمدينة «صامطة»، وفتح بها الكثير من المدارس، وعين طلبته الأوائل مدرسين بها أمثال الشيخ حافظ الحكمي -رحمه الله- حيث يقول عنه : «إنه أحد تلامذتي، لكنه فاقني في العلم شأوًا بعيدًا». وكان يحضر للمدارس جميع ما يلزم الطلبة من كتب ودفاتر وغيرها على نفقته الخاصَّة، وأيضًا يخرج إلى القبائل بنفسه في بعض الأيام، حتى أقبل الناس على طلب العلم على يديه، وامتدت مدارس الشيخ من منطقة تهامة إلى منطقة عسير، فقد فتحت فيها المدارس الكثيرة، وعين الشيخ من كبار طلبته مدرسين بها.

ومن أهداف دعوته: إصلاح العقيدة في النفوس، وزرع الإسلام الحق في نفوس الشباب المسلم، وإرشاده إلى الطريق الصحيح، فكان المجتمع قبل ذلك في جهل وخرافات فكون الشيخ -رحمه الله- طلبة أقوياء في عقيدتهم يُوجِّهُون الناس، ويدعونهم إلى الله، فتكللت جهوده بالنجاح، =

مدينة صامطة -عَمَرَها الله بطاعته-، فجاء شرحه سهل العبارة، مشرق الديباجة، يعالج كثيرًا من القضايا التي تمس حياة المسلم في جانب العقيدة، والسلوك، والمنهج السليم في العلم جملة وتفصيلاً.

فقمتُ -ولله الحمد- بتسجيل هذه المادة على هيئة دروس، فكانت أربعة عشر درسًا ألقيت في مسجد المكتبة السلفية، ثم قمتُ بتفريغها، والتعليق على مواضع منها،

=

وأصبح كثير منهم يُؤدُّونَ الفرائض في أوقاتها.

وفي آخر حياته أصيب بمرض ألمّ به، نقل على أثره إلى مدينة الرياض، وأدخل المستشفى المركزي، وفي يوم الثلاثاء الثامن من شهر جمادى الأولى من سنة (١٣٨٩هـ) توفي -رحمه الله- عن عمر يناهز (٧٣) سنة قضاها في خدمة العلم وطلبه، ونشره بين الناس.

ويعد -رحمه الله- إمامًا من أئمة الدعوة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، لاسيما في منطقتي «تهامة، وعسير» حيث كانتا مهد دعوته، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

انظر كتاب: الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي حياته وآثاره (ص٣١-٣٥) باختصار لشيخنا زيد بن محمد المدخلي، وكتاب: الشيخ عبد الله القرعاوي ودعوته في جنوب المملكة (ص١٢) للسهلي.

قلت: وهذه الدورة أسست في عام (١٤١٥هـ) في المكتبة السَّلفية الخيرية بصامطة باسم: «دورة الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي -رحمه الله- العلمية»، فقد كانت هذه الدورة بداية نواة طيبة في نشر الدعوة إلى الله، ونشر العقيدة الصَّحيحة حيث اشتملت على الدروس العلمية النافعة، مثل: القرآن الكريم، والتفسير، والتجويد، والحديث، والفقه، والفرائض، وبعض علوم اللغة العربية، والتي قام بتدريس هذه المواد من طلبة الشيخ عبد الله بن محمد القرعاوي -رحمه الله- أمثال:

- **فضيلة الشيخ العلامة أحمد بن يحيى النجمي**: الداعية إلى الله في المنطقة الجنوبيَّة، والمدرس في المعهد العلمي بصامطة سابقًا.
- **فضيلة الشيخ العلامة زيد بن محمد المدخلي**: الداعية إلى الله في المنطقة الجنوبية والمدرس في المعهد العلمي بصامطة سابقًا، وغيرهم ممن لهم قدم راسخة في العلم.

وبحمد الله أثمرت هذه الدعوة ونجحت، وكان لها القبول، وخَاصَّة عند طلبة العلم، وهي ما زالت مستمرة في عطائها سنويًّا، فالحمد لله أولاً وآخرًا.

تخريج الآيات والأحاديث، وتراجم لبعض العلماء الوارد ذكرهم في ثنايا الشرح، والتعريف بالفرق بحسب الحاجة، كل ذلك موجود في هامش الشرح، ثم قمتُ بعرضها على بعض الإخوة -جزاهم الله خيرًا-، فقاموا مشكورين بالتصويب والتعديل، ثم كانت العرضة الأخيرة على شيخنا -جزاه الله خيرًا- فصوب وعدَّل، وحذف وأضاف ما رآه مناسبًا.

وسميته -بمشورة شيخنا-:

« طريق الوصول إلى إيضاح الثلاثة الأصول »

وقد استأذنته في طبعه ونشره؛ لتعم الفائدة به، فأذن لي -مشكورًا- بالموافقة كما هو موجود في الصَّفحة الأولى، وسيتبع هذا الشرح اللطيف -إن شاء الله- شرح لبعض المتون العلميَّة كـ: «القواعد الأربع، وكشف الشبهات، والأصول الستة، ومسائل الجاهلية، وكتاب التوحيد» جميعًا لشيخنا: زيد بن محمد بن هادي المدخلي -وفقه الله-، أسأل الله الكريم أن يُيسر إخراجها، وينفع بما جاء فيها من بيان تصحيح الاعتقاد السلفي والمنهج العملي كذلك.

اللهم اجعل عملي كله صَالحًا، ولوجهك خَالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا.

وصلى الله على نبيه وعبده محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه

فواز بن علي بن علي المدخلي

١٤٢٠/٨/١هـ

ترجمة موجزة لمؤلف المتن
الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -

هو الإمام المجدد، والداعية الناصح، والمجاهد العظيم: محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى- ابن سليمان الوهيبي التميمي.

ولد هذا العالم الجليل في بلدة العيينة سنة (١١١٥هـ)، نشأ في أحضان أسرة فاضلة، فأبوه عالم كبير من علماء نجد المعروفين وقضاة العيينة، وجده سليمان عالم نجد في زمانه، ومن المشهورين بالفقه والفتوى.

حفظ الإمام محمد بن عبد الوهاب -غفر الله لنا وله- القرآن الكريم دون بلوغ عشر سنين، وكانت له مشاركة في فنون كثيرة: في التفسير، والحديث، والعقيدة، والفقه، والوعظ، ورحل في طلب العلم في ضواحي نجد وإلى مكة، وقرأ على علمائها، ثمَّ رَحَلَ إلى المدينة النبويَّة فقرأ على علمائها كذلك، كما رحل إلى بغداد فاستفاد وأفاد، وأمر ونهى، وأوذي فصبر، فجعل الله له فَرَجًا ومخرجًا، وكان الشيخ -رحمه الله- قد وهبه الله فهمًا ثاقبًا، وقدرة على الحفظ، وصبرًا على القراءة والتحصيل.

ولَمَّا توفي والده أخذ يعلن جهرًا بالدعوة السَّلفيَّة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويدعو أهل البدع والغواية بالحكمة والموعظة الحسنة أن يرجعوا إلى طريق الهداية، فأوذي أشد الأذى، وصبر أجمل الصبر، وقد شَدَّ أزره الولاة من آل سعود -رحمهم الله- كما هو مُفصَّل في كتب ترجمته، وقويت شوكته، وذاع خبره.

وله مؤلفات نافعة منها: «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وأصول الإيمان، والأصول الثلاثة، ومختصر زاد المعاد، ومختصر الإنصاف، وكشف الشبهات» وغيرها كثير.

مات -رحمه الله تعالى- في أواخر سنة (١٢٠٦هـ) عن إحدى وتسعين سنة قضاها في ميدان العلم والجهاد والدعوة، فرحمه الله رحمة واسعة، وأجزل له الأجر والمثوبة؛ إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين ..



ترجمة موجزة لشارح هذا المتن «الأصول الثلاثة»
فضيلة الشيخ: زيد بن محمد بن هادي المدخلي

هو الشيخ الفاضل والعالم الجليل زيد بن محمد بن هادي المدخلي صاحب المؤلفات الجليلة، والخطب البليغة، والدروس الماتعة -حفظه الله-، ولد بقرية الركوبة عام (١٣٥٧هـ)، نشأ بها، وبدأ الدراسة بها، ثم التحق بمدرسة «صامطة» السلفية، وفي عام (١٣٦٨هـ) لحق بالشيخ حافظ في «بيش»، وقرأ عليه مع الطلاب المغتربين، وعندما فُتح المعهد العلمي في «صامطة» التحق به، وتخرج فيه عام (١٣٧٩/ ١٣٨٠هـ)، فالتحق بكلية الشريعة بالرياض وفيها تخرج عام (٨٣/ ١٤٨٤هـ) ، عيِّن مُدرسًا بالمعهد العلمي في «صامطة» قبل تخرجه، وما زال يدرس به حتى أحيل إلى التقاعد في (١/ ٧/ ١٤١٧هـ).

أنشأ أول مكتبة سلفيَّة خيرية في مدينة «صامطة» عام (١٤١٦هـ) تضم ما يزيد على أربعة آلاف كتاب، جعلها في خدمة طلاب العلم الذين يأوون إليها من كل مكان.

لا يخلو مجلسه من طالب علم يطلب العلم على يديه، أو مُستفتٍ يطلب الإجابة على فتواه، وله مشاركات في الدعوة إلى الله في منطقة «جازان» وفي خارجها، وعن طريق الهاتف وعبر وسيلة الإنترنت في دول الخليج العربي وأوربا وأمريكا وغيرها من الدول في أيام الحج، ودروسه لا تزال مستمرة -والحمد لله- حيث يُقرأ عليه في المختصرات والمطولات.

يعد الرجل الثاني في منطقة جازان في العلم والفتوى والدعوة إلى الله بعد شيخه: أحمد بن يحيى النجمي -أمدَّ الله في عمرهما-، وله مؤلفات كثيرة.

ومن مؤلفاته المطبوعة:

١- الحياة في ظل العقيدة الإسلامية.

٢- الأجوبة السديدة على الأسئلة الرشيدة (١-٨).

٣- شرح القصيدة الهائية لشيخه حافظ بن أحمد الحكمي -رحمه الله-.

٤- الأفنان الندية شرح منظومة السبل السوية لفقه السنن المروية (١-٩).

٥- المنهج القويم في التأسي بالرسول الكريم ﷺ.

٦- مجموعة رسائل.

٧- قطوف من نعوت السَّلف.

٨- الإرهاب وآثاره السيئة على الأفراد والأمم.

٩- المنظومات الحسان والديوان المليح (١-٢).

١٠- الجهد المبذول في تنوير العقول بشرح منظومة وسيلة الحصول إلى مهمات الأصول (١-٣).

١١- أسباب استقامة الشباب وبواعث انحرافهم.

١٢- وجوب ستر الوجه والكفين.

وغيرها كثير وما زال في عطائه ودعوته إلى المنهج السلفي -بارك الله فيه وفي جهوده، وأمد الله في عمره على طاعته-.

* * * * *

الدرس الأول

«بسم الله الرحمن الرحيم» [١].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومَنْ والاه واتبع هداه.

أما بعد:

فإنَّ هذا الكتاب المسمَّى بـ: «الثلاثة الأصول» من خير الكتب في العقيدة للمسلمين عُمومًا ولطلاب العلم خصوصًا، يستوي في الحاجة إليه المبتدئ والمتوسع في العلم.

معنى ذلك: أنه لا يستغني عمَّا حَوَاه أحَدٌ من طلبة العلم، بل ولا أحد من المسلمين المكلفين، فهو جدير بالحفظ وفهم المعنى، وجدير أيضًا بالمعلمين والمربين -لاسيما في مسائل الاعتقاد- أن يكون البدء به في معرفة عقيدة الإسلام قبل أي كتاب آخر يُبتدأ به، ثم بالقواعد الأربع، وكشف الشبهات، وكتاب التوحيد[١]، ثم بعد ذلك العقيدة الواسطية، ثم الحموية، ثم التدمريَّة[٢]، فالطحاوية[٣]، وهكذا كتب السنَّة بعد ذلك التي هي ضمن السنن، أو كتب السنَّة التي صُنفت على انفراد، وهذا -إن شاء الله تعالى- من طالت به الحياة وهو يطلب العلم، فسيجد هذه الكتب أمامه في المستقبل بحول الله وقوته.

[١] وقول المصنف -رحمه الله-: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»[٤] البدء بالبسملة

---

(١) وثلاثتها للإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-.

(٢) للإمام المجدد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

(٣) للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد الطحاوي -رحمه الله-.

(٤) **قال ابن جرير**: «وقد استقر عمل الأئمَّة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة، وكذا معظم كتب الرسائل». الفتح (١/ ١٤).

والحمدلة هذا من حسن الأدب، ومن الفهم من المؤلفين للأسباب التي تكون فيها قضاء الحاجات.

وفي الحديث الثابت عن النبيﷺ أنه قال: «**كُل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع**»[1]. أي: قليل البركة، فإذا قلت: باسم الله. أو قلت: الحمد لله. وشرعت في موضوع ما؛ فقد سلكت مسلك العلماء في الأدب.

عندما يريد أحد أن يؤلف تأليفًا، أو يكتب خطابًا، أو ينسج خطبة ونحو ذلك يبدأ بذكر الله، ويثنِّي بالصَّلاة والسَّلام على رسول الله، ثم بعد ذلك يشرع في المقصود، وعلى هذا مشى أئمة التأليف، ومنهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- الذي ألف هذا الكتاب؛ لأنك إذا قلت: «**بسم الله الرحمن الرحيم**»؛ فالمعنى أي: أبتدئ عملي هذا وتأليفي متبركًا باسم الإله، المستحق للألوهية وحده دون سواه، الموصوف بصفات الكمال والجلال، ومنها صفة الرحمة العَامَّة، وصفة الرحمة الخاصَّة.

صفة الرحمة العَامَّة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

وصفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين التي دل عليها قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

❊ ❊ ❊

«**اعلم**» [٢].

الشرح

[٢] ثم شرع المؤلف في المقصود وافتتحه بصيغة الأمر: «**اعلم**»؛ للدلالة على التنبيه

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ١٧٣)، وابن ماجه (١/ ٦١٠).

قال النووي: «قال أصحابنا: يستحب أن يذكر اسم الله تعالى على كل أمر ذي بال، وكذلك يحمد الله تعالى في كل أمر ذي بال؛ للحديث الحسن المشهور فيه» شرح صحيح مسلم (١٣/ ١٨٦).

وطلب الاستعداد لما سيلقى على السامع والقارئ بعد كلمة «**اعلم**»؛ لأنه لا يستوعب الكلام ويستوعب ما يلقى وما يقال إلاَّ من انتبه واستيقظ، وجمع أمره، وألقى السَّمع؛ فإنه يستوعب ما يُقال من التوجيه، وتفصيل الأحكام، وبيان الحلال والحرام، وسماع الموعظة، وتفصيل الدرس إلاَّ بالاستماع والاتصال.

ثم أتبع التنبيه بالدعاء لكل قارئ ولكل سامع، وهو أسلوب من أساليب العلماء الذين يهمهم شأن الإسلام والمسلمين، ويحبون الخير لمبتغي الخير حيث قال:

❊ ❊ ❊

«**رحمك الله**» [٣].

الشرح

[٣] «**رحمك الله**»: أيها القارئ، أيها السامع المستفيد، ثم شرع في المقصود، وهو: بيان أن من الواجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلموا هذه المسائل التي نص عليها بقوله:

❊ ❊ ❊

«**أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل**» [٤].

الشرح

[٤] «**أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل**» أتى بها أولاً على سبيل الإجمال أربع؛ ليتطلع القارئ والسامع إلى تفصيل هذه الأربع، وما أحوج الناس إلى فهمها، وبالأخص طلاب العلم؛ ليَعْلَمُوهَا، ويُعَلِّمُوهَا سواهم؛ ليفوز بالأجر الوفير.

❊ ❊ ❊

«الأولى: العلم» [٥].

الشرح

[٥] «**المسألة الأولى: العلم**»: والعلم المراد به: العلم الشرعي، وهو ما جاء في كتاب الله تعالى، وفي سنَّة رسوله ﷺ، وبيَّنه العلماء الربانيون من أصحاب العقيدة السلفيَّة(١) والمنهج السليم في كل باب من أبواب العلم.

وهذه كلمة مجملة جاء تفصيلها فيما بعدها، فكأن سائلاً سأل: ما المراد بالعلم الواجب؟ لأن العلم منه ما هو واجب، لا يعذر أحَدٌ بجهله، ومنه ما هو فرض كفاية، ومنه ما هو فرض عين، فهذه الأربع المسائل -التي الأولى منها العلم- واجبة ولازمة لكل مسلم ومسلمة.

* * *

«وهو معرفة الله» [٦].

الشرح

[٦] «**وهو معرفة الله**»: فسر العلم بأنه معرفة الله، أي: أنه يجب على المسلم والمسلمة أن يعرف -كل واحد- ربَّه بذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وأن يعرف العبد بأن الله -تبارك وتعالى- هو خالقه ورازقه، والمتصرف في أمره بل وفي الكون كله، وهو المستحق لأن يُعبد وحده دون سواه، وكل عبادة صُرفت لغيره فهي عبادة باطلة، وصاحبها مشرك بالله.

---

(١) معنى «السَّلفية» نسبة إلى السَّلف الصَّالح، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون لهم، والسَّائرون على منهجهم إلى يوم الدِّين.

وأن يؤمن بأن له الأسماء الحسنى والصِّفات العلا التي جاءت في كتاب الله وفي سنَّة رسوله ﷺ، وقد أمرنا الله ﷻ أن تكون لنا الأسماء والصِّفات وسيلة في دعائنا وتضرعنا إليه، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]. فمن عرف الله ﷻ حق المعرفة، وآمن به، وقدَّره حق قدره، فأقام فرائضه، وأدى الواجبات، وامتثل المأمور، واجتنب المنهي، وأحل الحلال معتقدًا حله، وحرَّم الحرام معتقدًا تحريمه، وهو في كل ذلك يرجو رحمة ربِّه، ويخشى عقوبته طيلة حياته؛ فهو المؤمن حقًّا، له من ربِّه مغفرة وأجر عظيم.

❊ ❊ ❊

«ومعرفة نبيه» [٧].

الشرح

[٧] **«ومعرفة نبيه»**: من الواجبات التي لا يُعذر أحَدٌ بجهلها: معرفة النبي ﷺ، ومعرفة ما جاء به النبي ﷺ لا يكفي المسلم والمسلمة أن يقول كل واحد منهما: أنا أعرف رسول الله بأنه محمد بن عبد الله. لا يكفي هذا، ولكن يعرف بأنه مُرسَل من عند الله، أنزل الله عليه كتابًا هو الفرقان، وأمره بتبيانه، وأمره بدعوة الأمَّة إلى الاعتصام به، وما جاء به نبيه محمد ﷺ من سنته الكريمة.

❊ **وعليه فتنحصر معرفة النبي ﷺ في الأمور التالية:**

١- معرفة شخصه، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليه وعلى نبينا صلاته وسلامه-.

٢- ومحبته فوق محبة النفس، والمال، والوالد، والولد.

٣- ومحبة ما جاء به ﷺ جملةً وتفصيلاً.

٤- والعمل بذلك رجاء رحمة الله، وخشية عقوبته.

* وقد ذكر العلماء بالتتبع والاستقراء لشهادة «أن محمدًا رسول الله» ستة شروط[1]:

- **الشرط الأول:** الاعتراف برسالته واعتقادها باطنًا بالقلب.

- **الشرط الثاني:** النطق بذلك والاعتراف به باللسان.

- **الشرط الثالث:** المتابعة له في العمل بما جاء به أمرًا ونهيًا وتحليلاً وتحريمًا.

- **الشرط الرابع:** تصديقه في كل ما أخبر به من الغيوب الماضية والمستقبلة.

- **الشرط الخامس:** محبته أشد من محبة النفس والمال والولد والوالد والناس أجمعين.

- **الشرط السادس:** تقديم قوله على قول كل أحد والعمل بسنته.

وقد أوحى الله ﷻ إلى نبيه ﷺ أن يبلغ الأمة عموم رسالته؛ فإنها ليست خاصة

---

(١) وقد نظمها شيخنا زيد المدخلي بقوله:

بشروط ستة قد علمت   ومن نصوص الشرع حقًا فهمت

ولها اعتراف فاعتقاد باطنًا   بشرعة الهادي يقينًا بينا

والثاني نطق باللسان واضح   بها صريحًا فانطقوها تفلحوا

والثالث الإحسان في المتابعة   في الأمر والنهي بلا ممانعة

والرابع التصديق فيما أخبرا   أسوتنا الْمُختار سيد الورىٰ

والْخَامس الْمَحبة الشرعية   دليلها في السنن الْمَروية

أقواله قدم كذاك فاعتصم   بالسنة الغراء سبيل من فهم

وذا هو الشرط الأخير فاعلمن   والمعنىٰ حقق يا وريث المؤتمن

بالعرب، وإنما هي رسالة عَامَّة شاملة لكل من بُعِث النبيﷺ وهم على وجه الأرض من عرب وعَجَم، وذكر وأنثى، وحر وعبد، وقاص ودانٍ، بل وإنس وجن؛ حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [لأعراف:١٥٨]. وكلمة «الناس» تشمل جميع الأناسي.

وأكد الله هذا المعنى في قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]. وكلمة ﴿كَآفَّةً﴾ تفيد العموم، فلا يخرج عن رسالة النبيﷺ أحَدٌ من الأمَّة الذين بعث النبيﷺ وهم على وجه الأرض.

وأكد النبيﷺ هذا العموم وهذا الشمول بقوله: **«والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحَدٌ من هذه الأمة -يهودي أو نصراني-، ثمَّ يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلاَّ كان من أصحاب النار»**[1].

فدعوى اليهود، ودعوى النصارى، ودعوى مَنْ يدَّعي أنه يعبد الله بكتاب سابق للفرقان بعد نزول الفرقان، ومن أنزل الله عليه الفرقان؛ فدعواه باطلة، وهو كاذب في هذا الادعاء؛ لأنَّ الله ﷻ جَعَلَ هذا الفرقان مُهَيمنًا على جميع الكتب، وجَعَلَ النبيﷺ خاتمًا لجميع الرسل والأنبياء، ولا يجوز لأحد أن يَتعَبَّدَ إلاَّ بما شرع النبيﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى.

* * *

«ومعرفة دين الإسلام بالأدلة» [٨].

الشرح

[٨] وأما **«معرفة دين الإسلام بالأدلة»**: فهذا باب واسع؛ لأن دين الإسلام يندرج تحته جميع التكاليف القولية والفعلية، والظاهرة والباطنة، فإذا أُطلق دين الإسلام؛ فهو

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٣٤).

ـمن لكل ما كلف الله به عالم الإنس والجن من الفرائض والواجبات والمنهيات، وغير
ـك من التكاليف الشرعيَّة التي خلق الله من أجلها عالم الإنس وعالم الجن؛ ولذا قال الله
في حقّه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]. فحصر ما تدين به الأمَّة خالقها
ـرئها في الإسلام، أي: في جميع تعاليم الإسلام التي أتى بها رسول الإسلام.

وأخبر الله ﷻ أنه مَنْ أراد أن يَعبد الله بدين غير دين الإسلام؛ فعبادته باطلة، وقوله مردود، فقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]. فخسر المبطلون من اليهود والنصارى وغيرهم ممن يَدَّعُونَ بأنَّ ـهم شرائع لابد أن يقيموا تلك الشرائع وتلك العبادات التي يَدَّعُونَ بأنهم مَأمُورُونَ بها في التوراة وفي الإنجيل، ويَدَّعُونَ أنَّ هذا القرآن إنما أنزل على العرب، فهو خاص بهم غير شامل لغيرهم، وهذه دعوى باطلة، أبطلها الله ﷻ في آيات مُتعَدِّدَات بذكر عُمُوم رسالة النبي ﷺ وشمولها، وأبطلها النبي ﷺ بقوله: «**لو كَانَ مُوسَى حيًّا بين أظهركم؛ ما حَلَّ له إلاَّ أن يتبعني**»[1].

* * *

«**الثانية: العمل به**» [٩].

الشرح

[٩] المسألة الثانية: «**العمل به**»: أي: بالعلم، وهذه من المسائل المهمة؛ لأنَّ العَمَل ثمرة العلم، فمن علم، ولم يعمل بعلمه؛ فهو آثم، عَرَّض نفسه لأعظم الخطر كمثل اليهود

---

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٣٣٨)، والدارمي (١/ ١٢٦)، وكتاب السنة (١/ ٢٧) (٥٠).
قال الألباني: «حديث حسن، إسناده ثقات غير مجالد وهو ابن سعيد فإنه ضعيف، ولكن الحديث حسن، له طرق أشرت إليها في المشكاة (١٧٧)، ثم خرجت بعضها في الإرواء (١٥٨٩)».

ومن تشبه بهم، ويترتب على فعله أشد الوعيد.

ولهذا قال علماؤنا -رحمهم الله-: «مَنْ فَسَد من علمائنا ففيه شَبَه من اليهود، ومَنْ فَسَدَ من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى»[1].

وبيان ذلك: أنَّ اليهود أنزل الله عليهم علمًا نافعًا هي التوراة، فيها هُدىً ونور، فحَرَّفوا وبدَّلوا؛ لأنهم لا يُريدون أن يعملوا بنصوص التوراة كما أنزلها الله ﷻ عَلَى موسى ؑ، فَفَسَدُوا واستحقوا من الله ﷻ الغضب، فغضب الله عليهم؛ لأنهم علموا ولم يعملوا، ومن علم من أمة محمد ﷺ شيئًا من علم الكتاب والسنَّة، ثم لم يعمل به؛ فقد تشبه بأولئك المغضوب عليهم، وفي الحديث: «**وَمَنْ تَشَبَّه بقوم؛ فَهُو منهم**»[2]. أي: يستحق العقوبة كما استحقوا العقوبة، وعقوبة كل جانٍ بحسب جريمته، وبحسب جنايته على نفسه.

إذن؛ فالواجب أن يُتبع المسلم العلمَ بالعملِ، كلما فقه مسألة من مسائل دين الإسلام عمل بها؛ ليكسب الأجر الوفير، ويُؤدِّي الفرائض، ويُؤدِّي الواجبات، ويبتعد عن المحرمات، كل ذلك عمل سببه العلم، فالعلم مفتاح للبر، وباب لكل خير.

ومَنْ حُرم العلم حُرم الخير كله؛ لأنَّ الله ﷻ أرسل الرسل بالعلم، وأنزل الكتب بالعلم، وقال النبي ﷺ: «**إنَّ العُلَماءَ وَرَثة الأنبياء، وإنَّ الأنبياء لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما وَرَّثوا العلم، فَمَنْ أخَذَهُ؛ أخَذَ بحظ وافر**»[3].

---

(١) ذكره ابن تيمية عن سفيان بن عيينة وغيره في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٦٧)، وابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٥١)، والمناوي في فيض القدير (٥/ ٢٦١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٤٤).

(٣) هذا جزء من حديث عن كثير بن قيس، قال: «كُنتُ جَالسًا عند أبي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل، فقال: يا أبا الدرداء، أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدِّث به عن النبي ﷺ. قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا. قال: فإني سمعت =

غير أنَّ العلم الذي يُثمر العَمَل الصَّالح لا يحصل للإنسان من ذكر وأنثى إلاَّ إذا بُذلت الجهود في تحصيله، وصَحَّت النيَّة فيه، واهتَمَّ به المسلمون والمسلمات، وبذلوا جُهُودهم، فعلى قدر بذل الجهد يحصل العلم ويكتسب.

وأمَّا التقاعس، وطاعة النفس في شهواتها في لهو وغفلة؛ فهذا سبب من أسباب الحرمان، فالنفس كما وصفها الله أمَّارَة بالسُّوء.

فالسَّالكون طرق العلم الشريف هم الذين اختاروا لأنفسهم -بعد فضل الله ومنته عليهم- أشرف الطرق وخير الأعمال وأزكاها؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يحسن عملاً إلاَّ إذا سبقه العلم، والمراد به العلم الشرعي الموروث من الكتاب والسنَّة، ومن حسن حظ الأمَّة أن يجدوا من ينبههم على ذلك، ويعينهم على ذلك، ويضم جهده إلى جهودهم؛ إمَّا بالتعليم، وإمَّا بالدلالة على الخير، والترغيب في هذا الفضل وفي هذا الشرف العظيم سابقًا ولاحقًا، ويكفي فيه أن الله -تبارك وتعالى- أشاد بالعلم والعلماء: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

واعتبر الله -تبارك وتعالى- العالم مبصرًا، والجاهل أعمى في قوله ﷻ: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩].

فانظروا الفروق الواضحة الظاهرة بين العالم المبصر وبين الجاهل الذي يَتَخبَّط في

=

رسول الله ﷺ يقول: مَنْ سَلَكَ طريقًا يلتمس فيه علمًا؛ سَهَّلَ الله له طريقًا إلى الجنَّة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإنَّ طالب العلم يستغفر له مَنْ في السَّماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإنَّ فضل العالم على العابد كَفَضل القَمَر عَلَى سائر الكواكب، إنَّ العُلَماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما وَرَّثوا العلم، فَمَنْ أخذه؛ أخذ بحظ وافر». أخرجه أبو داود (٣/ ٣١٦)، والترمذي (٧/ ٣٧٤)، وابن ماجه (١/ ٨١)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٤٣).

دنياه إن عمل عَمَلاً لا يُميز بين صواب وخطأ، ولا صحة وبطلان، وما ذلك إلاَّ نتيجة الجهل الذي سببه البعد عن مجالس العلم وحلقات العلماء الربانيين.

ومما جاء في الترغيب في العلم الذي يُثمر العَمَل الصَّالح قول النبيﷺ: «**مَنْ سَلَكَ طريقًا يلتمس فيه علمًا؛ سَهَّل الله له طريقًا إلى الجنَّة**».

وفي رواية: «**سَلَكَ الله به طريقًا إلى الجنَّة**»(١).

وهذا الوعد الكريم خص الله به السالكين طرق العلم، الذين يلتمسون فيها العلم النافع الذي يثمر العَمَل الصَّالح، الذين يَرجُونَ من ورائه رضا الله وجَنَّته في دار كرامته، ويخشون عقوبته وأليم عذابه، فالمؤمن دائمًا وأبدًا بين الخوف والرجاء.

فالعملَ العملَ بالعلم؛ فإنه ثمرته، وإذا علم العبد شيئًا، وعمل به؛ فإنه يتم عمله بدعوة غيره ليعلم ويعمل بقدر طاقته وغاية جهده من قريب وبعيد، والقريب أولى بالبدء في دعوته: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤].

لذا جاءت:

❊ ❊ ❊

«**الثالثة: الدعوة إليه**» [١٠].

الشرح

[١٠] **المسألة الثالثة**: أي: الدعوة إلى العلم والعمل، وخير الناس من علم، وعمل، ودعا الناس للعلم والعمل، كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]. دعوة إلى الله، وعمل بشرع الله، وانقياد واستسلام لأمر الله -تبارك وتعالى- بالامتثال.

---

(١) انظر التخريج السابق نفسه.

«الرابعة: الصبر على الأذى فيه» [١١].

الشرح

[١١] المسألة الرابعة: «الصبر على الأذى فيه»: إذ إنه ما من داعٍ يَدعُو الناس إلى ما دعَ إليه الرسل؛ إلاَّ وسيجد مَنْ يَتعَرَّض لأذاه، كما تَعَرَّض الرسل والأنبياء للأذى من أقوامهم، فعليه أن يصبر، أي: يعتصم بالصبر الذي يعتبر من خير خصال أهل الإيمان، ومن خير زاد للدعاة إلى الله -تبارك وتعالى-، سواء كانت الدعوة لأقربائهم، أو كانت الدعوة لغيرهم.

* لابد أن يكون صابرًا لأمرين:

- أولاً: لا يدخل في سبيل الدعوة إلاَّ بالصَّبر.

- ثانيًا: إذا دَعَا الناس، ووجد شيئًا يُعَارضه أو يَرد دعوته؛ صبر واستمر في ذلك، معتمدًا على الله ﷻ؛ راجيًا الثواب منه والعون منه، كما هو طريق الرسل والأنبياء -عليهم الصَّلاة والسَّلام- عندما بعثهم الله ليدعوا أممهم إلى توحيد الله ﷻ وطاعته ومتابعة رسله.

* * *

والدليل: قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [١٢].

الشرح

[١٢] واستدل المؤلف -رحمه الله- على هذه المسائل بقول الله ﷻ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[(١)].

---

(١) قال ابن القيم -رحمه الله- عن سورة العصر: «وهذا نهاية الكمال، فإنَّ الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه، مكمِّلاً لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه: العلمية، والعملية.

=

* أقسم الله بالزمان على أن كل إنسان خاسر إلاَّ من اتصف بأربع صفات:

- **الصفة الأولى: الإيمان:** وهو العمل القلبي، والتصديق الجازم بكل ما يجب الإيمان به من دين الإسلام بكافة مراتبه.

والصفة الثانية: عمل الصالحات بالجوارح: ويُراد بها هاهنا الأعمال الظاهرة من صلاة، وصوم، وزكاة، وحج، وجهاد، وطلب للعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، ودعوة إلى الله ﷻ .. إلى غير ذلك من الأعمال التي يزاولها أهل الإيمان والإسلام على هُدى من الله، والإحسان بجوارحهم.

والصفة الثالثة: التواصي بالحق: ولا تتم هذه الصِّفة لأحد إلاَّ بعد أن يعلم الحق، فيعود الأمر إلى العلم -إن وجد-، فهو سبب لهداية العبد، ولهداية مَنْ يَدعُوهُم ليهتدوا بهدي الله -تبارك وتعالى-، فمعرفة الحق يدخل في التواصي بالحق دخولاً أوليًّا؛ لأنك لا يمكن أن توصي الناس بالحق إلاَّ بعد أن تعرفه، وهذا هو الواجب.

وتواصي الناس بالحق على درجات مُتفاوته بحسب تفاوتهم في معرفة الحق، فهذا يوصِّي بالحق على سبيل الإجمال، وهذا يُوصِّي بالحق على سبيل التفصيل، وهكذا كما قال الله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧]. كل بقدر حاله، وبحسب استطاعته.

وفي مقدمة الحق الذي يجب التواصي به: توحيد الله -تبارك وتعالى-، توحيده في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وفي صفاته، ثم يأتي دور الفرائض التي فرضها الله ﷻ

=

وصلاح **القوة العلمية** بـ: الإيمان.

وصلاح **القوة العملية** بـ: عمل الصالحات، وتكملة غيره، وتعليمه إيَّاه، وصبره عليه، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا عن كل ما سواه، شافيًا من كل داء، هَاديًا إلى كل خير». الإفادة من مفتاح دار السعادة (١/ ٩٩).

ـى العباد على اختلاف أنواعها، وأهمها الصَّلاة بعد الشهادتين، ثم قرينتها الزكاة، وهكذا ـنية أركان الإسلام، والإيمان، والإحسان.

- **والصفة الرابعة: الصبر بجميع أنواعه:**

أ- **صبر على طاعة الله:** فيفعلها يرجو ثوابها، ويخشى عقوبة التقصير فيها.

ب- **وصبر عن معصية الله:** فيبتعد عنها لما فيها من الخطر في الدنيا، والبرزخ، ـ لآخرة، وما هلكت الأمم السابقة الذين أخبر الله ﷻ عنهم في محكم القرآن إلاَّ بسبب ـعصية؛ إذ منهم مَنْ أغرقهم الله، ومنهم مَنْ أنزل بهم صاعقة، ومنهم مَنْ أخذته ـصَّيحَة، ومنهم مَنْ خَسَفَ الله به الأرض، ومنهم من مُسخوا قردة وخنازير[1]، كل ذلك بسبب شيء واحد هو معصية الله -تبارك وتعالى-؛ لأنَّ الله يجب أن يُطاع فلا يُعصَى، فمعصية الله جريمة منكرة توجب غضبه ومقته وسخطه وأليم عقابه.

إذن من أنواع الصبر: الصبر عن معصية الله لا يقربها، وإن وقع فيها أسرع إلى الله بالتوبة تائبًا صادقًا مستغفرًا، منكسرًا بين يدي الله، يُتبع السيئاتِ بالحسنات، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤].

وكما قال النبي ﷺ: «**وأتبع السَّيئة الحسنة تمحها**»[2].

ج- **والنوع الثالث من أنواع الصبر: الصبر على أقدار الله وعلى قضائه وعلى حكمه في عباده:** فما من حركة في الكون، ولا حدث من الأحداث، ولا أمر من الأمور إلاَّ والله هو مُقدره، فلابد من الصبر، الصبر على المصائب التي تتعلق بالنفس، أو تتعلق بالولد، أو تتعلق

---

(١) يشير الشيخ -حفظه الله- إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٣١٢)، وحسَّنه الألباني في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٠٩).

بالمال، أو نحو ذلك مما هو من سنَّة الله الجارية في هذا الكون؛ إذ تجد الخلق تصيبهم مصائب متنوعة ومُتعدِّدَة: هذا يُصَاب بالفقر، وهذا يُصَاب بالمرض، وهذا يُصَاب بالهمِّ والغمِّ، وهذا يُصَاب بالخوف، وهذا يُصَاب بأمور تعتريه، ولا ينفع ذلك إلاَّ أن يكون صابرًا محتسبًا، يبتغي وجه الله ﷻ، ويطمع في ثواب الصابرين، الذين بشرهم الله -تبارك وتعالى- بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

ولعظم شأن الصبر وصَّى الله نبيه محمدًا ﷺ، فقال له: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧].

وأعلمه بأن الصبر من خلق الرسل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الاحقاف:٣٥].

وهكذا مَدَح أهل العقول والنهى في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:١٩-٢٢].

فلابد من تقييد الصبر بـ: الصبر الذي يُبتغى به وجه الله والدار الآخرة، وليس المراد بالصبر ليُقال: إن فلانًا من أهل الصبر، ومن أهل الجلد .. وما شاكل ذلك، بل الصبر يُبتغى به وجه الله؛ لأنه من خير العبادات وأزكاها، التي يجب أن يعتصم بها أهل الإسلام، والإيمان، والإحسان.

* * * * *

الدرس الثاني



الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

سبق معنا ما ذكره المؤلف -رحمه الله- من المسائل التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يعلمها.

وذكر المسألة الأولى: وأنها العلم الذي يتجلى في معرفة الله بذاته، وأسمائه وصفاته، والإيمان به، ويتجلى أيضًا في محبة الله -تبارك وتعالى-، ومحبة رسوله ﷺ، وما جاء من عند الله من أوامر ونواهٍ وتكاليف شرعيَّة للأمة، كلها علمٌ أنزله الله -تبارك وتعالى- ليُعمَل به، والمكلفون به هُم عالم الإنس والجن.

ويدخل في العلم أيضًا: معرفة النبي ﷺ معرفة شرعيَّة: من هو؟ وبأي شيء جاء؟ وإلى أي شيء يدعو؟

فهو رسول الله حقًّا، أرسله الله -تبارك وتعالى- رحمة للعالمين، وأنزل عليه كتابه المبين؛ ليدعو الثقلين إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، فوجبت على المكلفين محبته فوق محبة النفس، والوالد والولد، والناس أجمعين[1]؛ لأن الله اصطفاه واجتباه، وفضَّله على جميع العالمين؛ ولأن الله أنقذ به المكلفين من عالم الإنس والجن من ظلمات الجهل وتيه

---

(١) يشير الشيخ -حفظه الله- إلى الحديث الذي رواه أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يُؤمنُ أحَدُكُمْ حتَّى أكون أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين**». أخرجه البخاري (١/ ٢١)، ومسلم (١/ ٦٧).

الضَّلال إلى نور العلم والإيمان والمعرفة بالله، وبما يجب لله -تبارك وتعالى- من أمر دينه.

ويدخل في العلم: معرفة دين الإسلام بأدلته، ودين الإسلام هو الدين الذي وصَّى به الله جميع الرسل والأنبياء ليبلغوه أمم الأرض عبر تأريخ الأمم من أول رسول أرسل وهو نوح ﷺ، وأمره الله أن يدعو إلى الإسلام، وأصله وأساسه عبادة الله ﷻ بتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وجميع أفعاله، وتتابع الرسل والأنبياء -ومَنْ دَعَا بدعوتهم- على الدعوة إلى دين الإسلام، والعَمَل به، وترك ما سواه، حتى خُتمت الرسالات برسالة النبي ﷺ، فهو أعظم داعية إلى الإسلام، وأحكم داعية إليه، وفي شريعته الهدى والنور والرحمة، والله ﷻ جَعَل الإسلام السبيل الوحيد الذي مَنْ سَلكَهُ وصل إلى رضا الله وجنته في دار كرامته، ونجا من عذاب الله وسخطه ومقته وأليم عقابه.

وإذا رجعنا إلى معنى الإسلام عرفنا يقينًا بأنه الدين الحق الذي دَعَا إليه كل رسول أرسله الله، وكل نبي بعثه الله، وكل عالم رباني دعا ويدعو بدعوة الأنبياء والمرسلين، ذلك أنه هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخضوع له والخلوص من الشرك، والبراءة منه ومن أهله، وهذا مفتاح رسالة كل رسول أُرسل، وكل نبي بُعث، والقرآن الكريم خير دليل وخير شاهد على هذا المنهج الذي تتابع عليه رسل الله وأنبياؤه، ومشى عليه العلماء الربانيون في كل زمان وفي كل مكان عبر تأريخ هذه الحياة.

وأيضًا عرَّجنا على المسألة الثانية وهي العمل بالعلم: وذكرنا بأن ثمرة العلم العمل؛ لأنَّ العلم النافع الذي استمد من كتاب الله وسنَّة النبي ﷺ يُثمر العَمَل الصَّالح، فهما قرينان لا ينفك أحدهما عن الآخر: «العلم، والعمل»، فإذا انفك أحدهما عن الآخر، بحيث يوجد العلم، ولم يوجد العَمَل؛ فهذه طريقة المغضوب عليهم -والعياذ بالله-.

وإذا وجد العمل، ولم يوجد العلم؛ فهذه طريق الضَّالين.

وإذا وجد العلم، ووجد العَمَل؛ فهي طريق المنعم عليهم من النبيين، والصِّدِّيقين،

والشهداء، والصَّالحين[1] الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

ومن تمام العَمَل بالعلم: الدعوة إليه؛ لأنَّ العلم لا ينتشر، ولا يُفهَم على الوجه الصَّحيح، ولا تنتفع به الأمة إلاَّ إذا وجد من يَدعُو إلى هذا العلم والعمل به، دعوة إلى العلم والعمل، وأشرف الناس وأزكاهم هم الذين يهتمون بشأن الدَّعوَة إلى العلم والعَمَل.

وسبب هذا الشرف وهذه التزكية: هو أنهم ورثة الرسل وورثة الأنبياء؛ لأنَّ الرسل والأنبياء جاءوا بالدعوة إلى العلم والعمل، فَهَدَى الله ﷻ بدعوتهم من أراد هدايته ممن هو أهل للخير ومحل للصَّلاح، وأعرض عنها من سبقت عليه الشقوة، وحكم الله عليه بالخذلان والضَّلال؛ لأنه ليس أهلًا للخير، ولا محلاًّ للصَّلاح، والله لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، فلا يُقال: لماذا حكم لهؤلاء بالهداية فهداهم؟! ولماذا حكم على أولئك بالضلال فأضلهم؟! هذا لا يقوله من عنده علم بذات الله وأسمائه وصفاته، ولا يقوله من يقدر الله حق قدره، وإنما يقوله أهل الإلحاد، وأهل التضليل، وأهل الجهل بالعلم النافع الذي يثمر العَمَل الصَّالح.

---

(١) قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-:

«**فالمغضوب عليهم**: هم الذين لم يعملوا بعلمهم.

والضالون: العاملون بلا علم.

فالأول صفة اليهود، والثاني صفة النصارى، وكثير من الناس إذا رأى في التفسير أن اليهود مغضوب عليهم، وأن النصارى ضالون؛ ظن الجاهل أن ذلك مخصوص بهم، وهو يقر أن ربَّه فارض عليه أن يدعو بهذا الدعاء، ويتعوذ من طريق أهل هذه الصِّفات». مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب (٥/ ١٧)، وانظر الفتاوى (١١/ ٢٧).

ومن دعائم الدعوة إلى العلم والعمل، ومن الوسائل الشرعية العظيمة: الصبر على الأذى فيه، وهي المسألة الرابعة: «**الصَّبر على الأذى فيه**»؛ وذلك أنَّ الداعية لابد أن يواجه أصنافًا من الناس قد اختلفت مفاهيمهم، وتباينت اتجاهاتهم، وتنوعت مستوياتهم، فمنهم من يقبل دعوته لأول وهلة، وهؤلاء من سلمت فطرتهم، إذا دُعوا إلى الله وإلى رسوله ﷺ؛ تجدهم أول المبادرين إليها، والقابلين لها، والمحبين لها.

وتجد آخرين أيضًا بعضهم يُعرِض عن دعوة الخير ودعوة الحق والهدى؛ لجهله بما هو في أَمس الحاجة إليه، وإذا كان هو يحتاج إلى الطعام والشراب والنفس؛ فهو يحتاج إلى العلم والعمل مثل حاجته إلى طعامه وشرابه ونَفَسه، بل حاجته إلى العلم والعَمَل أشد، ولكن كثيرًا من الناس يجهلون الحكمة من خلقهم وإيجادهم.

من أجل هذا التباين واختلاف الناس واختلاف مواقفهم؛ فإنه لابد للداعية إلى العلم والعَمَل به أن يصبر على ما يصيبه من أذى، وأسوته في ذلك رسول الله وأنبياؤه -عليهم الصَّلاة والسَّلام-، وكل داعية إلى الله صابر مخلص يرجو من وراء دعوته رضا الله وجنته، ويخشى عقوبة الله -تبارك وتعالى-.

وقد استدل -رحمه الله- بأعظم سورة تضمنت الدعوة إلى العلم والعمل به، ودعوة الخلق إليه، والصبر على ما ينال الإنسان من أذى في هذا السَّبيل، وهي «سورة العصر»، حيث ذكر الله -تبارك وتعالى- فيها قاعدة عَامَّة: أن كل إنسان خاسر -بمعنى هالك- إلاَّ من استثناهم في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:٣].

فهؤلاء الذين جمعوا بين: العلم، والعمل به، ودعوة الخلق إليه، والصَّبر على الأذى فيه، هؤلاء هم صفوة الناس وخيرهم وأزكاهم؛ لذا استثناهم الله -تبارك وتعالى- من الخسران، ومن سَلِمَ من الخسران؛ فهو الرابح، وهو الفائز فوزًا عظيمًا في دنياه، وفي برزخه، وفي أخراه؛ لأنه

ممتثل لأمر ربه، فآمن بكل ما يجب الإيمان به باطنًا وظاهرًا، قولاً وفعلاً واعتقادًا، وعمل الصالحات بجوارحه على اختلاف أنواع التكاليف التي هي من وظائف الجوارح والحواس.

ثم شرع في دعوة الخلق إلى رحاب الحق أمرًا ونهيًا، وإيضاحًا وتبيانًا، ونصرًا ورعايةً، لا يُريد منهم جزاءً ولا شكورًا، ولكن يُريد منهم أن يسلكوا في رضا ربِّهم، ويتقربوا إليه بصالح العَمَل، ويبتعدوا عن مواطن الزلل، فذلك هو الذي يرضي الله -تبارك وتعالى- عنهم، ويمنحهم جنته التي أعدها لأوليائه وحزبه المفلحين، وصبروا على ذلك صبرًا مستمرًّا طيلة الحياة التي يدعون فيها الخلق إلى الله -تبارك وتعالى-.

هذه كإعادة لخلاصة الدرس الماضي.

* * *

قال الشافعي -رحمه الله تعالى-: «لو ما أنزل الله حُجَّة على خلقه إلاَّ هذه السورة لكفتهم» [١٣].

الشرح

[١٣] ووقفنا عند قول الشافعي(١) -رحمه الله-: **«لو ما أنزل الله حُجَّة على خلقه إلاَّ هذه السورة لكفتهم»(٢)**.

(١) هو الإمام، عالم عصره، ناصر الحديث، فقيه الملة أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس الشافعي، ولد بغزة، وحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين؛ لئلا يضيع نسبه، فنشأ بها، وقرأ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل: ابن ثماني عشرة سنة، وصنف التصانيف، ودوَّن العلم، ورد على الأئمَّة متبعًا الأثر، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وبَعُدَ صيته، وتكاثر عليه الطلبة، مات سنة أربع ومائتين، وله أربع وخمسون سنة. انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٢٥٤)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٥).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره بنحوه (١/ ٦٣)، انظر كتاب تيسير العلي القدير (٤/ ٥٤٩).

وهذا التعبير يدل على عمق فقه الشافعي ومعرفته بمعاني كلام الله -تبارك وتعالى- وهكذا كل مَنْ أمعَنَ النظر رأى أنه لو ما أنزل الله على الخلق إلاَّ هذه السورة التي فيها دعوة الخلق إلى الإيمان بكل ما يجب الإيمان به؛ لأن الله قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. وفيها الدعوة إلى العَمَل الصَّالح على اختلاف أنواع التكاليف من فرائض، وواجبات، ومسنونات، وفيها دعوة الناس إلى الحق والعمل به، والصَّبر على الأذى فيه.

فحُقَّ للشافعي -رحمه الله- أن يقول: «لو ما أنزل الله حُجَّة على خلقه إلاَّ هذه السورة لكفتهم». كيف وقد أنزل الله مائة وأربع عشرة سورة: منها الطوال، ومنها المئين، ومنها دون ذلك، ومنها المفصل، وهذا أمر معلوم؛ لأنَّ الله ﷻ أنزل هذا القرآن وتكفل بحفظه، كما في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

* * *

وقال البخاري -رحمه الله تعالى-: «باب: العلم قبل القول والعمل، والدليل قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]. **فبدأ بالعلم قبل القول والعمل»** [١٤].

الشرح

[١٤] وقول البخاري[١] -رحمه الله-: «**باب: العلم قبل القول والعمل**»[٢].

---

(١) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، أبو عبد الله البخاري، جبل الحفظ، صاحب الصحيح، وإمام أهل الحديث في زمانه، والمقتدى به في أوانه، والمقدَّم على سائر أضرابه وأقرانه، وأجمع العلماء على قبوله وصحة ما فيه، وكذلك سائر أهل الإسلام، ولد سنة أربع وتسعين ومائة، ومات أبوه وهو صغير، فنشأ في حجر أمّه، فألهمه الله حفظ الحديث، وقرأ الكتب المشهورة وهو ابن ست عشرة سنة، وتنقل من مكة، ثم إلى أماكن مختلفة، وتوفى في «خرتنك» على فرسخين من «سمرقند» سنة ست وخمسين ومائتين في شوال، وله اثنتان وستون سنة، انظر: البداية والنهاية (١١/ ٢٤).

(٢) **قال ابن المنير:** «أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلاَّ به، فهو متقدم =

تبويب البخاري وتراجمه تعتبر كقواعد فقهية وعلمية؛ لأنه ينطلق مما يستمده من القرآن الكريم أو من حديث النبي ﷺ، فيضع ترجمة كهذه الترجمة: «**باب: العلم قبل القول والعمل**»، أخذها من قوله ﷻ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

فبدأ هنا بما بدأ الله ﷻ به في هذا الأمر المبارك للنبي ﷺ، وأمته تبع له في ذلك، أمره الله بالعلم، وما ذلك إلاَّ لأن كل عبادة بدون علم لا يُقيم الله لها وزنًا، بل لابد أن يسبق العَمَلَ العلمُ حتى يكون العامل على بصيرة من أمره.

وسبق معنا أن العلم والعمل مقترنان، وأنَّ مَن جمع بينهما؛ فقد هُدي إلى الصِّراط المستقيم، وأنَّ من علم، ولم يعمل؛ فقد سلك طريق المغضوب عليهم، وأنَّ من عمل بدون علم، بل على جهل وخطأ؛ فقد سلك طريق الضَّالين، وهذه قواعد معلومة من دين الإسلام بالضَّرُورَة.

وفي قول الله ﷻ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. يحسن بالداعية والمعلم أن يقف عند معنى هذه الكلمة: كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله»؛ ليتعرف على أركانها أولاً، وعلى شروطها ثانيًا، وعلى حقوقها ومكملاتها بحسب الإمكان ثالثًا.

وقد ذكر علماؤنا -رحمهم الله- أن لـ: «لا إله إلاَّ الله» أركانًا، وشروطًا، وحقوقًا واجبات ومكملات.

فأركانها اثنان: النفي، والإثبات[1].

=

عليها؛ لأنه مُصَحِّح للنية المصححة للعمل، فنبه المصنف على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: «إنَّ العلم لا ينفع إلاَّ بالعمل» تهوين أمر العلم، والتساهل في طلبه». انظر: فتح الباري (١/ ٢١٦).

(١) وقد نظمها شيخنا زيد المدخلي بقوله:

لكِلْمة الإخلاص ركنان هما ... النفي والإثبات فاحْفَظَنْهما

أمَّا النفي: فمأخوذ من قولك: «لا إله».

وأمَّا الإثبات: فمأخوذ من قولك: «إلاَّ الله».

والمعنى العام: لا معبود حق إلاَّ الله وحده دون سواه، فعبادته هي الحق، وعبادة غيره من أصنام وأوثان وأرباب تُعبد من دون الله عبادة باطلة، يُسأل عنها مَنْ وقع فيها، وعبادة غير الله أكبر معصية على وجه الأرض، وأعظم ذنب عُصي الله -تبارك وتعالى- به، بدليل أنه لا يغفر لصاحبه إن مات على ذلك؛ لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

ولقول النبي ﷺ لمن سأله: «أي الذنب أعظم؟ قال: **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»(١).

*** وكما ذكروا لها أركانًا؛ فقد ذكروا لها شروطًا سبعة -بل ثمانية-، عُرفت بالتتبع والاستقراء من الكتاب والسنَّة:**

- **الشرط الأول: العلم بمعناها**: وذلك أنَّ العبد إذا نطق، فقال: «لا إله إلا الله»؛ فإنه يجب أن يكون عالمًا بمعناها، أي: لا معبود حق إلاَّ الله، ولكل شرط من شروطها ضد.

فضد العلم: الجهل: وذلك أنَّ الجاهل بمعناها لا يستطيع أن يُطبق ما دلت عليه من العلم حتى يعلم، ومن أجل هذا قال البخاري -رحمه الله تعالى-: «باب: العلم قبل القول والعمل». ولكونها أصل الدين وقاعدته، فيجب على كل مسلم ومسلمة أن يَتعَلَّمُوا أركانها وشروطها ولو على سبيل الإجمال الواضح.

والشرط الثاني: اليقين: وذلك بأن يكون الناطق بـ: «لا إله إلاَّ الله» موقنًا بما دلت عليه من المعنى، وهو النفي والإثبات.

وضد اليقين الشك: فلا يجوز أن يشك المسلم فيما دلت عليه كلمة الإخلاص من معنى.

والشرط الثالث: القبول: لما دلت عليه من المعنى العظيم الذي هو النفي والإثبات،

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٦٦)، ومسلم (١/ ٩٠).

ي: القبول لذلك بصدر منشرح، ونفس مطمئنة، وإيمان عميق، وأنَّ ما دلت عليه هذه الكلمة هو أصل الدين وقاعدته وأساسه.

وضد القبول: الرد: وقد فعله كفار قريش الذين واجههم النبي ﷺ بالدعوة، فردوا عليه هذه الكلمة؛ اعتزازًا بعبادة الأصنام والأوثان التي وجدوا عليها الآباء والأجداد.

ودارت المعارك، ونصر الله ﷻ الطائفة المؤمنة بقيادة النبي الكريم ﷺ على أولئك الكافرين المعرضين الذين لم ينقادوا لكلمة الإخلاص، إلاَّ بعد مصاولة، وبعد أذى نال النبي ﷺ والطائفة المؤمنة القليلة الذين اتبعوه في أول الأمر، منهم من هاجر إلى الحبشة، ومنهم من بقي مختفيًا حتى جاء الله ﷻ بالفتح المبين.

وجاءت الهجرة، وجاء بعدها الفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وانتصر الحق، وعلت هذه الكلمة التي من أجلها خلق الله الثقلين، وخلق السَّمَوات والأرض، وخلق الجنة والنار، وشرع الجهاد، والدعوة والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كل ذلك ليتحقق معنى هذه الكلمة العظيمة: «لا إله إلا الله».

والشرط الرابع: الانقياد: بمعنى الخضوع والاستسلام ظاهرًا وباطنًا للمعنى الذي دلَّت عليه كلمة الإخلاص.

وضده: الترك.

والشرط الخامس: الصدق: وهو والتصديق بها، بمعنى أنك إذا قلت: «لا إله إلاَّ الله»؛ يجب أن تكون صادقًا فيما تقول ظاهرًا وباطنًا.

والدليل على صدقك فيها: هو أن تفرد ربَّكَ بكل عبادة مالية أو بدنية، أو هما معًا وحده دون سواه، فلا تتوجه بالعبادات إلاَّ إليه، كما أمرك الله ﷻ في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣].

وكما في قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦].

وكما في قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨].

وكما في قوله الحق: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] ...

إلى غير ذلك من النصوص التي أمر الله ﷻ فيها المكلَّفين أن يتوجهوا إليه بعباداتهم من فعل الأوامر، وترك النواهي، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام، وإقامة الفرائض، وإقامة الحدود، وأداء الواجبات، والتقرب إلى الله بالمسنونات، هذه هي العبادات التي كَلَّفَ الله بها جميع المخلوقات من عالم الإنس والجن.

إذن؛ **معنى الصدق**: أن يكون صادقًا، وأن يكون مُصدِّقًا بما دلت عليه هذه الكلمة العظيمة من معنى.

وضد الصدق: الكذب: كصنيع كفار قريش ومن لفَّ لفهم في عهد النبي الكريم ﷺ وأتباعهم إلى يوم الدين، نعم، لقد كذَّب بها الوثنيون، وعُبَّاد القبور، وأصحاب الغلو في الصالحين، وكذَّب بها الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود الله، ولا بالجنَّة، ولا بالنَّار، ولا بالبعث، ولا بالنشور، وكذَّب بها اليهود، وكذَّب بها النصارى، فغضب الله عليهم جميعًا؛ لأنهم لم يُصَدِّقوا بهذه الكلمة، وإنما جعلوا مع الله آلهةً أخرى.

فالكفار الوثنيون جعلوا مع الله معبودات من الخشب والحجارة والتماثيل، والأضرحة يتوجهون إليها بالنذور وبالذبائح، ومن ثَمَّ يستغيثون بمن فيها ممن يطلقون عليهم: «الأولياء» في جلب المصالح، ودفع المضار!! فخابوا وخسروا.

وعبدت اليهود ثلاثة والنصارى كذلك، كما بيَّن الله ﷻ في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾. فجعلوا لله ولدًا، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

رَدَّ الله عليهم وذمهم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وذمهم بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]. أي: يتخذون العلماء والعُبَّاد أربابًا، يُحلون لهم الحرام، فيتبعونهم على ذلك، ويُحرمون عليهم الحلال، فيتبعونهم على ذلك، فَذمَّهم الله ﷻ ذمًّا شديدًا؛ لتأخذ أمَّة القرآن العظة والعبرة من صنيعهم، الذي أوضحه الله بقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وأمَّا أهل الإلحاد من الدهريين[1]، والطبائعيين[2]، والماركسيين[3]، فهؤلاء لا يؤمنون بوجود الله ﷻ، وإنما يؤمنون بأن الطبيعة هي التي تتصرف في الكون، وإذا سُئلوا عن الطبيعة؛ قالوا: قوة فاعلة!! ولا يدرون عن حقيقتها، وهذا غاية الكفر والإلحاد.

الشرط السادس: الإخلاص: وضده الشرك، والمشرك عمله باطل ومردود عليه؛

---

(١) **الدهريَّة:** فرقة ينفون الربوبية، ويحيلون الأمر والنهي، وينكرون جواز الرسالة، ويجعلون الطينية قديمة، ويجحدون العقاب، ولا يعرفون الحلال ولا الحرام، ولا يقرون في جميع العالم برهانًا يدل على صانع ولا مصنوع، وخالق ومخلوق!! تعالى الله عن إفك الكل، وعصمنا من الأباطيل برحمته. «عقائد الثلاث والسبعين فرقة» (٢/ ٧٦٧)، والمنتقى النفيس (ص٧٨)، وإغاثة اللهفان (ص٦١٢).

(٢) **الطبائعيون:** هم الذين يزعمون أنَّ الأكوان تتصرف بطبيعتها، فتوجد وتعدم بأنفسها، ليس لها رَب يتصرف فيها، إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية. معارج القبول (٢/ ٧٧٦)، والمنتقى النفيس (ص٧٠).

(٣) **الماركسية:** نسبة إلى كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣م) فيلسوف ألماني واجتماعي وثوري محترف، كانْ المؤسس الرئيسي لحركتين جماهيريتين قويتين هما: الاشتراكية الديمقراطية، والشيوعية الثورية. الموسوعة العربية العالمية (٢٢/ ٦٦) باختصار.

لقول الله ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

الشرط السابع: المحبة: لهذه الكلمة، ولما دلت عليه من معنى، والمحبة لمن أنزلها، وأمر أن تحقق ظاهرًا وباطنًا، ولمن دَعَا إليها من الرسل والأنبياء والوارثين لعلمهم ودعوتهم، فمن أحبها وأحب من أمر بها، وأحب المعنى الذي دلت عليه فهو المسلم حقًّا، ومن أبغضها وأبغض مَنْ جَاءَ بها، ولم يعمل بما دلت عليه من المعاني؛ فهذا ليس من المسلمين في شيء، وضد المحبة: البغض.

الشرط الثامن: الكفر: بما يعبد من دون الله إذ لا ولاء إلا ببراء؛ أي: لا توحيد حقيقي إلاَّ أن يكون التوحيد مقرونًا بالبراءة من الشرك وأهله.

※ وأعيد الشروط السبعة[١] على سبيل الإجمال لتحفظ[٢]:

١- العلم.	٢- اليقين.
٣- القبول.	٤- الانقياد.
٥- الصدق.	٦- الإخلاص.
٧- المحبة.	٨- الكفر بما يعبد من دون الله.

---

(١) وقد نظم هذه الثمانية الشروط شيخنا زيد المدخلي بقوله:

شروطها بالنص قل ثمانيه	العلم واليقين وإخلاص النيه
رابعها الصدق يليه الخامس	هو انقياد والقبول السادس
والسابع الحب لما له حوتْ	من المعاني فاعملن بها ثبتْ
والثامن البغض لما يعبد منْ	دون الإله فاعْقلَنْها يا فطنْ

(٢) وقد نظمها شيخ مشايخنا الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي -رحمه الله- بقوله:

وبشروط سبعة قد قيدت	وفي نصوص الوحي حقًّا وردت
فإنه إن لم ينتفع قائلها	بالنطق إلا حيث يستكملها
العلم واليقين والقبول	والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبه	وفقك الله لما أحبه

وأما حقوقها ومكملاتها: فهي بقية التكاليف الشرعية من الفرائض والواجبات ـي أمر الله بامتثالها، والعمل بمقتضاها، والابتعاد عن المحرمات، والعمل بالمسنونات، ـ كلها تكمل «لا إله إلاَّ الله»، وتشهد لقائلها بالصِّدق فيها والمحبة لها.



الدرس الثالث

«اعلم» [١٥].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه ..

أما بعد:

فقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قول المصنف -رحمه الله-: «**اعلم -رحمك الله- أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه الثلاث المسائل، والعمل بهن:**

الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هملاً، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنَّة، ومن عَصَاهُ دخل النار».

[١٥] ففي قول المؤلف -رحمه الله-: «**اعلم**»: تنبيه وإرشاد وتوجيه لطالب العلم ليصغي إلى مسائله، ويهتم بشأنه، فالعلم هو خير ما يُهتم به، وخير ما تُصغي إليه القلوب والجوارح؛ لكي تفهمه على الوجه الصَّحيح، ومن ثَمَّ العمل به؛ إذ هو ثمرة العلم.

* * *

«**رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه الثلاث المسائل والعمل بهن**» [١٦].

الشرح

[١٦] وفي قوله «**رحمك الله**»: خطاب لكل قارئ وسامع، وهي جملة تدل على نصح المؤلف وإخلاصه لإخوانه المسلمين والمؤمنين؛ حيث دعا لهم بين يدي مسائل

ـيمة؛ ليعلموها، ويعوها، ويَعمَلوا بمقتضاها، وذلك من الآداب الحسنة في التأليف، وفي المخاطبات، وفي الخطب، وفي المحاضرات على اختلاف أنواعها، ويسلك علماء السلف في توجيهاتهم -كتابة وخطابة وتوجيهًا سديدًا- هذا المسلك بتنبيه السامع والقارئ، والدعاء الخالص له.

❊ ❊ ❊

«الأولى: أن الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هَمَلاً، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنَّة، ومن عَصَاه دخل النَّار».

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٥-١٦] [١٧].

الشرح

[١٧] ثم بيَّن -رحمه الله- أن هناك ثلاث مسائل من أسس الإسلام وأصول الإيمان يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتعلمها، ويفهمها فهمًا صحيحًا، ويعمل بمقتضاها.

وهذه المسائل الثلاث حصرها المؤلف بالتتبع والاستقراء من نصوص الكتاب والسنَّة.

ثم شرع في بيان المسائل، فبدأ بالمسألة الأولى، وهي قوله: «**أن الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هَمَلاً؛ بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنَّة، ومن عَصَاه دخل النَّار**».

وهذه المسألة أدلتها ثابتة صريحة في الكتاب والسنَّة وهي: أن الله خلق الخليقة على اختلاف أجناسها وأصنافها، وصرَّح بذلك في آيات محكمات، منها قوله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢].

ومنها قوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

وقوله -تبارك وتعالى-: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢].

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق:١-٢].

وهناك آيات متعددات تدل على منَّة الله ونعمته وفضله وإحسانه على مخلوقاته، وفي مقدمة المخلوقات عالم المكلفين من الإنس والجن، وكما انفرد بخلقهم كذلك انفرد برزقهم، ولم يشاركه في الخلق والإيجاد والرزق والعطاء مشارك من مخلوقاته، لا من عالم الأرض، ولا من عالم السماء، بل هو وحده انفرد بخلقهم وإيجادهم، وامتَنَّ عليهم بذلك، فقال -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار:٦-٧].

وقال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى:١-٣].

وانفرد بالرزق فهو الرزاق ذو القوة المتين، كما صرَّح بذلك في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذريات:٥٨].

وهكذا قول الحق سبحانه: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]. أي: أن من أسباب الأرزاق الأمطار التي ينزلها الله ﷻ من السَّماء على الأرض، فتهتز الأرض، وتنشق عن النبات، فتأكل جميع المخلوقات من ذلك على اختلاف أصنافهم، وذلك من فضل الله ومن عطائه ورزقه، ليس لأحد في ذلك يد.

وهكذا أتى الامتنان بالرزق في آيات متعددات، وما ذلك إلاَّ لتكون الأمَّة أمَّة شاكرة لله ﷻ على عطائه وعلى سعة الرزق، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس:٣١].

والخلاصة: أنَّ الله ﷻ خلق الخليقة: برها وفاجرها، مؤمنها وكافرها، صامتها وناطقها، جامدها ومتحركها، خلق ورزق، وحفظ وقدَّر، ويسَّر الأمور وسهَّل، كل ذلك

خلق الأمّة مراد الله -تبارك وتعالى- منها، كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

خلقهم في أحسن تقويم، وكرم بني آدم بأنواع من الكرامات لا تدخل تحت العدّ والحصر، وامتنّ عليهم بذلك في قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]. ركّبَ فيهم العقول، وركّبَ فيهم الحواس التي تدرك بها المصالح ؛ بأن جَعلَ لهم سمعًا يَسمَعُون به ما يحتاجون إليه من الواجبات والمباحات، ويَسمَعُون به العلم وكلمة الحق والخير، ويسمَعُون ما يحتاجون إلى سماعه في مخاطباتهم، وقضاء حوائجهم، وعلاقاتهم الاجتماعية والأسرية، وجعل لهم أبصارًا يبصرون بها ما يحتاجون إليه، وجعل لهم أفئدة -أي: قلوبًا- وعُقولاً يميزون بها بين النافع والضار، وبين الحق والباطل، وبين الصالح والطالح.

ومع هذه النعم التي أشرت إلى بعضها لم يتركهم الله -تبارك وتعالى- هملاً، لا يؤمَرُون، ولا ينهون، ولم يكلهم إلى عقولهم وحواسهم، بل أرسل إليهم رسلاً من لدن آدم ﷺ إلى أن خُتمت الرسالات والنبوات برسالة محمد ﷺ، وأنزل عليهم كتبًا يُبينها أولئك الرسل، ويُبينها الأنبياء الذين يأتون بعد الرسل، ويُبينها العلماء الربانيون الذين دَرَسُوا وتذاكروا وتعلموا ما جاء به الرسل من عند الله ﷻ، وبذلك قامت الحجَّة على الناس، وانقطعت المعذرة، كما قال الله ﷻ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

فبرسالات الرسل وبلوغ دعوتهم إلى الخلق تنقطع الحجَّة، ويبطل الاعتذار، يوم يسألهم الله -تبارك وتعالى- عمَّا جاء به المرسلون.

ورتَّب الله -تبارك وتعالى- على طاعة الرسل رضاه والجنَّة؛ لأن الله ﷻ أرسلهم

ليطاعوا، وختمهم برسالة نبيه محمد ﷺ؛ ليطاع فلا يُعصى، وأشار إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

وكما قال ﷻ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩].

وناداهم بنداء لطيف آمرًا لهم بطاعته وطاعة رسوله وطاعة ولي أمر المسلمين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

وأرشدهم عند التنازع والاختلاف أن يرجعوا إلى كتاب ربِّهم وسنَّة نبيهم -عليه الصَّلاة والسَّلام- بعد وفاته، فقال ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

ومن عصى الرسل دخل النار، وكتب الله عليه مقته وسخطه وغضبه، وصبَّ عليه أليم عذابه؛ لأنه هو الذي ظلم نفسه برفض ما جاء به المرسلون، ومتابعة الهوى والشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، وهذه الأنواع الثلاثة شر محض، ودعاة ضلال.

فالهوى يهوي بصاحبه في النار وبئس القرار -والعياذ بالله-.

والشيطان كما أخبرنا الله ﷻ عنه، وحذرنا منه بقوله: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور:٢١].

فأخبرنا الله ﷻ عن قبح دعوة الشيطان لنحذرها.

وكل معصية من قول وفعل ظاهرًا أو باطنًا يرتكس فيها العبد فهي نتيجة لاستجابته لدعوة الشيطان؛ ولخطر ذلك جاء التنبيه للأمة والإرشاد والتوجيه في كتاب الله ﷻ للأمة؛ لتحذر الهوى؛ ولتحذر متابعة الشيطان؛ ولتحذر تلبية أمنيات النفس الأمارة بالسوء في آيات متعددات، كما في قول الله ﷻ لنبيِّه -عليه الصَّلاة والسَّلام-، وأمته تبع له في الخطاب: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ

إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦].

وفي قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

وفي قوله -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣].

وهكذا قول الحق ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٥٣].

وقال في حق الشيطان، والتحذير من متابعته، وبيان عاقبة المتابعة: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣].

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

هذا ولَكَمْ لهذه الآيات من نظائر في هذا المعنى في كتاب الله ﷻ.

وإذا كان الأمر كما علمت؛ فسَعَادة الدارين محصورة في طاعة الله، وطاعة رسله -عليهم الصَّلاة والسَّلام- كما أمر الله وبيَّن، وأنزل في كتبه: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وصحف إبراهيم وموسى، وأن الشقاء والضَّلال سببه معصية الرسل، ورد دعوتهم، والخروج عن طاعة الله -تبارك وتعالى-.

لذا قال المصنف في جملتين قصيرتين في حق الرسول ﷺ: «بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنَّة، ومن عصاه دخل النار».

وحيث إنَّ مسائل العلم لابد أن تؤيد بالأدلة، وذلك إذا قال الإنسان: هذا حلال، وهذا حرام، وهذا حق، وهذا باطل، وهذه طريق الهدى، وتلك طرق الضلال والرَّدَى. فلابد أن يُدلل على ذلك من مصدرين عظيمين: كتاب الله المبين، وسنَّة الرسول الأمين ﷺ.

فمن جملة الأدلة على أن الله أرسل إلينا رسولاً كما أرسل إلى الأمم السابقة رُسلاً قول الله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل:١٥]. وهو خطاب لأمَّة محمد ﷺ، والمراد بهم: كل من بعث النبي ﷺ وهم على وجه الأرض، كلهم أمة محمد ﷺ، تجب

عليهم طاعته، والتقيد بشرعه المطهر، ولا عذر لأحد أن يَتعَبَّد بشريعة من الشرائع السَّابقة بعد بعثة النبي ﷺ، ولا تقبل دعوى أحد يدَّعي بأنه يَسعه الخروج عن شريعة النبي ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى عليه السلام.

والأدلة على ذلك قائمة، منها قوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ:٢٨]. وكلمة الناس شاملة لجميع الأناسي من العرب والعجم.

وهكذا قول الله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]. ولم يستثن من أنزل الله على رسلهم وأنبيائهم شرائع سلفت، وهم ورثوا ذلك؛ لأن القرآن مهيمن على جميع الكتب، ورسالة النبي ﷺ عَامَّة وشاملة، ولا يجزئ عن أحد أن يتعبد بشيء مما جاء به الرسل الأولون لم يكن في شرعنا الشريف؛ لكمال هذا الدين وتمامه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣].

وأكد النبي ﷺ ذلك بقوله: «**والله، لا يسمع بي أحَدٌ من هذه الأمَّة -يهودي أو نصراني-، ثمَّ يَموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت إلاَّ كان من أصحاب النار**».

إذن؛ فالأدلة قائمة كما أسلفت بأن أمة محمد ﷺ هم كل من بعث النبي ﷺ وهم على وجه الأرض من العَرَب والعَجَم، فهم مخاطبون ومكلفون ومسئولون عن رسالة النبي ﷺ، الذي بعث على رأس الأربعين من عمره، وتاريخ بعثته معروف ومشهور في كتب التأريخ والسير، وهذا لا يدفعه إلاَّ المبطلون من كفار اليهود والنصارى أصحاب التحريف والتفريط والإفراط، والجفاء والغلو في رسلهم وأنبيائهم، قالوا: إننا نحن أهل الشرائع الكبار، فنحن على شريعتنا.

ومن يصدق منهم أن النبي ﷺ رسول مبعوث؛ قال: إنما هو إلى العَرَب خَاصَّة. ويدلي بشبه من القرآن على زعمه أنها تصلح دليلاً لما قال، ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى:٧]. فيقول: إنَّ رسالة النبي ﷺ إنما هي لأهل مكة

القرى المجاورة لها، وما عدا ذلك فهم أتباع الرسالات الكبار كالتوراة والإنجيل!!

وكذبوا في ذلك؛ لأن الله ﷻ ختم الرسالات والنبوات برسالة النبي ﷺ، وختم كتب المنزلة بالفرقان الذي لا كتاب بعده، والرسول الذي لا نبي بعده، فهو خاتم الأنبياء والمرسلين، ولا يصح من أحد من عباد الله إلاَّ أن يتقيد بشرعه الكريم.

إذن؛ فالرسول شاهد على أمته، وقد بيَّن الله ﷻ تلك الشهادة، وأنها ستكون حقًّا يوم القيامة؛ حيث قال ﷻ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١].

وقد ثبت في السنن ومسند الإمام أحمد[١] أن الله -تبارك وتعالى- يوم يجمع الأمم أولها وآخرها يدعى نوح عليه السلام ويسأل هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم بلغتهم. فيقال لقومه: هل بلغكم نوح؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير. فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول نوح: محمد وأمته، فتأتي أمة محمد شاهدة على قوم نوح بأنهم أتاهم، ودعاهم، وحذر وأنذر، ودعا سرًّا وجهرًا وليلاً ونهارًا، فتدان أمة نوح وتؤخذ بذنوبها وهذا من مقتضى حكمة الله وكمال عدله، ثم يشهد النبي ﷺ على أمته بأنه بلغهم[٢].

---

١) هو الإمام العالم الحجة المجتهد البارع الحافظ أبو عبد الله بن محمد بن حنبل الشيباني له مصنفات ومن أشهرها مسنده ولد سنة ١٦٤ هـ، وتوفي سنة ٢٤٠ هـ.

٢) ولفظه: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاء من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، فتشهد أنه قد بلغ، وهو قوله -جل ذكره-: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]، والوسط: العدل». أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ٢٢ و ٤/ ١٣ و ٥/ ٤)، والبخاري في كتاب أحاديث النبياء، باب الأرواح جنود مجندة (٢/ ٤٥٣) (٣٣٣٩)، وكتاب التفسير باب ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٣/ ١٩٣) (٤٤٧٨)، وكتاب الاعتصام، باب ذكره:
=

أمَّا شهادة أمَّة محمد -أمَّة الإجابة، أهل الإيمان بالقرآن- فإنهم يعتمدون فيها على ما جاء في كتاب الله ﷻ الفرقان الذي يقرءونه ويتلونه في كل وقت وحين، ومن جملة ذلك قول الله ﷻ : ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:١-٣]. إلى آخر السورة، لقد اعتمدوا على كلام ربهم، وشهدوا بحق، ويشهد النبي ﷺ على أمته بأنه بلغهم، وكفى بشهادته حقًّا وصدقًا.

وأخبر الله ﷻ أمَّة محمَّد بأن إرسال الرسل وإنزال الكتب على الأمم سنَّة قائمة جارية في العباد؛ لئلا يكون لهم حُجَّة على الله ﷻ حيث قال: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ [المزمل:١٥]. وهو موسى ؈، وقد دعا فرعون وقومه، دعاهم وذكَّرهم بالله، ودلل لهم بأن الله ﷻ هو خالقهم ورازقهم، فهو المستحق أن يُعبد، وأنه هو العلي الأعلى، فاستكبر فرعون وموَّه على قومه قائلًا ما قصَّه الله عنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨].

وهكذا في قول الله ﷻ : ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

فبيَّن الله ﷻ أنه أرسل إليه رسولاً، فعصى فرعون الرسول، فترتبت على المعصية العقوبة العاجلة والعقوبة الآجلة، وهكذا سنَّة الله مع كل الأمم: أن المعصية تترتب عليها عقوبات دنيوية وبرزخية وأخروية، بحسب الجرائم، وبحسب المعصية والمخالفات: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف:٤٩].

وقد تكون العقوبة عاجلة تتبعها الآجلة، وقد تكون العقوبة آجلة بحيث يمهل العاصي،

= ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ (٤/ ٣٧٢) (٧٣٤٩)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن (٥/ ١٩٠) (٢٩٦١)، وابن ماجه في كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٣/ ١٣٤٢) (٤٢٨٤) بنحوه.

تغدق عليه النعم، وتتوالى لديه الصِّحَّة والغنى والأمن والاستقرار، وهو مكبٌّ على معاصي الله. وذلك لحقارة الدنيا عند الله ﷻ ؛ بيد أن العاصي له يوم يرجع فيه إلى الله، لا يفلك الناس فيه أعدلهم، ولا يحبسهم إلاَّ ظلمهم وجورهم، فاللهم سلِّم سلِّم.

وقد قال الله ﷻ في هذا المعنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقال النبي ﷺ: «**إنَّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**»[1]. وهو تعبير يشعر بشدة العقوبة وقوة البطش، كما في قوله ﷻ : ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢].

لذا قال الله ﷻ : ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦]. أي: شديدًا في غاية الشدة، وهو تنبيه لأمة محمد ﷺ؛ ليبتعدوا عن فعل فرعون وقومه، ويُقبلوا على طاعة نبيهم محمد ﷺ؛ لأن الله أخبرهم بأن سنته القائمة على الحق أنه إذا أرسل رسولاً ألزم الناس بطاعته ومتابعته، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار..

❊ ❊ ❊

«والمسألة الثانية: أن الله لا يرضى أن يُشْرَك معه أحد في عبادته، لا مَلَكٌ مُقرَّب، ولا نبي مرسلٌ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾» [١٨].

الشرح

[١٨] «**والمسألة الثانية: أن الله لا يرضى أن يُشرَك معه أحد في عبادته، لا ملك مُقرَّب، ولا نبي مرسل، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]»: وحقًّا، إنَّ الله الذي انفرد بخلق العباد ورزقهم، وهو المتصرف فيهم والمدبر

---

(١) وتكملة الحديث: «قال : ثم قرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾» أخرجه البخاري (٣/ ٢٤٣)، ومسلم (٤/ ١٩٩٧).

لشئونهم لا يرضى أن يكون له شريك في عبادته.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأفعال، والأعمال الظاهرة والباطنة، فمن صرف العبادات لغير الله؛ فقد أشرك شركًا أكبر.

ومن أشرك مع الله ﷻ غيره من مخلوقاته؛ فقد أشرك شركًا أكبر.

إذن؛ فجميع العبادات والقربات من: استعانة، واستغاثة، وذبح، ونذر، ورغبة، ورهبة، وخشوع، وخشية، وإنابة، وتوكل، ورجاء، وخوف، كل ذلك من العبادات التي لا يجوز أن تصرف لغير الله، أو يكون مع الله فيها شريك؛ لأنَّ الله لا يرضى ذلك.

والشرك أكبر ذنب عُصي الله به، وهو الذنب الذي لا يُغفر، ولا يستحق أهله الشفاعة، وإنما هم من أهل النار خالدين مخلدين، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]. أي: لا تعبدوا أحدًا مع الله أبدًا من الملائكة المقربين، ولا من الرسل الكرام، ولا من الأنبياء العظام، ولا من الصالحين من الأنام، ولا الأشجار، ولا الأحجار، ولا غير ذلك، إذ كل عبادة لغير الله ﷻ فهي عبادة للطاغوت.

والطاغوت: اسم عام لكل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مُطاع.

ولا يستبعد المسلمون خطر الشرك، فالشرك خطير: كبيره وصغيره، قليله وكثيره، ومن هنا وجب أن يتفقد المسلمون -وبالأخصِّ طلبة العلم- أحوالهم، ويتفقدوا أعمالهم، وكافة تصرفاتهم، وما تقوم به قلوبهم، يتفقدون ذلك في كل لحظة من لحظات العمر؛ لئلا يشوب الأعمال شرك بالله عظيم، أو بدعة مضلة، ويتفقدون أحوال الناس أيضًا، ويبذلون لهم التعليم والتوجيه والنصيحة حتى لا يقعوا في شيء من ضروب الشرك فيهلكوا.

وقد أخبر النبي ﷺ بأنه يخاف على أمَّته من الشرك خوفًا عظيمًا؛ حيث قال: «إنَّ

ـخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما هو؟ قال: **الرياء**»[١]. فإنه ضرب من ـروب الشرك، فلابد من تحقيق التوحيد ظاهرًا وباطنًا، والبراءة من الشرك وأهله، ولنتفقد ـنفس؛ لئلا يدخل عليها ضرب من ضروب الشرك، أو صورة من صوره الخطيرة.

وقد سُئل النبي ﷺ كما في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ حيث قال له: «يا رسول ـه. أي الذنب أعظم؟ قال: **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»[٢]. وهو كما ترى دليل على عظم ـب الشرك وخطره على الناس.

ونقتصر على هاتين المسألتين، وإلى درس قادم -إن شاء الله تعالى-.

وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه ..

* * * * *

---

١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٨)، والطبراني في المعجم (٤/ ٢٥٣)، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٠٢)، وقال: رجاله رجال الصحيح.

٢) سبق تخريجه (ص٣٦).

الدرس الرابع

«المسألة الثالثة: وهي أنَّ مَنْ أطاع الرسول، ووَحَّد الله؛ لا يجوز له موالاة من حَادَّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب» [١٩].

والدليل قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه ..

مضى معنا شرح مسألتين من هذه المسائل الثلاث:

المسألة الأولى وهي: «أنَّ الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هَمَلًا، بل أرسل إلينا رسولاً، فمن أطاعه دخل الجنَّة، ومن عَصَاهُ دخل النَّار».

المسألة الثانية: «أنَّ الله لا يرضى أن يُشرك معه أَحَدٌ في عبادته، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل». وغيرهم من باب أولى، وعرفنا معنى الشرك، وأنواع الشرك، وخطره على الأمة، وأن منه الخفي الذي يحتاج معه العباد إلى تفقد أنفسهم وقلوبهم وأعمالهم، ومنه الواضح الجلي من أقوال العباد واعتقاداتهم وأفعالهم.

*** وموضوع درس هذه الليلة هو:**

[١٩] **«المسألة الثالثة: وهي أنَّ مَنْ أطاع الرسول، ووَحَّد الله؛ لا يجوز له موالاة من حَادَّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب».**

وبيان ذلك: أن أتباع محمد ﷺ يحبون في الله، ويُبغضون في الله، وهذه قاعدة يطبقها ويتفاعل معها أهل الحق دائمًا، وأهل السنَّة والجماعة من سلفنا الصَّالحين وأتباعهم إلى يوم الدين؛ إذ كل مَنْ أطاع الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله ﷻ من كتاب وسنَّة، ووَحَّدَ الله في ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته، وجميع أفعاله؛ فإنه لا يجوز له موالاة -أي: محبة- وموافقة ومناصرة من كان محادًّا لله، ونابذًا لشرعه الكريم وراء ظهره، ومحادًّا لما جاء به رسوله ﷺ ولو كان من أقرب الناس إليه.

ومن هنا يجب أن يعرف طالب العلم حقيقة الولاء والبراء، أي: من الذي يجب أن يحبَّ ويوالَى؟ وعلى أي شيء تكون المحبة والولاء، وما هي أسباب المعاداة والهجر والبغض؟ هذه أمور من أسس العقيدة.

وعليه: فإن كل من أطاع النبي ﷺ، ووَحَّدَ الله في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته؛ يجب أن يكون حبه في الله، وبغضه في الله، ومُوالاته في الله، ومُعاداته في الله، فمتى فعل ذلك؛ فقد حقق التمسك بعروة الإيمان، وقد نال ولاية الله -تبارك وتعالى- التي لا تُنال إلاَّ بذلك.

وقد علم أصحاب النبي ﷺ قاعدة الولاء والبراء، لمن يكون الولاء، وممن يكون البراء، وتفاعلوا مع هذه القاعدة، فبرز الابن لأبيه ليقتله؛ لأنه عدو الله، وبعضهم برز لابنه ليقتله؛ لأنه على غير منهج الإسلام، وهذا معروف من سبب النزول لهذه الآية الكريمة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢] الآية، حيث إنها نزلت في أبي عبيدة عامر بن الجراح الذي قتل أباه؛ لأنه كان كافرًا، وفي أبي بكر؛ لأنه برز لابنه وكان كافرًا[١]، ليحققوا مبدأ الولاء والبراء، فأنزل الله

---

(١) قال القرطبي: قال السدي: «نزلت في عبد الله بن عبد الله بن أُبي، جلس إلى النبيﷺ، فشرب النبي ﷺ ماء، فقال له: يا رسول الله، ما أبقيت من شرابك فضلة أسقيها أبي، لعل الله يطهر بها قلبه؟
=

فيهما وفي أمثالها هذا القرآن الذي يُتلى إلى ما شاء الله إلى أن يرفعه الله -تبارك وتعالى- من الصدور، ويرفعه من الأرض.

وموضوع الولاء والبراء يحتاج إلى شيء من التفصيل، فالولاء درجات بحسب من توالي، والبراء كذلك درجات، فمن كان على منهج السَّلف الصَّالح في العقيدة والعبادة والمعاملة والأدب والسلوك، وعلى أخوة الإسلام والإيمان والإحسان؛ فهذا له من الولاء أعلاه وأكمله، بعد ولاء الله ورسوله ﷺ، وفي هذا المعنى قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥-٥٦].

ويتجلى الولاء في الله ﷻ: في الحب فيه، والبغض فيه.

والولاء في حق رسول الله ﷺ: محبته، واتباع أمره، واجتناب نهيه، والتأسي به،

=

فأفضل له، فأتاه بها، فقال له عبد الله: ما هذا؟ فقال: هي فضلة من شراب النبي ﷺ جئتك بها تشربها، لعل الله يطهر قلبك بها. فقال له أبوه: فهلا جئتني ببول أمك فهو أطهر منها. فغضب وجاء إلى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، أما أذنت لي في قتل أبي؟ فقال النبي ﷺ: **بل ترفق به، وتحسن إليه**».

وقال ابن جرير: حديث أن أبا قحافة سب النبي ﷺ، فصَكَّه أبو بكر ابنه صَكَّة، فسقط منها على وجهه، ثم أتى النبي ﷺ، فذكر له ذلك، فقال: «**أوفعلته؟! لا تعد إليه**. فقال: والذي بعثك بالحق نبيًّا، لو كان السيف مني قريبًا لقتلته».

وقال ابن مسعود: «نزلت في أبي عبيدة بن الجراح، قتل أباه عبد الله بن الجراح يوم أحد -وقيل: يوم بدر. وكان الجراح يتصدى لأبي عبيدة، وأبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصد عليه أبو عبيدة فقتله، فأنزل الله حين قتل أباه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾».

واستدل مالك -رحمه الله- من هذه الآية على مُعَاداة القدرية، وترك مجالستهم.

قال: قلت: وفي معنى أهل القدر جميع أهل الظلم والعدوان. الجامع لأحكام القرآن (١٧/ ١٩٩) باختصار.

... أتباعه عمومًا محبة شرعيَّة إلى يوم القيامة، وهي من العبادات الفاضلة، ومن علامات ... الإيمان، ومن صفاتهم وخصائصهم التي يمتازون بها على غيرهم.

ومن كان دون ذلك من المسلمين؛ فله من الموالاة بحسب ما معه من الإسلام ... الإيمان والإحسان، ويُبغض بقدر ما فيه من الفسق والعصيان.

ومن كان من أهل البدع المضلة على اختلاف أنواع أهل البدع -وهم كثر-، فهؤلاء ... دموا في محيط الإسلام، ومن جملة المسلمين، ما أخرجتهم بدعهم عن الإسلام؛ فهؤلاء ... يبغضون بقدر معاصيهم وبدعهم، ويهجرون، وتهجر مجالسهم ومكالمتهم، ولا يؤخذ ... العلم عنهم، وذلك بحسب المصلحة التي تترتب على هجرهم والابتعاد عنهم[1].

فكم من إنسان سليم الفطرة قابل للخير يلتمس الخير، ويلتمس الصَّلاح لنفسه، ... يتسلط عليه أهل البدع على اختلاف أنواعهم: إمَّا الجهمية[2] المعطلة، وإمَّا المعتزلة[3]،

---

(١) قال الشيخ إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني: «ويجانبون أهل البدع والضَّلالات، ويُعَادون أصحاب الأهواء والجهالات، ويُبغضون أهل البدع الذين أحدثوا في الدين ما ليس منه، ولا يحبونهم، ولا يصحبونهم، ولا يسمعون كلامهم، ولا يجالسونهم، ولا يجادلونهم في الدِّين، ولا يُناظرونهم، ويَرَون صون آذانهم عن سماع أباطيلهم التي إذا مَرَّت في الآذان وقرت في القلوب، وضرَّت وجرَّت إليها الوساوس والخطرات الفاسدة».

وقال: «واتفقوا مع ذلك على القول بقهر أهل البدع، وإذلالهم، وإخزائهم، وإبعادهم، وإقصائهم، والتباعد منهم ومن مصاحبتهم ومعاشرتهم، والتقرب إلى الله ﷻ بمُجَانبتهم ومهاجرتهم». انظر: عقيدة السَّلف وأصحاب الحديث (ص١٠٥، ص١١٣) باختصار.

(٢) الجهمية: أصحاب الجهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بـ: «ترمذ»، وقتله سلم بن أحوز المازني بـ: «مرو» في آخر ملك بني أميَّة، ووافق المعتزلة في نفي الصفات الأزليَّة، وزاد عليهم بأشياء. الملل والنحل (١/ ٧٣).

(٣) المعتزلة: أصحاب واصل بن عطاء الغزال لما اعتزل مجلس الحسن البصري، يقرر أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، ويثبت المنزلة بين المنزلتين، فطرده، فاعتزله، وتبعته جماعة سُمُّوا المعتزلة. الملل والنحل (١/ ٣٨).

وإمَّا الأشاعرة[١] ومن والاهم.

وإمَّا أهل الحزبيات والتنظيمات السريَّة على اختلاف جماعاتهم التي قد تعددت، وتنوعت مشاربها، هؤلاء كلهم أهل بدع، إذا تسلطوا على طالب العلم، وأتوه من ناحية المحبَّة والأخوة، ونصرة الإسلام، وما شاكل ذلك؛ استمالوه حتى يتمكنوا منه، وبعد ذلك يعطوه من تعليماتهم المنحرفة شيئًا فشيئًا حتى يصبح فردًا من أفرادهم، وجنديًّا من جُنودهم على غير منهج مستقيم، وإنما على البدع والتضليل وإثارة الفتن، وهذا موجود في صفوف الحزبيين على اختلاف أنواعهم، والحركيين على اختلاف مسمياتهم.

ومن هنا وجب النصح لطلبة العلم أن يحذروا أهل البدع، وأن يجتنبوا مجالسهم، وإن ألانوا لهم الكلام، وبذلوا لهم من المعروف شيئًا كثيرًا، فإن منهج السَّلَف وعقيدة السَّلف التي تتجلى في فهم الإسلام والإيمان والإحسان فهمًا صحيحًا لا يجوز للإنسان أن يُتاجر بها، أو أن يجامل بها، فعقيدتك الصحيحة ومنهجك الحق هما رأس مالك، من أجلهما خلقت، وفي سبيلهما تجاهد بكلمة الحق وبالقلم، وتذب عن سنَّة النبي ﷺ البيضاء النقيَّة التي دنَّسَهَا أهل البدع على اختلاف بدعهم سواء من أهل النِّحَل القديمة أو من أهل البدع المعاصرة.

لذا نقول في حق المبتدع: يُحَبُّ بما عنده من إسلام، ويُبغض ويُهجر ويُقاطع مجلسه ومواصلته حتى يترك بدعته التي يدعو الناس إليها، وذلك بحسب المصلحة ودرء المفسدة.

وأن هذه الجماعات الموجودة على السَّاحَة تحمل بدعًا متعدِّدَة، يجب أن يقال الحق، ويبين ولا يكتم، لا يحملون بدعة واحدة، وإنما يحملون بدعًا متعددة، فالتنظيمات السريَّة في دولة مسلمة من البدع، والمجالس السرية دون عوام الناس[٢] بحجَّة المذاكرة وقراءة

---

(١) **الأشاعرة:** هم فرقة أسسها أبو الحسن الأشعري في أول أمره بعد اختلافه مع المعتزلة، غير أنه رجع إلى مذهب السَّلف، ومصدر التلقي عندهم العقل، ويبطلون بعض الصِّفات، ويؤولون بعضها. الأجوبة السديدة للشارح (٤/ ٥٣) بتصرف.

(٢) **عن الأوزاعي قال: قال عمر بن عبد العزيز:** «إذا رأيت قومًا يتناجون بأمر دون عامتهم؛ فَهُمْ على تأسيس ضلالة». أخرجه الدارمي في المقدمة، باب: في اجتناب الأهواء (١/ ١٠٣، ٣٠٧).

ـعـم هذه من البدع، وهكذا الانصراف عن العلوم الشرعية التي تربط شباب الأمة بخالقهم وبارئهم سبحانه وبسنَّة نبيهم -عليه الصَّلاة والسَّلام-، والعناية بها، والذب عنها، كل هذه من البدع التي وقعت فيها الجماعات الموجودة على الساحة كـ: الإخوانية[١]، و التبليغية[٢]، ومن جَرَى مجراهم، ومَنْ سلك في مسلكهم، ونهج منهجهم.

فالحذر الحذر من كل أصحاب بدعة خرجوا عن المنهج الحق إلى منهج وافد اخترعه

---

(١) **الإخوانية**: هي «جماعة الإخوان المسلمين» قام بتأسيسها حسن بن أحمد البنا، ولد عام (١٣٢٤هـ) في مصر، وتوفي عام (١٣٦٨هـ)، والذي تربى على الطريقة الصوفيَّة الحصافية، وأخذ بيعتها على يد بسيوني العبد، ثم على يد عبد الوهاب الحصافي نائب رئيس الطريقة، وواظب على حضرتها، وكان الهدف من حركته جذب جميع المسلمين في مصر على اختلاف مناهجهم بين السَّلفية والصوفيَّة، فعرفت نفسها بأنها «دعوة سلفية» و«طريقة سنية» و«حقيقة صوفية»، وأرادت أن تجمع في عضويتها بين طالب الدين والدنيا، فأضافت أنها «هيئة سياسية» و«جماعة رياضية» و«رابطة علمية ثقافية» و«شركة اقتصادية » و«فكرة اجتماعية». حقيقة الدعوة إلى الله تعالى (ص٨٦، وص٨٨) بتصرف.

(٢) جماعة قام بتأسيسها محمد بن إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي، ولد عام (١٣٠٢هـ)، وتوفي عام (١٣٦٣هـ) الديوبندي منهجًا، والحنفي مذهبًا، الأشعري الماتُريدي عقيدة، الصوفي طريقة.

* **ولهم أصول ستة -أو صفات ستة- وهي:**

١- تحقيق الكلمة الطيبة : «لا إله إلاَّ الله، محمد رسول الله».

٢- الصلاة ذات الخشوع والخضوع.

٣- العلم «بالفضائل لا المسائل» مع الذكر.

٤- إكرام المسلم.

٥- تصحيح النية.

٦- الدعوة إلى الله والخروج في سبيل الله «على منهج التبليغ».

ولكل من هذه الأصول أو الصفات «مقصد»، و«فضيلة»، و«طريقة حصول» محددة. حقيقة الدعوة إلى الله تعالى (ص٧٥ ، وص٨٠) بتصرف.

من يجهل الأمور، والأدلة على ذلك قائمة أنهم يجهلون الأمور، فالمؤسسون لها يجهلون منهج الرسل وأتباعهم في الدعوة إلى الله؛ فلذا كان الولاء والبراء قاعدة إيمانيَّة، فإنَّ بعض قادة المؤسسين لهذه الجماعة لم يطبقوا باب الولاء والبراء على الوجه المراد منهم شرعًا.

وأضرب **لكم مثالاً**: بعض زعماء هذه الجماعة[١] صرَّح في رسائله ومنشوراته بـ: «أن الرافضة[٢] إخوة للمسلمين، وما الخلاف بيننا وبينهم إلاَّ في فروع المسائل كالخلاف بين المذاهب». أي: بين الأئمَّة الأربعة[٣].

وهذا قياس فاسد، فالرافضة معروفون بسوء معتقدهم، وقبيح أفعالهم، وسوء تصرفاتهم، فبالإضافة إلى الشركيَّات ضموا إليها بُغض أصحاب النبي ﷺ إلاَّ بضعة نفر، وفي مقدمة من يبغضون -بل ويلعنون-: أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما اللذان هما خير من وطئت أقدامهم الأرض بعد رسول الله ﷺ بإجماع أمة الإسلام.

فعندما يقول مؤسس جماعة الإخوان حسن البنا بأن الرافضة إخوة للسنيين هذا خطأ فاحش، ومنكر من القول، وهو تعبير يدل على جهل قائله بمنهج أهل السنة والجماعة، وهو قد مات -رحمه لله-، وأفضى إلى ما قدم، ولكن الذين يدافعون عن هذا المنهج الذي أسس على مثل هذا الفهم السقيم، هؤلاء الذين يجب أن يبين أمرهم، وأن يُحذَّر منهم،

---

(١) يقصد الشيخ -حفظه الله- مؤسس جماعة «الإخوان المسلمون» حسن البنا.

(٢) الرفض بمعنى الترك، وهم الذين يرفضون إمامة الشيخين: أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، ويتبرءون منهما، ويسبون أصحاب النبي ﷺ وينتقصونهم. بذل المجهود في إثبات مشابهة الرافضة لليهود (١/ ٨٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما لفظ: «الرافضة» فهذا اللفظ أول ما ظهر في الإسلام لما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية في خلافة هشام بن عبد الملك، واتبعه الشيعة، فسئل عن أبي بكر وعمر، فتولاهما وترَحَّمَ عليهما، فرفضه قوم، فقال: رفضتموني، رفضتموني، فسموا الرافضة» الفتاوى (١٣/ ٣٥).

(٣) انظر: الأجوبة السديدة على الأسئلة الرشيدة للشارح (٥/ ٤٣، ٤٤).

- تجتنب مجالسهم؛ لئلا ينفثوا سمومهم في أبنائنا، وفي شبابنا، وفي إخواننا.

وهكذا يقول المؤسس لهذه الجماعة: «إنه ليس بيننا وبين اليهود عداء ديني، وإنما بيننا وبينهم خلاف في الاقتصاد»[1].

وهذا منكر من القول؛ لأن الله ﷻ أعلن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين بقوله -تبارك وتعالى-: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة:٨٢]. فجهل هذه الآية رغم وضوحها وجلائها وإحكامها يترتب عليه شيء خطير.

وهكذا يأتي المؤسس المذكور إلى باب الأسماء والصفات، فيقول: «هذه نصوص نفوض أمرها إلى الله»[2]. وخالف أهل السنَّة والجماعة في هذا، فأهل السنَّة والجماعة لا يفوِّضون المعاني، ولكن يُفوِّضون الكيفيات، أي: علم كيفية صفات الله ﷻ يفوضونها إلى الله، وأمَّا المعاني فهي واضحة وظاهرة؛ لأن الله ﷻ خاطبنا بما نعرف ونفهم، وأمرنا بتدبر هذا القرآن -من فاتحته إلى خاتمته- من أجل أن نفهم المعنى.

وهكذا فيما يتعلق بوجوب البيعة السائرة في هذا المنهج الذي لا يجوز أن تطبق، وبالأخص في دولة مسلمة لواليها بيعة في أعناق المسلمين!! نوابه وأمراؤه وقضاته، أي: لا يجوز أن يكون هناك بيعة، وإن سماها الإخوان المسلمون: بيعة على البر والتقوى. فإنَّ هذا تملص من الواقع.

أما المؤسس الأول لجماعة الإخوان فإنه قال في خطابه: «ألا إن أركان بيعتنا عشرة؛ فاحفظوها»[3]. وهكذا المنهج أُخذ عنهم.

---

(١) انظر: كتاب «الإخوان المسلمون أحداث صنعت التأريخ» (ص٤٠٩).

(٢) انظر: رسالة العقائد (ص٧٤، وص٧٦).

(٣) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (ص٧): «أيها الإخوان الصَّادقون أركان بيعتنا عشرة فاحفظوها: الفهم، والإخلاص، والعمل، والجهاد، والتضحية، والطاعة، والثبات، والتجرد، والأخوة، والثقة».
انظر رسالة التعاليم لحسن البنا (ص٣)، والمدخل لدعوة الإخوان لسعيد حوى (ص٣٠).

كذلك إذن ما حققوا الولاء والبراء الذي نتحدث عنه هنا الآن في هذا الدرس، وفيما يتعلق بمؤاخاتهم ومصافاتهم للصوفية[١] الضَّالة المضلة، فقد أثنى عليهم مؤسس جماعة الإخوان ثناءً عاطرًا على طريقة تسمى: «الطريقة الميرغنية»[٢] لما احتفل بصاحب الطريقة محمد عثمان الميرغني، وألقى خطابًا سجلته وثائق التاريخ ..

قال: «إنَّ دعوة الإخوان لا تنسى فضلهم، وما قامت إلاَّ على كواهلهم، وما استقامت إلاَّ بمساعيهم الميرغنية»[٣]. وسماهم أقطاب الإسلام، إلى غير ذلك من الأمور التي تدل على جهله بخطر الطرق الصوفية التي ليس لها مصدر من كتاب الله وسنَّة النبي ﷺ، وإنما مصدرها التلقي عن المكاشفات، وما يُدَّعَى من الكرامات كما يقولون، عن الكشف، والوجد، والمنامات، والرؤى، وما شاكل ذلك من المصادر التي جانبت كتاب الله وسنَّة النبي ﷺ.

ثمَّ إنَّ المؤسس أشاد بالصوفيَّة وبالطريقة التي تربى فيها «حسن البنا»، وهي

---

(١) سُمُّوا بذلك نسبة إلى لبس الصوف، ومصادر التلقي الرئيسة عند فرق الصوفية عمومًا ثلاثة مصادر، وهي: «الكشف، والذوق، والوجد»، وتحت كل قسم منها أقسام ودرجات، وهذا لا ينفي وجود مصادر أخرى غير هذه الثلاثة. [المصادر العَامَّة لتلقي الصوفية (ص٣١، وص١٨٣)].

(٢) نسبة إلى عثمان الميرغني، ثم وارث أبيه محمد عثمان الميرغني المتوفى عام (١٣٦٨هـ)، والذي كان يقول عن نفسه: «من رآني ومن رأى من رآني إلى خمسة لم تمسه النار، ولا حرج على ذلك، فإن الله يختص برحمته من يشاء». وسَمَّى نفسه: الختم، أو خاتم الأولياء، وجعل هذا الاسم عَلَمًا على طريقته الصوفية حيث سماها «الختمية»، أي: خاتمة الطرق جميعًا، وما يدَّعيه في تفضيل نفسه على سائر الأمة جميعًا بما فيهم أبو بكر وعمر. الأجوبة السديدة للشارح (٣-٤ / ٢٦٤).

(٣) والخطاب الذي ألقاه البنا في دار الإخوان في القاهرة في (٩/ ٦/ ١٩٤٨م) بمناسبة زيارة شيخ الطريقة في عصره المدعو: محمد بن عثمان الميرغني وارث أبيه. الأجوبة السديدة للشارح (٣-٤/ ٢٦٤). انظر: كتاب قافلة الإخوان (٢/ ٨).

ـريقة الحصافية(١)، وأثنى عليها في كتابه «مذكرات الدعوة والداعية»(٢).

إذن؛ على هذا لماذا نحمل هذا المنهج؟! وندرس كتب هذا المنهج؟! ونوالي من ـخرط في سلك أصحاب هذا المنهج؟! ونترك المنهج الصافي منهج سلفنا الصالحين الذين حذوا علمهم من كتاب ربهم وسنَّة نبيهم ﷺ، وترسموا خطا العلماء الربانيين كالأئمَّة ـلأربعة، ومن قبلهم ومن بعدهم على منهج الحق، ولم ينخدعوا بأقوال أهل البدع.

وكلما طلع صاحب بدعة في القرون الثلاثة الأولى المفضلة تصدى له علماء ربانيون، ـردُّوا عليه بدعته، وأشهروا أمره، وحذروا الناس منه، فقد بينوا بدعة القدرية(٣) نفاة القدر، ـوبينوا بدعة الجهمية، وبينوا بدعة المعتزلة، وهكذا كلما نبتت بدعة شيطانية بيَّنهَا أولو ـعلم الذين فهموا كتاب ربهم وسنَّة نبيهم ﷺ فهمًا صحيحًا ينير الطريق، وتنشرح له ـصدور، ويبصره من أراد الحق؛ ليعيش في ظله، ويموت عليه.

وهكذا لما جاءت البدع المتعددة كبدعة الصوفية تصدى لهم العلماء الربانيون، فردَّ عليهم ابن تيمية(٤) -رحمه الله-، وهو الإمام الفذ والمجدد الناصح، ورَدَّ عليهم تلميذه ـبن القيم(٥)، وغيرهما من علماء الشريعة رَدُّوا عليهم بدعة الصوفية، وأخبروا بأن دين الله

---

(١) نسبة إلى حسنين الحصافي، وهو شيخ الطريقة الأول، ووالد شيخها الحالي عبد الوهاب الحصافي، وهي إحدى الطرق الصوفية.

(٢) (ص٢٢، ٢٣).

(٣) القدرية: أتباع معبد الجهني، يقولون: إن العبد مجبور على أعماله الاختيارية، يفعلها دون اختياره، بل لا قدرة له على أعماله. وهم المعروفون بالجبرية، وقد يطلق عليهم اسم القدرية. مجموع رسائل الجامي في العقيدة والسنَّة (ص٢٩) بتصرف.

(٤) هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الدمشقي، كان من بحور العلم، ومن الأذكياء الكرماء الشجعان، ولد سنة (٦٦١هـ)، وتوفي سنة (٧٢٨هـ) -عليه رحمة الله-.

(٥) أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر المشهور بـ: «ابن قيم الجوزية»، اشتغل بعلوم الدين حتى بلغ =

كامل، وأن هؤلاء الصوفية أتوا بأمر محدث جديد، ليس له علاقة بكتاب الله وسنَّة النبي ﷺ، ولم يأت ذكر التصوف بحال من الأحوال، ولهم طرق متعددة لا يُستطاع حصرها في مقام أو مقامات، ولكن على العموم يحذر من جميع طرقها الغلاة وغير الغلاة، وأخفها اجتماعاتهم على أذكار ليس لها أساس في القرآن الكريم، ولا في كتب الحديث كـ: الصحاح، والسنن، والمسانيد، وكتب الأذكار، وإنما هي أذكار مبتدعة.

وفي هذه الأيام الماضية وجدت منشورًا ينشره رجل صوفي مصري اسمه «الحزب السيفي»، يذكر عن علي بن أبي طالب، وليس لعلي بن أبي طالب ﷺ كلمة واحدة منه، وهذا من باب الدجل على الناس، وجلبهم إلى المنهج الصوفي الضال المضل.

ولهم اجتماعات، ولهم مصطلحات في الذكر وتلاعب، ويختصرون الذكر، فيجلسون يرددون كلمة: «الله، الله»، هكذا بصوت حزين ونغمات متحدة، أو «لا إله» عن يمينه مائة مرة أو مائتين، ثم يلتفت عن يساره، ويقول «إلاَّ الله» ستمائة مرة، وهذا تلاعب[1] من

=

رتبة الإمامة في الدين، وتعرض لمحن عديدة كشيخه ابن تيمية -رحمهما الله-، ولد سنة (٦٩١هـ)، وتوفي سنة (٧٥١هـ).

(١) **قال الشيخ حمود بن عبد الله التويجري -رحمه الله-:** وقد ذكر بعض العلماء من التبليغيين نوعًا آخر من الذكر، وهو أنهم يكررون كلمة (لا إله) ستمائة مرة، ثم يكررون كلمة (إلا الله) أربعمائة مرة.

وذكر آخر عن عدد كثير من الرجال أنهم سمعوا جماعة من التبليغيين الهنود وهم في بيت في شارع المنصور بمكة يكررون كلمة (لا إله) نحوًا من ستمائة مرة، ثم بعد ذلك يكررون كلمة (إلا الله) نحوًا من مائتي مرة، ويقولون ذلك بصوت جماعي مرتفع، يسمعه من كان في الشارع، وذلك بحضرة شيخ من كبار مشايخهم الهنود، وقد استمر فعلهم هذا مدة طويلة، وكانوا يفعلون ذلك في الشهر مرتين: مرة في نصفه، ومرة في آخره.

ولا شك أنَّ هذا من الاستهزاء بالله وبذكره، ولا يخفى على من له علم وفهم أن فعلهم هذا يتضمن الكفر ستمائة مرة؛ لأن فصل النفي عن الإثبات في قوله (لا إله إلاَّ الله) بزمن متراخ بين أول الكلمة

=

ـيطان بهم واضح، وبعض منظري وكتاب منهج الإخوان المسلمين سلك هذا المسلك ـ ديء، كما سلك المؤسس الأول لمنهج الإخوان المسلمين.

وأنا بينت فساد هذا العمل في كتابي «الأجوبة السديدة»[1] مقرونًا بأدلته ومن كتب ـخرم، كل ذلك ليعرف شباب الإسلام وطلاب العلم بأنه لا يجوز لهم أن يوالوا أهل ـع، ولا أن يأخذوا مناهجهم وبين أيديهم وبين ظهرانيهم كتاب الله الكريم، وسنَّة ـبي ﷺ، ومنهج السلف الصَّافي من الكدر، فما هي إلاَّ جماعة واحدة، هي التي قال فيها ـبي ﷺ عندما سُئل عن الطائفة الناجية المنصورة قال: «**هي الجماعة**»[2]. ولم يقل الجماعات.

وما أكثر الجماعات في هذا الزمان، ومن أشهرها: جماعة الإخوان، وجماعة التبليغ، ـجماعة حزب التحرير، وجماعة حزب الإصلاح، وجماعة شباب محمد، وجماعة التكفير ـ هجرة، وعدد من هذه الجماعات[3] التي انحرفت عن الخط المستقيم الذي عليه سلفنا ـصَّالحون بقدر مخالفتها.

=

وآخرها على وجه الاختيار يقتضي نفي الألوهية عن الله تعالى ستمائة مرة، وذلك صريح الكفر، ولو أن ذلك وقع من أحد مرة واحدة؛ لكان كافرًا صريحًا، فكيف بمن يفعل ذلك ستمائة مرة في مجلس واحد؟!! ثم إن إتيانهم بكلمة الإثبات بعد فصلها عن كلمة النفي بزمن متراخٍ لا يفيدهم شيئًا، وإنما هو التلاعب بذكر الله والاستهزاء به. القول البليغ في التحذير من جماعة التبليغ (ص٩).

١) ٣و٤ من (ص٢٥٢ إلى ص٢٦٨).

٢) هذا جزء من حديث عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**افترقت** ... إلى: **الجماعة**». أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٢٢)، وصَحَّحَه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٣٦٤).

٣) مثل حزب التوحيد الإسلامي، والجماعة القرآنية، وجماعة الجهاد، وجماعة الجبهة الإسلامية، وجماعة جبهة الإنقاذ، وكل حزب من هذه الأحزاب له فكر وخطوط ومنهج ابتكرها ونظمها مؤسسه ودعاته، وكل جماعة من تلك الجماعات لها كذلك أفكار متعددة، ومناهج مختلفة، وأساليب خاصة، وتلتقي جميعها على مناوأة المنهج السلفي من حيث يشعرون أو لا يشعرون. انظر: كتاب «الإرهاب وآثاره على الأفراد والأمم» للشارح (ص٥٦) بتصرف.

فالحذر الحذر لتنجو من شرها، ولا يمكن أن تسلم إلاَّ إذا بذلت جهدك في العناية بكتاب الله ﷻ تلاوة وتدبرًا للمعنى مع قراءة كتب التفسير المعتبرة كـ: تفسير ابن كثير[1] وتفسير ابن جرير[2] وتفسير السعدي[3]، وتفسير البغوي[4]، وهذه فيها كفاية وفيها غُنية، والعناية بسنَّة النبي ﷺ بالاطلاع على كتبها، تبدأ بالكتب المختصرة، ثم تتوسع حتى تقرأ الصحاح والسنن

---

(١) هو الإمام المقرئ المحدث المفسر المؤرخ الفقيه عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن كثير، قرشي النسب، دمشقي الدار، علم من أعلام المسلمين في القرن الثامن الهجري، ولد سنة (٧٠٠هـ) أو بعدها بيسير، ونشأ في دمشق، لازم الحافظ المزي محدث الشام في عصره، وسمع عليه أكثر تصانيفه، وصاهره على ابنته، وصحب شيخ الإسلام ابن تيمية وأخذ عنه، وامتحن بسببه، توفي في دمشق سنة (٧٧٤هـ)، له كثير من المؤلفات، من أشهرها: «كتاب تفسير القرآن العظيم، البداية والنهاية (١/ س) من المقدمة.

(٢) الإمام العالم المجتهد، عالم العصر، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمُل طبرستان، ولد سنة (٢٢٤هـ)، وطلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً، وكثرة تصانيف قلَّ أن ترى العيون مثله، كان ثقة، صادقًا، حَافظًا، رأسًا في التفسير، إمامًا في الفقه والإجماع والاختلاط، علامة في التاريخ وأيام الناس، عارفًا بالقراءات وباللغة وغير ذلك، توفي سنة (٣١٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٤/ ١٦٧)، والبداية والنهاية (١١/ ١٤٥)، وميزان الاعتدال (٣/ ٤٩٨).

(٣) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي: مفسر من علماء الحنابلة من أصل نجد، مولده سنة (١٣٠٧هـ)، ووفاته سنة (١٣٧٦هـ)، في عنيزة (القصيم)، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها سنة (١٣٥٨هـ)، له نحو (٣٠) كتابًا . انظر: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٤٠).

(٤) الشيخ الإمام، العلامة القدوة الحافظ، شيخ الإسلام محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المفسر صاحب التصانيف، ولد سنة (٤٣٦هـ)، وكان سيدًا إمامًا، عالمًا علامةً، زاهدًا قانعًا باليسير، بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول التام، وكان لا يُلقي الدروس إلاَّ على طهارة، وكان مقتصدًا في لباسه له ثوب خام، وعمامة صغيرة على منهاج السلف حالاً وعقدًا، وله القدم الراسخ في التفسير، والباع المديد في الفقه، توفي سنة (٥١٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٣٩)، والبداية والنهاية (١٢/ ١٩٣)، والأعلام للزركلي (٢/ ٢٥٩).

. سانيد، وهذا لا يتم لك إلا إذا تركت تلك المناهج التي عدل أصحابها في جل تصـرفاتهم عن منهج الحق الذي يجب أن نسلكه جميعًا، وأن نعتصم به لقول الله -تبارك تعالى-: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وإذ كان الأمر كما علمت؛ فإنَّ أهل السنَّة والجماعة وعلماء السلف وأتباعهم هم ـذين يطبقون هذه الآية الكريمة التى ختمت بها سورة المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ـيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢]. فيما يتعلق بحكم الولاء والبراء.

والمحَادَّاة درجات متنوعة: فمنهم من يحاد الله ورسوله؛ فيخرج من الإسلام، ومنهم ـن يحاد الله ورسوله بالبدع؛ إذ إنها تعتبر في المرتبة الثانية بعد الشرك، وهي أكبر من كبائر لذنوب؛ لأن صاحب الكبيرة كشارب الخمر والزاني والسارق ونحوهم يلم بها تارة، ويتوب إلى الله ﷻ إذا ذكر، ثم هو يعرف أنه ارتكب معصية، لكن صاحب البدعة إذا تمكنت من قلبه؛ تجده يجاهد في سبيل نشرها، ويذب عنها تدينًا، وينشرها جَادًّا ومجتهدًا، إذا ذبَّ أهل السنَّة عن سنتهم، وبينوا بطلان البدعة، فإنه يذب ويغضب من أجل ذلك، ويفعل الأفاعيل التي قد يعجز عنها غيره.

وختامًا:

فإنَّ حزب الله -الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه- هم الذين أخذوا بكتاب الله ﷻ بالفهم الصحيح والعناية التامَّة، وبسنَّة النبي الكريم ﷺ بالفهم الصحيح والعناية التامَّة، ولا يمكن ولا يتأتى لأحدٍ الفهم الصَّحيح والعناية إلاَّ إذا أخذ العلم عن أهله من علماء الشريعة أهل العناية بالقرآن وبتفسيره، وبعقيدة السَّلف الصَّالحين، وبسنَّة سيِّد المرسلين -عليه الصلاة والسلام-.

نعم، إذا سلك طلاب العلم هذا المسلك الذي ذكرت، وأخذوا عن أشياخهم العلماء ولو رحلوا، وبعدت الرحلة؛ فيعتبر كل جهد في هذا السبيل قليل وهيِّن، فالرحلة في طلب

العلم من دأب الصَّالحين، ومن خُلق العلماء السابقين ابتدأها أصحاب محمد ﷺ، إذ رحل بعض أفاضلهم من المدينة النبويَّة إلى أرض الشام وعلى بعير، يقطع المسافات، ويواصل الليل والنهار من أجل أن يسمع حَديثًا واحدًا سمع بأن أخاه في الشام يحفظ ذلك الحديث، هذه الرحلة قطع فيها الصحابي جابر بن عبد الله ﷺ شهرًا كاملاً تقريبًا ذهابًا ومثله إيابًا من أجل أن يعلم حديثًا واحدًا، وما أشرفه، وما أجله؛ لأنه من سنَّة النبي ﷺ.

والرحلة فيها جهاد في سبيل الله، وإحرازها وفهمها ونشرها من الجهاد في سبيل الله، بل هو أعظم من الجهاد في المعارك؛ لأن العالم بنشره للعلم يتسبب في حياة القلوب، وفي توجيه الجاهلين، وفي إنقاذ الحيارى، إلى غير ذلك من المصالح التي يحرزها طلاب العلم الصَّادقين في الطلب على المنهج الصَّحيح، ومن الطريق الصَّحيح، وعن أهل العلم الموثوق بعقيدتهم ومنهجهم وغزارة علمهم، هذا هو الطريق، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «**مَنْ سَلك طريقًا يَلتمس فيه علمًا؛ سَهَّلَ الله له به طريقًا إلى الجنة**»[1]. فما أغلى السير في طلب العلم والرحلة فيه، سَواءً كانت الرحلة قريبة، أو كانت الرحلة بعيدة.

وأنا أعتبر مجيئكم[2] من أماكنكم ومن بلدانكم ومن بين أهليكم، وترككم ما يتمتع به الناس من متطلبات الجسد توفيقًا من الله لكم، فاشكروه، وداوموا على مواصلة السير في الطلب والرحلة فيه حسب الإمكان، ولا تكونوا كالذين آثروا العاجلة على الآجلة، ورضوا بالجهل محل العلم، وباءوا بالخسران.

وإنني لأغبطكم على ذلك، وأسأل الله -تبارك وتعالى- أن يجعلكم هُداة مُهتدين،

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٢) نحوه.

(٢) كان هذا الكلام مُوجهًا إلى طلاب دورة الإمام المجدد عبد الله بن محمد القرعاوي -رحمه الله- العلمية الأولى لعام (١٤١٥هـ) حينما حَضرُوا من أماكن بعيدة وأماكن جبليَّة ونائية، وذلك في مدينة صامطة من منطقة جازان.

.عـلين عاملين بما جاء في كتاب ربنا، وبما جاء في سنَّة نبينا ﷺ، وبما حمله من العلم سلافنا الصالحون العلماء الربانيون، الذين لا تخلو الأرض منهم بحول الله وقوته وإن قلوا، وكثر غيرهم.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الدرس الخامس

«اعلم[٢٠].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد ..

قول المؤلف -رحمه الله-:

[٢٠] «**اعلم**»: هو فعل أمر يدل على تنبيه المخاطب؛ ليستعد لفهم ما يلي، وهذا الأمر من التوجيهات السديدة والقواعد الطيبة في باب عقيدة التوحيد، ورفض ما يضادها.

* * *

«**أرشدك الله**» [٢١].

الشرح

[٢١] «**أرشدك الله**»: وقد أتبع هذا الأمر بالدعوة المباركة، وهي طلب الرشد من الله -تبارك وتعالى- لعباده، أي: الرشد لطاعة الله ﷻ، وهذا من أدب التأليف أن يأتي المؤلف بأداة التنبيه؛ ليستعد السَّامع والقارئ لما يليها، وأتبع ذلك بالدعاء لكل سامع ولكل قارئ؛ نصحًا ومحبة ورغبة في أن يَمنَّ الله -تبارك وتعالى- على خلقه بالرشد والهداية.

* * *

«لطاعته» [٢٢].

الشرح

[٢٢] «**لطاعته**»: والطاعة هي موافقة المأمور، أي: موافقة ما أمر الله به في كتابه، وما أمر به رسوله ﷺ في سنته، وذلك يتجلَّى بامتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وإحلال الحلال، وتحريم الحرام، مع صحة الاعتقاد لحل الحلال، وتحريم الحرام، والتقرب بذلك إلى الله.

* * *

«أن الحنيفية ملة إبراهيم» [٢٣].

الشرح

[٢٣] «**أن الحنيفية ملة إبراهيم**»: وهنا دخل المصنف في الموضوع وفي بيت القصيد؛ ليبين للمسلمين والمسلمات أن الملة الحنيفية هي ملة إبراهيم عليه السلام.

والمراد بالحنيفية: هي المائلة عن الشرك، المقبلة إلى التوحيد، وعلى العموم: فإن الحنيف هو المائل عن الشر، المقبل على الخير، وهو المائل عن المعصية، والمقبل على الطاعة، وهذه هي سبيل السعادة وطريق النجاة.

ثم بين ملة إبراهيم أن أساسها وأصلها هو:

* * *

«أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين» [٢٤].

الشرح

[٢٤] «**أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين**»: هذه هي ملة إبراهيم أبي الأنبياء،

وخليل الرحمن الذي بعثه الله -تبارك وتعالى- في أمّة غارقة في حمأة الشرك والوثنية؛ ليدعوهم ولينتشلهم من ظلمات الشرك والضَّلال إلى نور الكتاب والسنَّة، فبين أن أصلها وأساسها أن تتوجه أيها المسلم إلى الله ﷻ بكل عبادة مالية أو بدنية أو هما معًا، مستصحبًا الإخلاص؛ إذ إنَّ الإخلاص شرط من شروط قبول العمل، ولا يُقبل عمل بدون إخلاص؛ لأن الله ﷻ لا يقبل من الأعمال إلاَّ ما كان خالصًا، وكان صَوَابًا[(١)].

«**مخلصًا له الدين**»: لا لغيره، ولا تدين لغيره بشيء من العبادات، لا من الأقوال، ولا من الأفعال، ولا من الأعمال الظاهرة أو الباطنة ؛ بل كلها لله ﷻ خالصة، ترجو بها رضا الله والجنَّة، وترجو بها النجاة من أليم عذابه ومن مقته وسخطه.

وكم من نصوص قد جاءت في القرآن الكريم تدعو الناس إلى الإخلاص في أعمالهم، وكم من أحاديث ثبتت عن النبي ﷺ كذلك، فمن الآيات قول الله ﷻ : ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:١١]. والأمر للنبي ﷺ أمر لجميع أمته إلاَّ ما دل عليه دليل أنه خاص به، فهذا يُعرف في مواضعه.

وقال ﷻ : ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر:١٤-١٥]. وهذا الأمر: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أمر توبيخ لهم وتهديد لهم؛ لأنهم سيلقون جزاءهم إذا قدموا على الله ﷻ ، وقد عبدوا غيره، أو أشركوا معه في العبادة غيره.

فقد ثبت عن النبيﷺ بأنه سيقول لهم: «**اذهبوا فاطلبوا أجركم ممن كنتم تراءون**»[(٢)].

---

(١) **كما قال الفضيل بن عياض**: «أحسن عملًا: أخلصه وأصوبه».

وقال: «العمل لا يقبل حتى يكون خالصًا صَوَابًا، الخالص: إذا كان لله، والصواب: إذا كان على السنَّة». رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥)، وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٣)، وابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٨٣)، وانظر: البداية والنهاية (١٠/ ١٩٩)، وتفسير البغوي (٨/ ١٧٦)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٤٤).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩)، وصححه الألباني -رحمه الله- في السلسلة الصحيحة (٢/ ٦٣٤، ٩٥١).

لا يملك أحد يوم القيامة شيئًا من الأجر، لا من جلب المصالح، ولا من دفع المضار؛ بل يحكم الله ﷻ فيهم، ويجازيهم بحسب أعمالهم خيرها وشرها، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾. فأجاب نفسه سبحانه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:١٦-١٧].

وهكذا ثبت عن النبي ﷺ في الحديث القدسي قول الله ﷻ: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عَمَلاً أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه**».

وفي رواية: «**فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك**»[(١)].

وحديث عمر المشهور المعروف الذي يوجد في مقدمة كل كتاب حديثي غالبًا: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[(٢)]. وهو دليل على وجوب الإخلاص، وعلى تصحيح النيَّة والصِّدق مع الله -تبارك وتعالى- في العمل.

وقد تنازعت طوائف الكفر في إبراهيم ﵇، كلُّ طائفةٍ تدعي بأنَّ إبراهيم منهم، فكذبهم الله -تبارك وتعالى-، وبيَّن ملة إبراهيم على وجه الحقيقة، وأنها ليست كما يدَّعُون؛ فهو بريءٌ منهم، قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:٦٧]. ادَّعَت اليهود، وادَّعَت النصارى، وادَّعى المشركون في إبراهيم، فأكذبهم الله ﷻ جميعًا؛ لأنهم كاذبون في الدعوى، وأثبت أن إبراهيم ﵇ مائل عن الشرك الذي ارتكست فيه جميع الطوائف المذكورة: اليهود، والنصارى، والمشركون، ومن والاهم، وأنه حنيف مسلم، أي: مستسلم لله وحده، لم يشرك معه أحدًا، ولم يخضع لأحد، ولم ينقد لأحد، وإنما انقاد لأمر الله رب العالمين.

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ﵁ (٤/ ٢٢٨٩)، وأخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٥)، وصَحَّحَه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٥).

إذن، فكل مسلم ومسلمة وكل مؤمن ومؤمنة هم أولى بإبراهيم من تلك الطوائف؛ لقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران:٦٨]. لا كما تدعي اليهود، ولا كما تدعي النصارى، ولا كما يدعي المشركون: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ اتبعوا ملته عقيدة وعبادة: ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولعظم دعوة إبراهيم وجلالة قدرها؛ فقد أُمر نبينا ﷺ باتباعه وحيًا من الله، حيث قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

وهكذا أمر الله ﷻ أمة محمد ﷺ بالتأسي به: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] الآية.

وقد جاء النبي الكريم -عليه الصَّلاة والسلام- مجددًا لهذه الملة، ومتبعًا لها، وإن اختلفت بقية الشرائع.

* * *

«وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها» [٢٥].

الشرح

[٢٥] أي: ليحققوا ويتبعوا ملة إبراهيم التي وصفت بأزكى الأوصاف، والدليل على ذلك قول الله ﷻ:


* * *

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٢٦].

الشرح

[٢٦] ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. والآية تبين الحكمة، تبين الغاية والهدف الأسمى من خلق الثقلين: عالم الجن، وعالم الإنس، ألا وهي عبادة الله وحده دون سواه، بكل ما تحمل كلمة العبادة من معنى.

ولما كانت العبادات أنواعًا متعددة، وأعظمها وأجلها وأعلاها: توحيد الله -تبارك وتعالى- قال المؤلف:

* * *

«ومعنى يعبدون: يوحدون، وأعظم ما أمر الله به: التوحيد» [٢٧].

الشرح

[٢٧] «**وأعظم ما أمر الله به: التوحيد**»: ذلك لأن التوحيد أساس الدين، وأصل الملة، وهو مفتاح الجنة، وهو أعظم سبب في نجاة أهله من الخلود في النار إن دخلوها بحسب معاصيهم، وهو الذي يعصم به المال، ويعصم به الدم، ويعصم به العرض، وهو الرابطة الكبرى بين جميع المسلمين على اختلاف أجناسهم، وتباين لغاتهم، وتباعد أقاليمهم، فهو رباط عظيم آخى بينهم، وجعلهم كالجسد الواحد، كما قال النبي ﷺ: «**المسلم أخو المسلم**»[١]. الحديث، وفسر التوحيد بتعريف واضح.

* * *

١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٧٨)، ومسلم (٤/ ١٩٩٦).

«**وهو إفراد الله بالعبادة**» [٢٨].

الشرح

[٢٨] «**إفراد الله بالعبادة**»: أن تفرد الله ﷻ بكل عبادة يتوجه بها إليه، أي: بكل عبادة شرعية يتوجه بها العباد إلى الله ﷻ، فمن أفرد الله بالعبادة؛ فهو الموحد، ومن صرف العبادة لغيره؛ فهو المشرك، ومن أشرك معه غيره في العبادة؛ فهو المشرك أيضًا، فإنَّ الله هو المستحق للعبادة وحده بدون شريك له فيها، والتكاليف كما تعرفون أوامر ونواهٍ، وسبق معنا بأن أعظم الأوامر: توحيد الله ﷻ، وهكذا أعظم النواهي وأكبر المآثم: الإشراك بالله -تبارك وتعالى-.

لذا قال المصنف -رحمه الله-:

❊ ❊ ❊

«**وأعظم ما نهى عنه: الشرك**» [٢٩].

الشرح

[٢٩] «**وأعظم ما نهى عنه: الشرك**»: وهو دعوة غيره سبحانه، أو دعوة غيره معه، والشرك أعظم ذنب عُصي الله به، كما هو صريح القرآن.

وقد جاء النهي عنه في القرآن بأساليب متعددة، بأسلوب النهي الصريح، كما في قول الله ﷻ: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦].

وهكذا في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ﴾ [الروم:٣١-٣٢].

وهكذا في قول الله ﷻ إخبارًا عن لقمان وهو يوصي ابنه بالأوامر والفضائل، وينهاه عن المآثم والرذائل: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣].

وجاء بأسلوب الوعيد الشديد لمن أشرك بالله، ومات على الشرك، فقال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:١١٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة:٧٢].

* وابتدأ النبي ﷺ في دعوته بالتأكيد على أمرين:

- **الأمر الأول:** تجريد التوحيد لله رب العالمين.

- **الأمر الثاني:** النهي الشديد عن الإشراك بالله -تبارك وتعالى-.

وفي قول المصنف:

«وهو دعوة غيره معه» [٣٠].

الشرح

[٣٠] **«وهو دعوة غيره معه»**: يضاف إليها، وهو دعوة غير الله، أو دعوة غيره معه؛ لأن المشرك إمَّا أن يتوجه بجميع العبادات لغير الله كالأصنام والأوثان ونحوها من المعبودات الباطلة، وإمَّا أن يجعلها لله ولغير الله، كأن يدعو الله تارة، ويستغيث به، ويدعو المخلوق تارة أخرى، ويستغيث به، ودعوة المخلوق والاستغاثة به شرك أكبر يخرج من ملة الإسلام، لا تمحوه إلاَّ التوبة والعَمَل الصالح، ومن الأدلة التي جاءت تأمر بالتوحيد وتحذر من الشرك:

* * *

«والدليل قوله تعالى: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾» [٣١].

الشرح

[٣١] **«قوله تعالى:** ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]»: أمر بالعبادة، ونهى عن الشرك؛ إذ لا يتم التوحيد إلاَّ بالبراءة من الشرك، وهي قاعدة أوضحها

القرآن في مواضع متعددة منها هذا الموضع، حيث أمر بتوحيده، ولم يقتصر على الأمر بالتوحيد، بل أردفه بالنهي عن الشرك، فقد يكون العبد في بعض العبادات مُوحدًا، وقد يكون في بعضها مشركًا، وقد يكون العبد في بعض الأحيان موحدًا، وفي بعض الأوقات مشركًا، فأمر الله ﷻ بتحقيق التوحيد مطلقًا وبصفة دائمة، وبالنهي عن الإشراك بالله ﷻ دائمًا، وبصفة مستمرة مدى حياة العمل.

ولهذا عاب الله ﷻ على المشركين الذين كانوا إذا نزلت بهم الخطوب، وحلَّ بهم الضيق؛ أخلصوا في الدعاء لله ﷻ، وإذا كانوا في أمن واستقرار ورخاء؛ توجهوا بالعبادات إلى معبوداتهم الباطلة، ذمَّهُم الله -تبارك وتعالى-، وسَجَّلَ هذا الذَّم في القرآن، حيث قال ﷻ عنهم: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

إذن؛ من الخطر على الأمة الإسلاميَّة أن يغفلوا عن ربِّهم في حال النعمة واليسر والرخاء والأمن والصحة .. إلى غير ذلك من أصناف النعم، حتى إذا نزلت بهم الشدائد؛ أقبلت قلوبهم وألسنتهم بالدعاء والاستغاثة، وطلب كشف الضر، فإذا كشف الله عنهم الضر؛ عادوا لما كانوا عليه من الغفلة والتثاقل عن أداء الفرائض والواجبات، والاقتحام في المعاصي والسيئات، وهو أمر مهم يجب التنبيه عليه؛ إذ ما من أحد إلاَّ ويُبتلى بهذه الغفلة، وإذا نزل به شيء من الشدائد والكروب؛ لجأ إلى الله -تبارك وتعالى- راغبًا وراهبًا.

ثمَّ بعد ذلك ابتدأ المصنف في الشرح والتفصيل للأصول والأسس التي يجب على كل إنسان من ذكر وأنثى أن يعرفها، وأن يطبقها علمًا وعَمَلاً، ودعوة وصبرًا، فذكر أنها ثلاثة: معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمدًا ﷺ.

❊ ❊ ❊

«فإذا قيل لك: ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل: معرفة العبد ربه» [٣٢].

الشرح

[٣٢] «معرفة العبد ربه»: فأمّا الرب ﷻ الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العُلا، فهو المربي لجميع مخلوقاته في عالم الأرض، وفي عالم السماء، وما بين ذلك؛ إذ الكل لا يستغني عن الله طرفة عين.

* وتربية الله لمخلوقاته على قسمين:

١- تربية عَامَّة.

٢- وتربية خَاصَّة.

- فأما **التربية العامة**: فهي تشمل جميع المخلوقات من بر وفاجر، ومؤمن وكافر، وناطق وصامت؛ إذ كل المخلوقات مفتقرة إلى الله ﷻ، وهو المربي لها بالإيجاد والرزق والأمن والاستقرار، وجميع النعم الدينيَّة والدنيويَّة، إلاَّ من أبى من نعمة الدِّين؛ فقد ظلم نفسه، وسيلقى في دار الجزاء جزاءه.

- وأما **التربية الخاصة**: فهي تربية خَاصَّة لعباد الله المؤمنين، وهي لا تكون إلاَّ لهم؛ لأنهم أتوا بسببها، وهو الاستجابة لله وللرسول جُملة وتفصيلاً، وهذه التربية الخاصَّة هي تربية النصر والتأييد، والتوفيق والهداية والرعاية إلى أقوم طريق، وهذا خاص بعباد الله المؤمنين؛ لأنهم أهل لذلك، أتوا بسبب هذه التربية الخاصة من الاستجابة لله، والاستجابة لرسول الله ﷺ؛ امتثالًا لقول الحق ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

فالمؤمنون استجابوا، وأصغوا، وأذعنوا لنداء الله وتوجيهه الكريم، فأطاعوا ربهم، وأطاعوا نبيهم محمدًا ﷺ، فأكرمهم الله بـ: التربية الخاصَّة، والهداية الخاصَّة.

إذن؛ فمعرفة الرب والإيمان به على الوجه اللائق بعظمته وجلاله أصل أصيل من أصول الدين، يجب على كل إنسان أن يحسنها، ويعبد الله على أساسها.

* * *

«ودينه» [٣٣].

الشرح

[٣٣] «ودينه»: وهذا هو الأصل الثاني: «معرفة العبد لدين الإسلام»، وما أحوج الأمة لمعرفة دين الإسلام، فهو دينها، وهو الصِّلة بينها وبين الله ﷻ، وهو الذي أمر الله -تبارك وتعالى- الأمَّة أن تعتنقه، وترضى به، وأن تسلم لأوامره، وأن تسلك طريقه التي تفضي بسالكها إلى رضا الله وجنات النعيم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

وهذا الحصر والقصر لتقتصر الأمة كلها بعد بعثة النبي ﷺ -عربها وعجمها، وقاصيها ودانيها- في عبادتها وصلتها بربها على دين الإسلام وحده دون سواه، وأكد الله هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

ومن ادعى أنه يعبد الله على الملة اليهودية أو النصرانية أو أي ملة من الملل بدعوى حرية الأديان(١) التي لم يفهموها فهمًا صحيحًا؛ فإنه كافر بدين الإسلام، وإنه من أهل

---

(١) كما جاء ذلك عن مصطفى السباعي في كتاب د. مصطفى السباعي «رجل فكرة وقائد دعوة» (ص٩٣-٩٨) حيث قال: «فليس الإسلام دينًا مُعَاديًا للنصرانية، بل هو معترف بها، مُقدِّس لها، وأمَّا توهم الانتقاص من المسيحيين وامتياز المسلمين فأين الامتياز؟! أفي حرية العقيدة؟!! والإسلام يحترم العقائد جميعًا، أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات؟!! والإسلام لا يفرق بين مسلم ومسيحي، ولا يعطي للمسلم في الدولة أكثر من المسيحي، والدستور ينص على مُسَاواة المواطنين جميعًا في الحقوق والواجبات.

=

ـ إن مات على ذلك بدليل النصوص الدالة على عموم رسالة محمد ﷺ، ومنها قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]. وكلمة الناس لا يخرج عنها أحد من بني آدم.

ومن هذه المشكاة جاء قول النبي ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يَسمَع بي أحَدٌ من هذه الأمَّة -يهودي أو نصراني-، ثم يَمُوت، ولم يُؤمن بالذي جئتُ به؛ إلاَّ كان من أصحاب النار**»[1]. فليس هناك دين، وليس ثمة طريق بعد بعثة النبي ﷺ توصل إلى الله، وإلى رضاه، وإلى دار كرامته إلاَّ من طريق رسول الله ﷺ.

* **وطريق رسول الله ﷺ محصور في مصدرين كريمين:**

- **المصدر الأول:** كتاب الله ﷻ الذي قال الله فيه: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٣].

- **المصدر الثاني:** سنَّة رسول الله ﷺ التي قال في حقها: «**عَلَيكُم بسنَّتي، وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسَّكُوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ**»[2].

=

* ثم اقترح أربع مواد:

١ - الإسلام دين الدولة الرسمي.

٢- الأديان السَّماوية محترمة ومُقدَّسة.

٣- الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ - لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين، أو الجنس، أو اللغة.

وعنه عثمان عبد السلام نوح في كتابه «الطريق إلى الجماعة الأم، علم وعمل السلف» (ص١٣٤)، والأجوبة السديدة للشارح (٥/ ٤٩).

(١) سبق تخريجه (ص٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٠٠)، والترمذي (٥/ ٤٣)، وقال: صحيح. وابن ماجه (١/ ١٥)، والدارمي (١/ ٥٧)، وصَحَّحَه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ١٣).

وقد هيأ الله ﷻ أنصارًا لهذا الدين في كل زمان وفي كل مكان يقلون ويكثرون. وإمامهم هو النبي الكريم -عليه الصَّلاة والسَّلام-، فهو أول من أسلم، وأول من دعا إلى الإسلام، وتسبب في هداية أنصار الإسلام، فكان طلبته المهاجرين والأنصار -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

وسحقًا وبعدًا لمن أبغضهم وعاداهم(١)، لقد جاهدوا بأنفسهم وأموالهم وألسنتهم؛ لتكون كلمة الإسلام هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى، ففتح الله على أيديهم مشارق الأرض ومغاربها حتى انتشر الإسلام، وارتفعت رايته، وكثر أتباعه من العَرَب والعجم بفضل الله ﷻ، ثمَّ بتلك الجهود المخلصة الطيبة التي نادت بالإسلام على علم وبصيرة، ودعت إلى أصوله وفروعه وفضائله ومحاسنه بالقول والفعل والعمل.

وتبعهم على ذلك أنصار الإسلام من مجاهدين فاتحين في القرون المفضلة، ومن علماء ربانيين اهتموا واعتنوا بتدوين تعاليم دين الإسلام من تفسير كلام ربِّ العالمين، وتدوين سنَّة سيِّد الأنبياء والمرسلين، والعمل على تنقية الصَّحيح من الضعيف، والمقبول من المردود منها، وهذا يعتبر من أعظم أنواع الجهاد؛ لأنهم بينوا للناس معاني كتاب الله ﷻ، وما أشرفه من عَمَل، وما أجلها من قربات؛ ولأنهم بيَّنوا للناس ما صَحَّ عن رسول الله ﷺ مما لم يصح؛ حتى لا ينسب إلى النبي ﷺ إلاَّ ما كان حقًّا وصدقًا بأنه قاله، أو فعله، أو أقره، أو أقر عليه، أليس هذا من الجهاد؟! بلى إنه من أشرف الجهاد.

ثم يأتي اليوم -وقبل اليوم- جماعات يلمزون من يَهتمُّون بشأن تفسير كلام الله ﷻ؛ ليبينوا للأمَّة كلام ربِّهم، وصحيح سنة نبيهم ﷺ من ضعيفها، نعم جَاءَ بعض

---

(١) قال الإمام الطحاوي -رحمه الله-: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط في حُبِّ أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلاَّ بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان». انظر: متن العقيدة الطحاوية (ص٤٦).

طرق المخالفة لمنهج السَّلف، فذموا هذا الصنف من العلماء الربانيين بدون مسوغ من عقل أو نقل إذ كيف يجوز أن يُذَم من يعكف على العناية بكتاب الله تفسيرًا وتعليمًا ودعوة ونشرًا؟! كيف يجوز أن يلام من يهتم ببيان صحيح سنة النبي ﷺ من ضعيفها ومقبولها من مردودها؟!

والجواب: لا يجوز بحال أن يُذَمّ ؛ بل يجب أن يُدعى له بالتوفيق والسَّداد؛ لأنَّ عمله من أعظم الجهاد في سبيل الله، وسبيل الله: هو غير السبل التي وقفت عليها شياطين الإنس والجن تنادي بالدخول فيها، بل هو تمييز الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والغي من الرشد.

والطريق التي يرضاها الله لعباده لا يستطع أن يبينها مَنْ لم يكن له عناية بكتاب الله وسنَّة نبي ﷺ، وفي مقدمة علوم الشريعة: عقيدة التوحيد التي مكث النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام- يدعو الأمة إلى تحقيقها ثلاث عشرة سنة، كما هو معلوم من تأريخ النبوة الغالي.

فحذار أن يسمع لهؤلاء الذين يقولون في حَقِّ العلماء الربانيين بأنهم قوم لا يعرفون إلاَّ مكتباتهم، ولا يعرفون إلاَّ العكوف على الكتب ذات الأوراق الصفراء!! وما شاكل ذلك من الألفاظ؛ وهذا إثم كبير وذنب عظيم يجزى أصحابه بالعقوبات الآجلة، وقد يجمع الله لهم بين العقوبات العاجلة والآجلة، عليهم أن يتوبوا إلى الله ﷻ ويستغفروه، ويعودوا إلى رحاب الحق معترفين لأهله بالفضل بعد فضل الله -جل وعلا-.

وهكذا تتابع أنصار الإسلام بالدعوة إليه، وشرح محاسنه وفضائله، وبيانه للناس في كل زمان وكل مكان، وفي عصرنا هذا نحمد الله -تبارك وتعالى- على أن في العالم الإسلامي رجالًا صالحين مخلصين يدعون إلى منهج السلف، غير سالكين مسالك الحركيين الحزبيين في دعوتهم ذات التظاهرات، والمسيرات، والاغتيالات، والتنظيمات السريَّة[1]؛ إذ إن هذه

(١) قال سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز -رحمه الله-:

«فالأسلوب الحسن من أعظم الوسائل لقبول الحق، والأسلوب السيئ العنيف من أخطر الوسائل
=

الأساليب لا تخدم الإسلام، ولا تدل على محاسنه وفضائله، وإنما جعلت أعداءه يتهمونه بالقسوة وكذبوا، بل إن شأنه كما قال الله فيه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].

فدعوته شريفة، ومقصدها عظيم، كما قال الله ﷻ: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم:١]. أي: إخراج وانتشال من ظلمات الجهل

=

في رَدِّ الحق، وعدم قبوله، وإثارة القلاقل والظلم والعدوان والمضاربات.

ويلحق بهذا الباب: ما قد يفعله بعض الناس من المظاهرات التي قد تسبب شرًّا عظيمًا على الدعاة، فالمسيرات في الشوارع والمظاهرات ليست هي الطريق للإصلاح والدعوة.

فالطريق الصحيح بـ: الزيارة، والمكاتبات بالتي هي أحسن، فتنصح الرئيس والأمير وشيخ القبيلة بهذا الطريق، لا بالعنف والمظاهرة، فالنبي ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة لم يستعمل المظاهرات ولا المسيرات، ولم يهدد الناس بتخريب أموالهم واغتيالهم.

ولا شك أنَّ هذا الأسلوب يضر الدعوة والدعاة، ويمنع انتشارها، ويحمل الرؤساء والكبار على مُعَاداتها ومضاداتها بكل ممكن، فهم يريدون الخير بهذا الأسلوب، لكن يحصل به ضده، فكون الداعي إلى الله يسلك مسلك الرسل وأتباعهم ولو طالت المدَّة أولى من عمل يضر الدعوة ويضايقها، أو يقضي عليها!! ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله». مجلة البحوث الإسلامية العدد (٣٨) (ص٢١٠).

وقال أيضًا :

«إن اندفاع الشباب لابد أن تسايره حكمة من الشيوخ، ونظرة من تجاربهم وأفكارهم، ولا يستغني أحد الطرفين عن الآخر، ولقد استمر الشباب المسلم في عطاء الخير المتجدد في الحروب الصليبية في الشام والأندلس وغيرها من المواقف التي يتصادم فيها الحق بالباطل حتى اليوم، فغاظت تلك الحماسة أعداء الإسلام، حيث سعوا إلى وضع العراقيل في طريقهم، أو تغيير اتجاههم، إمَّا بفصلهم عن دينهم، أو إيجاد هوة سحيقة بينهم وبين أولي العلم والرأي الصائب في أمتهم، أو بإلصاق الألقاب المنفرة منهم، أو وصفهم بصفات ونعوت غير صحيحة، وتشويه سمعة من أنار الله بصائرهم في مجتمعاتهم». مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (٢/ ٣٦٤-٣٦٥).

الضلال والشرك إلى نور الكتاب والسنَّة، إلى نور الإيمان الحق، ليس اغتيالاً، ولا تظاهرًا، ولا مسيرات، ولا تفجيرات، ولا غير ذلك مما نقرأ ونسمع مما هو موجود على الساحة في كثير من البلدان -ردهم الله إلى منهج الدعوة إلى الله ردًّا جميلاً-.

وليس من مقصد الإسلام ودعوة الإسلام: اغتيال الكفار، الاغتيال الذي لا يحقق المصالح، وإنما يترتب عليه شر ومفاسد، وإن شئتم دليلاً على ذلك، فدليل واحد يكفي وهو: أن النبي ﷺ لما دعا في مكة مُتحمِّلاً كل ما يناله من أذى حتى وضعوا الأذى فوق ظهره وهو ساجد، فآمن معه ما لا يقل عن سبعين رجلاً نذروا نفوسهم لله، فلو أمرهم النبي ﷺ أن يقتحموا المهالك لاقتحموها، ولكنه أمرهم أن يُهاجروا إلى أرض الحبشة والمدينة؛ ليأمنوا على دينهم وأنفسهم حتى يأتي الله بالفرج، وقد أتى به والحمد لله.

فلو كانت الاغتيالات من وسائل الدعوة ومن غايات الدعوة؛ لقال لهم: يا معشر السبعين، ليذهب كل واحد منكم فليقتل واحدًا من كفار قريش. وما كان صناديد كفار قريش في ذاك الوقت يبلغون ذاك العدد لهم والبقية أتباع، لكن قال لهم: هاجروا إلى الحبشة حتى يحكم الله، وسيجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا.

ودليل آخر: أن النبي ﷺ اهتَمَّ من أذى قومه، وحزن حزنًا شديدًا، فذهب إلى الطائف، قال: «**فلم أستفق إلاَّ وأنا بقرن الثعالب**[1]**، فرفعت بصري إلى السَّماء، فناداني جبريل، فسلم عليَّ، وقال: يا محمد، إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وقال لي: يا محمد، هذا ملك الجبال يُسَلم عليك. فناداه ملك الجبال وسلم عليه، وقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** -والأخشبان جبلان عظيمان بمكة-، فقال النبي ﷺ: **لا، إني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئًا**»[2].

(١) **قرن الثعالب**: هو ميقات أهل نجد على يوم وليلة من مكة، ويقال له: قرن المنازل أيضًا. النهاية (٤/ ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٤٢٨)، ومسلم (٤/ ١٤٢٠).

فلو قال له: أطبق عليهم الأخشبين. لأمسوا تحت الصخور، وقرت عيون الموحدين، ولكن لله حكمة، والنبي ﷺ صاحب حكمة في دعوته، لا يريد القتل والاستئصال، وإنما يريد أن ينتشلهم من جحيم الكفر إلى جنَّة الحق والإيمان.

وما حصل من معارك إنما هي بأمر الله ﷻ، أمره الله أن ينشر دينه، فمن اعترضه وصار حجر عثرة في طريقه، وصار عقبة من العقبات؛ ليحول بينه وبين انتشار دين الله، فقد أمر النبي ﷺ أن يقاتله بجنود الله، واشتركت ملائكة الرحمن مع أنصار الإسلام؛ لأنهم لا يُقدِّمُون ولا يؤخرون إلاَّ بوحي من الله -تبارك وتعالى-؛ امتثالاً لقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١].

ولا تزال طائفة على الحق منصورة، ينهجون منهج السَّلف الصالحين في الدعوة إلى الإسلام، وشرح محاسنه، وبيان فضائله، والإسلام معجزة من المعجزات إذا دُعي إليه، وشرحت محاسنه، وبُينت فضائله على الوجه الصحيح؛ أقبل الناس إلى الدخول فيه أفواجًا وأفواجًا.

أرأيتم لو أن إنسانًا يريد أن ينشئ شركة من الشركات، لا يفتحها بعمل صامت، وإنما ينشر لها الدعايات، وقد تكون دعايات غير صادقة وغير صحيحة في عمومها، فيقبل الناس على تلك الشركة يقرءون عنها في وسائل الإعلام، ويسمعون عنها، فيقبل الناس لأخذ طلباتهم وقضاء حاجاتهم، فيربح التاجر ربحًا وفيرًا.

هكذا الإسلام إذا وجد من أنصاره من يشرح محاسنه، ويبين يسره وسهولته وغاياته الحميدة، ومآل أصحابه؛ فإن الناس يرغبون في الخير بفطرتهم: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام:١٢٥].

❊ ❊ ❊

«ونبيه محمدًا ﷺ» [٣٤].

الشرح

[٣٤] «ونبيه محمدًا ﷺ»: وأما نبينا محمد ﷺ فسأقرأ عليكم قطعة سبق لي أن كتبتها[١] في التعريف بـ: «أولي العزم»، حتى وصلت إلى قولي:

«وأما من خُتمت به الرسالات -أي: محمدًا ﷺ-، وأكمل الله لنا به الدين، وأتمَّ علينا به النعمة، وأرسل إلى الثقلين عامَّة، ولم يسع أحَدًا الخروجُ على رسالته بعد بعثته -أعني: أشرف الخلق، وإمام الدعاة الصَّالحين المصلحين، ورسول رب العالمين سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله الصادق الأمين-، فضع عصا الترحال، وتحدث عن شخصيته ودعوته إلى الله بما تشاء من صدق، ونصح، وإخلاص، وحلم، وصبر، وحكمة، وجد، واجتهاد، ورحمة.

لقد بُعث النبي ﷺ والدنيا كلها ظلام، فطلع فجر نبوته، وشع نور رسالته، وأشرقت الأرض بنور ربها، وتحول ذلك الظلام إلى أنوار ساطعة، تنير الطريق لمن أراد الطريق، وتقيم الحجَّة على من تَنكَّبَ الجادَّة، وزاغ عن المحجَّة.

فقد بدأ ﷺ دعوته سرًّا حتى أنزل الله عليه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر:٩٤]. فأعلنها صريحة مدوية في بطحاء مكة قائلاً لأولئك المشركين: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فردوا عليه أقبح رد، وأنكروا عليه أيما إنكار، وأخذوا يتربصون به، ويترصدون له، ويخططون ليل نهار للتخلص منه، وإراحة الناس من دعوته، كما زعموا !! وساء ما زعموا.

وفي هذا يقول المولى الكريم: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ

---

(١) في كتابه الأجوبة السديدة على الأسئلة الرشيدة (١/ ٥٠).

يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠]. ورغم ذلك الكيد وتلك التجمعات والتهديد والوعيد؛ فقد ظل ﷺ ثابتًا كالجبل الأشمِّ، بل أشد رسوخًا وثباتًا، وليس أدل على ذلك من قولته التي حفظها لنا التاريخ: «**والله يَا عم، لو وضعوا الشَّمس في يميني، والقمر في يَسَاري على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه**»[1].

يا لله!! ما أروع هذا الموقف، وما أرفعه قدرًا، وأعظمه منهجًا لمن أراد أن يكون من أئمَّة الدعوة إلى الله طاعة لله -عز شأنه-، ومتابعة لرسول الله ﷺ، ولا غرابة أن يكون موقف النبي الكريم كذلك وأعظم من ذلك، فهو بحق أشجع خلق الله، وأتقاهم لله، وأغيرهم على محارم الله، فجزاه الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وعادلاً في رعيته.

لقد مكث النبي ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، والقرآن الكريم ينزل عليه وهو يبلغ ما أنزل إليه من ربِّه صابرًا على ما يناله من أذى من هنا وهناك، ولقد كان يعرض نفسه -عليه الصَّلاة والسَّلام- على الوفود في مواسم الحج يدعوهم إلى الإسلام، فيعرضون عن دعوته الخيرة، ويلحقون به صنوفًا من الأذى.

ومرة ذهب إلى الطائف يَدعُوهم إلى نصرته حتى يبلغ رسالة ربِّه، فأوعزوا إلى صبيانهم وسفهائهم، فوقفوا له على جنبتي الطريق يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه، وأعجزوه عن السير، فلم يقل إلاَّ خيرًا، وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه، وفتح أبوابه، فجاء بعد ذلك وفد المدينة، وكانوا سبعين رجلاً، قدموا عليه في الموسم، فواعدوه عند العقبة، وبايعوه على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر

---

(١) أورده ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٤٣، ٤٨)، والطبري في تاريخه (١/ ٥٤٥)، وابن هشام في السيرة (٣/ ١٠١)، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٣١٠، ٩٠٩)، وله طريق بلفظ: «**ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك**». بسند صحيح، انظر: الصحيحة (١/ ١٩٤) (٩٢).

بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى ألاَّ يخافوا في الله لومة لائم، وعلى النصرة الحقة ولهم الجنَّة، فقبلوا ذلك مغتبطين.

وأذن الله لنبيه ﷺ بالهجرة إلى طيبة الطيبة، فخرج مُهاجرًا إلى الله، فلما وصل المدينة النبويَّة بنى مسجده، وأسس مدرسته التي تخرج فيها المهاجرون والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة، والذين جاهدوا في سبيل إعلاء كلمة الله، فما ضعفوا وما استكانوا، وكانت المعارك متوالية والحرب سجالاً بين حزب الرحمن الذي يمثله محمدٌ ﷺ والذين معه، وبين حزب الشيطان الذي يمثله صناديد الكفر وجحافل الشر والفساد والطغيان، وسنَّة الله الجارية أن للباطل صولة، ثم يقمع ويضمحل حيث يأبى الله إلاَّ أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

وفي السنة الثامنة من الهجرة جاء الفتح الأعظم، والنصر المبين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وانتشرت دعوة الإسلام إلى الآفاق البعيدة: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾». اهـ.

وخلاصة الأمر:

* **أن أصول الدين -كما ذكر المؤلف وغيره من العلماء الأجلاء- ثلاثة:**

١- معرفة الرب، والإيمان به.

٢- معرفة دين الإسلام بأدلته.

٣- ومعرفة النبي الكريم ﷺ وبما جاء به.

وقد قال نبينا ﷺ مبشرًا أمته: «**مَنْ رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا رسولاً؛ وجبت له الجنَّة**»[١].

وصلى الله وسلم وبارك على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٠١).

الدرس السادس

«فإذا قيل لك: مَنْ ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني، وربى جميع العالمين بنعمه» [٣٥].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سبق معنا في الدرس الماضي الحديث على الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها على سبيل الإجمال؛ بل وبشيء من التفصيل المختصر.

وهنا سؤال وجهه المؤلف -رحمه الله-، وأجاب عليه، وهذه طريقة يسلكها بعض المؤلفين -رحمهم الله-، أعني: طريقة التأليف على طريقة السؤال والجواب من أجل الحفظ، ومن أجل البيان والإيضاح، لاسيما في مسائل العقيدة، فوجه السؤال التالي وأجاب عليه فقال:

[٣٥] **«فإذا قيل لك: مَنْ ربك؟ فقل: ربي الله الذي رباني، وربى جميع العالمين بنعمه»**: وقد مضى الكلام في الدرس الماضي على أن تربية الله ﷻ لخلقه على نوعين:

١- تربية عامَّة.

٢- تربية خاصَّة.

*** والفرق بينهما:**

أن التربية العامة تتناول وتشمل جميع المخلوقات في الأرض، وفي السماء، وما بينهما، فتشمل: البر والفاجر، والمؤمن والكافر، والمكلف وغير المكلف .. إلى غير ذلك من مخلوقات الله، ما عرفنا منها، وما لم نعرف.

ونعم الله ﷻ على العباد كثيرة، نعم الدين ونعم الدنيا، وأجلها: نعمة دين

لإسلام الذي امتنَّ الله -تبارك وتعالى- به على الأمة في آيات متعددة، منها: قول الله ﷻ : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وتتجلى نعمة الإسلام في تكاليفه في الأوامر وفي النواهي، وما فيها من السهولة واليسر، وما فيها من رفع الأغلال والآصار عن هذه الأمَّة، وقد كانت على أمم مضت، وبيَّن الله هذه السهولة بقوله ﷻ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]. أي: ما من حرج ينزل بالعبد في الأوامر إلاَّ وجعل الله ﷻ في هذا القرآن، وفي هذا الشرع المطهر فرجًا من تلك المشقة، وهذا ظاهر وجلي في التكاليف.

فمثلًا الصلاة التي هي أعظم العبادات بعد الشهادتين، والقيام فيها ركن من أركانها، والسجود على الأعضاء السبعة كذلك، لكن إذا جاءت المشقة، وحالت بينك وبين القيام؛ فإنك تصلي على أية حال، وصلاتك صحيحة كما في الحديث الثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «**صَلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فجالسًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[(١)]. فانتفى الحرج، وهكذا في الحلف في الأيمان جاءت الكفارات، وفي الظهار جاءت الكفارة، وفي القتل الخطأ جاءت الكفارة، وفي السفر الذي هو مظنَّة المشقة جاءت رخصة القصر ورخصة الفطر.

إذن؛ ما من حرج يمكن أن يلحق الإنسان في عبادته إلاَّ وجعل الله منه فرجًا ومخرجًا؛ لينتفي ذلك الحرج؛ وليتحقق قول الله ﷻ : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

إذن؛ فنعمة دين الإسلام تتجلى في التيسير والتسهيل في أوامره، وفي الراحة في اجتناب نواهيه ومحارمة؛ لأن النفس تزكو بذلك، إذا اجتنبت المحارم، وسلمت من الوقوع في المآثم؛ زكت النفوس، واستنارت القلوب، ونشطت الجوارح، وأضاءت الوجوه.

---

(١) أخرجه البخاري عن عمران بن حصين ﷺ (١/ ٣٤٨).

والعكس بالعكس: متى تلطخ الإنسان بالمآثم، واقترف السيئات على اختلاف أنواعها، وضاع مع أهل البدع؛ تغيرت الوجوه، ومرضت القلوب، ودنست النفوس.

لأن المعصية ظلمة في القلوب، وفي الصدور، وفي الوجوه، ووهن في الأبدان، والطاعة نور، وحياة، ونشاط ظاهرًا وباطنًا، فلا غرابة أن يكون دين الإسلام أعظم نعمة وأكبر منة أكرم الله بها أمة محمد ﷺ.

وأمَّا نعم الدنيا فلا تدخل تحت العدِّ، ولا تدخل تحت الحصر: نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة هذا التكوين للإنسان البشري الذي ذكَّره الله -تبارك وتعالى- به في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

وفي قوله -تبارك وتعالى-: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]. وهكذا التكريم وهو بصيانة أعراضهم، وحماية أموالهم، وصيانة دمائهم، كل ذلك رعاية من الله -تبارك وتعالى- أنعم بها على أمَّة الإسلام.

وهكذا تسهيل الأرزاق، والأمن والاستقرار، والمعيشة الاجتماعية والاقتصاديَّة، وغير ذلك من النعم التي قال الله ﷻ في شأنها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

والنعمة من الله وحده: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. وما كان من نعمة للبشر على البشر فهي نعمة داخلة في وسعه وفي مقدوره، ولكن الله ﷻ أعان عليها، وجعل البشر سببًا في حصولها، وأمَّا المنعم الحق لقضاء الحاجة، وتفريج الكربة، وتسهيل الأمر؛ فهو الله ﷻ، كما نصَّ عليه في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

❊ ❊ ❊

«وهو معبودي ليس لي معبود سواه» [٣٦].

الشرح

[٣٦] ثم قال المؤلف: «**وهو معبودي، ليس لي معبود سواه**»: أي: وهذا هو الحق، وهذه هي العقيدة الصحيحة، أن تعبد الله، ولا تعبد أحدًا سواه، والعبارة هذه مأخوذة من قولك: «لا إله إلاَّ الله».

«**فهو معبودي**»: فيه إثبات العبادة لله.

«**ليس لي معبود سواه**»: فيه نفي العبادة لغير الله.

كما أن «**لا إله**» تنفي جميع ما يُعبد من دون الله، و«**إلاَّ الله**» تثبت العبادة لله وحده دون سواه.

وحيث إن الأحكام تثبت بأدلتها، والأدلة الشرعية تكون فيها القناعة لأهل الإيمان والإسلام، الذين آمنوا بالأدلة الشرعية من كتاب الله ومن سنة النبي ﷺ.

* * *

«**والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. وكل ما سوى الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم**» [٣٧].

الشرح

[٣٧] استدل المؤلف على تربية الله ﷻ لخلقه، وعلى أنه هو المعبود بحق، وغيره لا يستحق من العبادة شيئًا، وقد استدل المؤلف -رحمه الله- على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

فـ «أل»: في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاستغراق، والمعنى: أن جميع المحامد المطلقة هي لله وحده؛ لأنه هو المنعم، وهو المتفضل على خلقه، فيستحق أن يحمد حمدًا مطلقًا.

ومعنى الحمد: الثناء على الله -تبارك وتعالى- بما هو له أهل، ثناء يليق بعظمة الله وجلاله.

وفي قوله ﷻ: ﴿لِلَّهِ﴾. دليل على توحيد الألوهية، المدلول عليه بلفظ الجلالة؛ لأنَّ لفظ الجلالة «الله» معناه: المألوه -أي: المعبود-، والرب صفة لله ﷻ.

و﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾. جمع عالم، لا مفرد له من لفظه، وهو كل ما سوى الله من مخلوقاته على اختلاف أنواع المخلوقات، وهو يجمع على «عوالم».

والعوالم أصناف متعددة: عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الشياطين، وعالم الملائكة، وعالم الطير، وعالم الوحش .. إلى غير ذلك من العوالم التي أنعم الله ﷻ عليها بالخلق والإيجاد، وفضَّلَ بعضها على بعض، وجعل كل عالم على ما اقتضته حكمته، وهداه لكل ما خلق له.

فعالم الملائكة -مثلاً-: عالم طاهر، جُبل على الطاعة، فلا سبيل لهم إلى المعصية أبدًا؛ لأن الله زكاهم بقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم:٦].

وعالم الشياطين: عالم جبلوا على فعل المعصية، فلا سبيل لهم إلى فعل الطاعة أبدًا؛ حكمة من الله وعدلاً، لا يُسأل عمَّا يفعل.

وعالم الإنس وعالم الجن: عالمان كلفهما الله -تبارك وتعالى- بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وأقام الحجَّة على هذين العالمين بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وجَعَل في كل فرد من أفرادهم قدرة واختيارًا لفعل الطاعة تقربًا إلى الله، وترك المعصية امتثالاً لنهي الله ﷻ، فالمطيع يطيع بفضل الله ورحمته، ثم بفعله وكسبه واختياره، والعاصي يعصي بعدل الله وحكمته، ثم بفعله، وهو مسئول عن ذلك، ومحاسب على ذلك.

❊ ❊ ❊

«**فإذا قيل لك: بمَ عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته**» [٣٨].

الشرح

[٣٨] والسؤال الثاني: **بم عرفت ربك؟**

وقد أرشد المؤلف بأن من الأشياء التي تكون علامات على معرفة الرب -تبارك وتعالى-، ووجوب الإيمان به: الآيات والمخلوقات؛ إذ قال: «**فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته**».

* **والآيات إذا أطلقت تشمل الآيات الثلاث:**

- **الآيات الكونية**: والمراد بها: هذا الكون بسمائه وأرضه وما فيهما.

- وتشمل **الآيات البرهانية**: وهي المعجزات التي جرت على أيدي الرسل والأنبياء، كالمعجزات التي جرت لموسى، وعيسى، ومحمد -صلى الله عليهم أجمعين-، وغيرهم من الرسل، كما هو موضح في القرآن الكريم والسنَّة المطهرة.

- والنوع الثالث **الآيات القرآنية**: وهي ما أنزله الله -تبارك وتعالى- على رسله من كلامه، ومن ذلك: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان، وصحف إبراهيم وموسى، وغير ذلك مما استأثر الله بعلمه، هذه كلها تدخل تحت كلمة: «آياته»، أي: فقل: بآياته الكونية. إذ المشاهد للكون يستدل بهذا الخلق العظيم، وأنه لا يمكن أن يوجد صدفة، ولا يمكن أن يوجده أحد من المخلوقات، ولا يمكن أن يوجد بعضه بعضًا، كل ذلك مستحيل.

إذن؛ فيبقى أن وجود هذا الكون الذي يشاهد، والذي هو من الآيات العظام دليل على وجود الخالق ﷻ، وأن الخالق له هو الله وحده، وهكذا جميع المخلوقات على اختلاف أشكالها وأصنافها، كلها دليل على وجود الخالق وعلى قدرته، ومن ثَمَّ على استحقاقه للعبادة وحده دون سواه.

«ومن آياته: الليل والنهار، والشمس والقمر، ومن مخلوقاته: السَّمَوَات السبع، والأرضون السبع، وما فيهن، وما بينهما» [٣٩].

الشرح

[٣٩] «**الليل والنهار، والشمس والقمر**»: أي: إنَّ هذه الآيات أبرز المخلوقات التي نشاهدها في كل لحظة من اللحظات، ثمَّ ذكر من الآيات الكونية: الليل يُقبل بظلامه، ثمَّ ينجلي، ويأتي النهار بضيائه، وهكذا يتعاقبان بقدرة العزيز العليم، وفيهما من العبرة، وفيهما من الدلالة على قدرة الله ﷻ الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، لكن لتكرار الجديدين الليل والنهار يغفل الإنسان عن الاعتبار بهما، وعن عظيم صنع الله ﷻ وتسهيله لهما.

ومن أعظم المنافع والفوائد الدينية والدنيوية في الليل والنهار: ما يوفق له العباد من فعل الطاعات: فرائض، وواجبات، ومستحبات، وسائر القربات، واجتناب المنهيات، وهذا المعنى أشار الله إليه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]. يعني: يخلف كل منهما الآخر، وليس لهما منتهى حتى يأتي اليوم المعلوم والوقت المعلوم الذي تبدل فيه الأرض غير الأرض والسَّموات، وبرزوا لله الواحد القهَّار.

وهكذا الشمس والقمر وما فيهما من المنافع والمصالح الدينية والدنيوية، فالشمس تضيء الكون بطلوعها، وفيها من المنافع للأبدان وللأشجار وللدواب وللأرض على العموم ما هو ملموس، يعرف ذلك من رزق التفكر والتأمل في مخلوقات الله:

- فلو بقي الليل ممتدًا بدون نهار؛ لحصل فساد في الأرض، وفي الأجسام، وفي الأرزاق، وفي المزارع .. وغير ذلك.

- ولو بقي النهار سرمدًا بدون ليل؛ لحصلت المشقَّة، وتغيرت الأمور عن مجاريها.

ولهذا ذكر الله أمَّة القرآن بهذه النعمة، يعني: تصريف الليل والنهار، وتعاقبهما كما هو مشاهد ومعلوم، حيث قال سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧١-٧٢]. إنه تذكير نافع عظيم، وتبصير للأمة بنعم الله الغزار، التي لا يستطيع أحد من مخلوقات الله أن يُقدِّم فيها أو يُؤخِّر.

وهكذا القمر وما فيه من المصالح والمنافع إضاءة؛ لأنَّ الإضاءات الصناعية كثيرًا ما يطرأ عليها العطب، ولا يمكن أن يتمتع بها جميع الخلائق، فالناس لهم أحوال مختلفة، هذا يسافر في الفلوات، وهذا لا يجد سراجًا صناعيًّا ينير له في ظلمات الليل، فخلق الله ﷻ القمر، وجعله مضيئًا في السَّموات ولأهل الأرض، وامتَنَّ الله ﷻ بإضاءته حيث قال: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٦].

فهما من الآيات العظام التي لو تأملها العقلاء من الناس لاستدلوا بها على قدرة الله وبديع صنعه، ومن ثَمَّ على استحقاقه لأن يُطاع فلا يعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفَر.

وذكر المؤلف -رحمه الله- من المخلوقات العظام الدالة على قدرة الله، والمستحق للعبادة وحده دون سواه: السَّموات السبع، والأرضين السبع، وما فيهن، وما بينهما من المخلوقات العظام كـ: السحاب، والأمطار، وما في السَّمَوات من الملائكة الكرام، والأنبياء العظام، وأرواح المؤمنين، وما فيها من الأوامر، والدليل على ذلك :

* * *

«والدليل **قوله تعالى**: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [٤٠].

الشرح

[٤٠] قول الله ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]. لما ذكر بأن هذه المخلوقات وإن كانت عظامًا في خلقها؛ إلاَّ أنها لا تستحق من العبادة شيئًا، مهما عظمت المخلوقات وكثر نفعها، فإنها لا تستحق أن يُصرَف لها شيء من العبادة، ولا أن يُضَاف إليها شيء من النعم، وإنما تجب العبادة للذي خلق هذه المخلوقات، وصرفها إلى غيره وضع للشيء في غير موضعه، وهو إشراك بالله الذي هو أعظم الذنوب على الإطلاق.

ولما كان معظم الخلائق يعبدون معبودات مختلفة، ومن جملة المعبودات التي تعبد: «الشمس، والقمر»، يعني: أن قومًا يعبدون الكواكب، ومن جملة ذلك: «القمر»، ومن جملة ذلك: «الشمس»، فنهى الله ﷻ عن عبادة هذه المخلوقات وغيرها من باب أولى.

وأمر أن يعبد وحده دون سواه؛ لأنه هو الخالق لهن، وهو المنشئ لهن من العَدَم، والذي يخلق، ويرزق، ويحيي، ويميت، ويدبر الأمور، هو الذي يستحق أن يُعبد، وغيره لا يستحق من العبادة شيئًا، فمن كان مؤمنًا حقًّا؛ فعليه أن يفرد ربَّه بالعبادة، ولا يفرده بها إلاَّ المؤمنون.

* * *

«وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [٤١].

الشرح

[٤١] وأتبع المصنف هذه الدليل بأدلة أخرى، كقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

* ففي هذه الآية عدد كثير من الفوائد، منها:

١- أنَّ الرب الذي يستحق أن يُعبَد هو الذي خلق السَّمَوات، وخلق الأرض في ستة أيام، وهذه الستة الأيام بيَّنَها الله ﷻ في سورة «فصلت» حيث قال سبحانه: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت:٩-١٢].

فأوضح الله تفصيل هذه الأيام الستة، وأنَّ أربعة أيام منها لخلق الأرض، خلقها في يومين بدون دحو، ثم خلق بعد هذين اليومين السَّمَوات، وقدَّر في كل سماء أمرها، ثم دَحَا الأرض بعد ذلك في يومين، فصارت جملة الأيام ما ذكره الله هنا في ستة أيام، ثم استوى على العرش، فخلق الأرض بدون دحو متقدم على خلق السَّمَوات، ويليه خلق السَّموات خلقًا كاملاً، ويلي ذلك دحو الأرض في يومين.

والمراد بـ: «دحو الأرض»: كما قال الله ﷻ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:٣٠-٣٣].

٢- **والفائدة الثانية**: الحكمة في خلق السَّمَوات والأرض في ستة أيام، مع أنَّ الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنه إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن؛ فيكون.

قال علماء التفسير: «ليُعَلِّم عباده الأناة، والتدرج في الأمور»[(١)].

وليس بالله ﷻ عجز -سبحانه- حتى يحتاج إلى مدة طويلة كهذه، بل له الكمال المطلق والقدرة التامَّة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

٣- **والفائدة الثالثة:** الإيمان بالاستواء على العرش، وإثبات هذه الصِّفة على طريقة أهل السنَّة والجماعة، خلق الله العرش، فهو من جملة مخلوقاته؛ بل هو سقف مخلوقاته، واستوى عليه استواءً يليق بعظمته وجلاله، لا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، ولا تحريف، ولا تأويل، بل كما قال الله ﷻ : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. وهي من الصفات التي عطلتها المعطلة الجهمية، ونفتها المعتزلة، وأولتها الأشاعرة والكُلاَّبية[(٢)] والماتريدية[(٣)]، ومن والى هؤلاء من أهل التأويل المظلم.

٤- **والفائدة الرابعة:** أن هذه المخلوقات العظام مسخرات بأمر الله: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء:٨١]. جعل الله لها حدودًا، وجعل لها مقادير، وجعل لها أفلاكًا تسير فيها وفق أمر الله الذي قدره وقضاه؛ ولذا قال الله ﷻ : ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [يس:٤٠]. وهكذا النجوم، والكواكب السيارة، والنجوم الثابتة، طلوعها وغروبها وأمكنتها تجري بأمر الله، وبتصريف الله ﷻ لها، حتى

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني (٢/ ٢١٩).

(٢) **الكلابية:** هم أصحاب عبد الله بن كلاب، توفي (٢٤٠هـ)، انفرد هو وفرقته بأن قالوا: «ليس لله كلام مسموع، وأن جبريل ليس يسمع من الله شيئًا مما أداه إلى رسله -عليهم السلام-، وإنما هو إلهام ألهمه ذلك من غير كلام». انظر عقائد الثلاث والسبعين فرقة (١/ ٢٧٩) باختصار.

(٣) **الماتريدية:** نسبة إلى محمد بن محمد بن محمود، المعروف بـ: «أبي منصور الماتريدي السمرقندي»، وقد توفي سنة (٣٣٣هـ)، وهم طائفة وافقت الأشاعرة في أمور، وخالفتها في أخرى، معدودة من فقهاء الحنفية، وما كان له أتباع في أول أمره، وإنما أحيا مذهبه بعض أتباعه بعد مدَّة طويلة من وفاته، حتى انتشر مذهبه. انظر كتاب الماتريدية دراسة وتقويمًا بتصرف من (ص٩٣ إلى ص١٠٤).

ينتهي أمرها بذهاب هذه الحياة.

٥- **الفائدة الخامسة**: أن الأمر والخلق لله -تبارك وتعالى-، له الأمر يأمر بها يشاء، وأعظم ما أمر به: طاعته، وأشرف الطاعات وأساسها: توحيده، وله الأمر المطلق يأمر بها يشاء، وينهى عما يشاء، كل ذلك رحمة بالعباد، وتزكية لهم، وتطهيرًا لنفوسهم وقلوبهم، وابتلاءً واختبارًا، كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

وكما قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك:٢]. أي: أخلصه وأصوبه.

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الانبياء:٣٥].

إذن؛ فالله هو الذي انفرد بالخلق، فخلق مخلوقاته بدون معين ولا ظهير، ورزق جميع مخلوقاته بدون معين ولا ظهير، وله الأمر كله، يأمر بها يشاء، ويحكم بها يريد، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

* * *

«﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾» [٤٢].

الشرح

[٤٢] وفي ختام هذه الآية الكريمة أثنى الله على نفسه، ونَزَّه نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]. أي: تنزه وتعاظم، وكثر خيره وبركته؛ لأنه رب العالمين، الخالق للعالمين، والمالك للعالمين، والمتصرف التصرف المطلق في عالم السماء، وفي عالم الأرض، وفي جميع مخلوقاته سبحانه بها يشاء وبها يريد، فله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، لا إله هو خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، وبكل شيء عليم.

* * *

«وهو المعبود، والدليل قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾»[٤٣].

الشرح

[٤٣] وتابع المؤلف الأدلة على أن مخلوقات الله ﷻ دالة على وجوده، كما أنها دالة على استحقاقه لأن يعبد الله وحده، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١].

فالنداء هنا لجميع الناس: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾. وهو من الأدلة على شمول وعموم رسالة نبينا محمد ﷺ، فيدخل في كلمة: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ كل من كان من هذا النوع من الأناسي -عربًا وعجمًا، وذكورًا وإناثًا-، كلهم مخاطبون بهذا الخطاب العام الشامل؛ ليتوجهوا بجميع عباداتهم إلى الله وحده لا شريك له.

ولما أمرهم بالعبادة؛ ذكر علة وجوبها، وعلة هذا التكليف، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾. أي: وخلق الذين من قبلكم، فما أنتم إلاَّ أمَّة من أمم قد خلت، كما ثبت في السنن: أنَّ النبي ﷺ قال: «**أنتم توفون سبعين أمَّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله**»(١).

ففي قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾. بعد الأمر بعبادته وحده إيضاح وبيان أنَّ الذي خلق ورزق هو الذي يستحق أن يُعبَد وحده، وأنَّ الذي لم يخلق شيئًا، ولم يرزق، وليس بيده حياة ولا موت؛ لا يستحق أن يصرف له شيء من العبادة أبدًا.

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/ ٢، ٥)، ورواه الحاكم بلفظ آخر في أبواب تفسير القرآن، سورة آل عمران، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده: أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]. قال: «**إنكم تتمون سبعين أمَّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله**». (٥/ ٢١١)، (٣٠٠١)، وابن ماجه بنحوه (٢/ ١٤٣٣)، والدارمي (٢/ ٤٠٤)، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٩٤)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

كما فعل المشركون على اختلاف أنواعهم: فاليهود عبدوا ثلاثة، والنصارى كذلك، والمشركون معبوداتهم لا تدخل تحت العد والحصر من الأشجار، والأحجار، والأخشاب المنحوتة، والشمس والقمر، والكواكب ذوات الأنواع والأشكال المختلفة بحسب الزمان والمكان، وقد ذمهم الله ﷻ بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم:١٩-٢٢]. لأنهم قالوا: إن الله ﷻ له البنات.

والبنات عند العرب مذمومات: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:٥٨]. لأنه يريد ذكرًا يحمي الذمار، ويحمل السلاح، ويهزم الأعداء، وأما المرأة فهي عار وشنار عندهم، وأفضى بهم الأمر أنهم يقتلونها: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٨-٩].

فذكرهم الله -تبارك وتعالى- في ذلك، وذمهم فيما نسبوا إليه من البنات، وذكر الخبر في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:١٩].

ووبخهم الله بقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور:٣٩].

وذمهم بقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]. والجِنَّة: الملائكة، والنسب: هو قولهم: إن الملائكة بنات الله. والله ﷻ يتنزه عن الصاحبة والولد، فهو الذي خلق، وهو الذي رزق جميع مخلوقاته في عالم الأرض، وفي عالم السماء.

ثمَّ ذكر العلة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه؛ ولذلك أمركم بعبادته، وذكركم بنعمه؛ لكي تتقوا الله ﷻ بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والقيام بطاعته ما دمتم في حياة العمل.

وذكرهم الله ﷻ بشيء يعرفونه وهو «الأرض»، وما فيها من المنافع المتنوعة،

وبسطها لهم من أجل أن ينتشر الناس عليها، ويقضوا حاجاتهم بيسر وسهولة: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ هو سبب الرزق، كما في قول الله ﷻ: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢].

❊ ❊ ❊

«﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾» [٤٤].

الشرح

[٤٤] ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. لا تجعلوا لله نظراء يُعبدون كما يُعبد، ويُشكرون كما يُشكر؛ لأن هذا هو الكفر بعينه، وهذا هو الشرك الأكبر أن تجعلوا لله أندادًا.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله هو الذي انفرد بالخلق، والرزق، والتدبير، وما سواه عاجز فقير، كما قال -عز شأنه-: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

❊ ❊ ❊

«وقَالَ ابن كثير -رحمه الله-: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة» [٤٥].

الشرح

[٤٥] «**وقَالَ ابن كثير -رحمه الله-: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة**».

وهذه الجملة المختصرة لها معناها الكبير؛ إذ إنها كخلاصة لما تقدم تفصيله، أي: أن من خلق هذه الأشياء التي تم إيرادها وتدوينها هنا هو الذي يستحق العبادة وحده دون سواه، والله أعلم.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه.

الدرس السابع

«وأنواع العبادة التي أمر الله بها»[٤٦].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

[٤٦] قال المصنف -رحمه الله-: «**وأنواع العبادة**».

العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة؛ فيدخل في هذا التعريف: كل عبادة يتعبد بها المكلَّفون من العبادات التي يجب أن تُصرف لله وحده.

وذكر المؤلف مثالاً ونموذجًا من أنواع العبادات، فقال:

❊ ❊ ❊

«مثل: الإسلام، والإيمان، والإحسان» [٤٧].

الشرح

[٤٧] «**مثل: الإسلام، والإيمان، والإحسان**»: وهذه هي مراتب الدين كما في حديث جبريل عليه السلام المشهور، وهو ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: «كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منَّا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟

فقال: **الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**.

قال: صدقت. قال الراوي: فعجبنا له يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان؟

قال: **أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.**

قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان؟

قال: **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك.**

قال: فأخبرني عن الساعة؟

قال: **ما المسئول عنها بأعلم من السائل.**

قال: أخبرني عن أماراتها.

قال: **أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان.**

ثم انصرف، فقال النبي ﷺ: **أتدري يا عمر من السائل؟**

قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: **هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم»**[1].

فاعتبر النبي ﷺ هذه المراتب الثلاث: الإسلام، والإيمان، والإحسان، كلها مراتب الدين، أي: هي الدين كله.

وعند تفاصيل هذه المراتب لابد من البيان: بيان أركان الإسلام، وبيان أركان الإيمان، وبيان أركان الإحسان، وهذه قد كتبت فيها كتابة مختصرة واضحة على طريقة السؤال والجواب ضمن بحوث سلسلة الأجوبة السديدة، وهو السؤال الثاني:

س١: ما هي العبادة ومن المكلف بادائها؟

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٦).

فقلت:

ج١: **العبادة**: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأفعال، والأعمال الظاهرة والباطنة.

والمكلف بأدائها على سبيل الوجوب أو الاستحباب بحسب الأمر الإلهي: هو المكلف العاقل من عالم الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

ويليه السؤال الثالث، ونصه:

س٣: ما هو التوحيد، وكم أنواعه، وما جزاء من حققه في الدنيا والآخرة ؟

ج٣: **التوحيد**: هو إفراد الله بالعبادة، والخلوص له من الشرك -كبيره وصغيره، قليله وكثيره-، والبراءة منه ومن أهله، كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

وقال سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

*** وأما أنواع التوحيد فثلاثة:**

- **الأول**: توحيد الألوهيَّة.
- **الثاني**: توحيد الربوبيَّة.
- **الثالث**: توحيد الأسماء والصفات.

فتوحيد **الألوهية**: هو إفراد الله بجميع أنواع العبادات، والتي ذكر الشارح نموذجًا منها[1].

(١) كالدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستغاثة، والذبح، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها.

وتوحيد الربوبية: هو الإقرار بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي والمميت، المدبر لجميع الأمور، المتصرف في الكون كله، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو الاعتقاد الجازم بأنَّ لله الأسماء الحسنى، والصفات العُليا، وإثباتها من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تشبيه، ولا تكييف، ولا تمثيل، بل نقول كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۭ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وأما الجزاء على التوحيد في الدنيا: فهو عصمة الدم، والمال، والعرض، وحياة الأمن والطمأنينة.

وأما جزاء الموحدين في الآخرة: فرضا الله والجنة، والنجاة من سخطه والنار، وفوق ذلك التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم، وذلك هو الفوز العظيم[١].

ونحن بصدد ما ذكره المؤلف -رحمه الله- من مراتب الدين، حيث ذكر المرتبة الأولى الإسلام، وفي حديث جبريل بيَّن النبي ﷺ أركان الإسلام، وطالب العلم بحاجة إلى معرفة مُفصَّلة لأركان الإسلام، وأركان الإيمان، وركن الإحسان بالأدلة التي توضح كل ركن.

وهنا السؤال يأتي عن: **أركان الإسلام، ومعنى كل ركن منها، وذكر شيء من ثمراتها؟**

والجواب: كما جاء في الحديث عن أركان الإسلام، وأنها خمسة، شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا رَسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رَمضَان، وحج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

فأما معنى شهادة «أن لا إله إلاَّ الله»: فهو نفي جميع ما يُعبَد من دون الله، وإثبات العبادة كلها لله، وهذان المعنيان هما ركنا «لا إله إلاَّ الله» النفي والإثبات، وقد سبق معنا[٢] أن

(١) الأجوبة السديدة للشارح (١/ ٧-٩).

(٢) في (ص٣٥-٣٦).

لا إله إلا الله» لها ركنان: النفي، والإثبات، النفي يؤخذ من قولك: «لا إله». والإثبات يؤخذ من قولك: «إلا الله».

وأما معنى شهادة «أن محمدًا رسول الله»: فهو طاعته فيما أمر، وتصديقه في الأمور كلها، وتنحصر في متابعة النبي الكريم ﷺ التي أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [التغابن:١٢].

كما أمرنا سبحانه بمتابعته في كل شأن من الشئون، ورتب على ذلك الهداية والفلاح، فقال ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

* **ومن ثمرات هذا الركن العظيم الذي هو شهادة «أنَّ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا رَسُول الله»**:

- تحرير القلب والنفس من التعلق بالمخلوقين، والاعتماد عليهم في جلب المصالح، ودفع المضار.

- **وثانيًا**: سَعَادة الدارين؛ إذ لا سَعَادَة للإنسان البشري في دنياه وبرزخه وأخراه إلاَّ إذا حَقَّقَ إسلامه على الوجه الذي أراده الله، وبيَّنه رسول الله ﷺ.

وأما معنى الصَّلاة في اللغة: فهي الدعاء، كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣]. أي: ادع لهم.

وفي الشرع: التعبد لله بفعلها، مَصحُوبًا بالنيَّة الخالصة على الكيفية التي وَضَّحَهَا رسول الله ﷺ بفعله وقوله، حيث قال: «**صَلُّوا كَما رَأيتُمُوني أصَلِّي**»(١). وهي أقوال، وأفعال، مفتتحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٩٣).

* وهي من أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، ولها ثمراتها ومنها:

- **أولاً**: انشراح الصَّدر، كما في قول النبي ﷺ: «**يا بلال، أقم الصَّلاة أرحنا بها**»[1].

- **وثانيًا**: هي قرة العين للنبي ﷺ ولجميع أتباعه، بدليل قول النبي ﷺ: «**جُعِلَتْ قرَّة عيني في الصَّلاة**»[2].

- **وهكذا من ثمراتها وفوائدها**: الانزجار عن الفحشاء والمنكر، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وأما معنى الزكاة -وهي الركن الثالث وهي قرينة الصلاة- في اللغة: فهي النماء والتطهير.

وفي الشرع: هي التعبد لله بإخراج مال مخصوص من مال مخصوص لطائفة مخصوصة، في وقت حَدَّدَه الشارع الحكيم.

* **ومن ثمرات الإيمان بهذا الركن**:

- **أولاً**: تطهير النفس من رذيلة الشح والبخل؛ إذ هما خُلُقَان ذميمان في كل شريعة من شرائع الله.

- **ثانيًا**: تدعيم الإسلام، وسدُّ حاجة المسلمين.

- **ثالثًا**: تنمية للمال المزكَّى، فما نقص مال من صدقة، بل يزيد ...

وأما معنى الصوم في اللغة: فهو الإمساك عن شيء ما.

وفي الشرع: هو الإمساك عن المفطرات بنيَّة صيام نهار رمضان؛ عبادة لله؛ وامتثالاً لأمره.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٩٦)، وصَحَّحَه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٤١).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/ ١٢٣، ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) عن أنس، والنسائي، كتاب عشرة النساء، باب: حب النساء (٥/ ٢٨٠) (٨٨٨٧)، (٨٨٨٨)، وحَسَّنه الألباني في مشكاة المصابيح، كتاب الرقاب، باب: فضل الفقراء وما كان من عيش النبي ﷺ (٣/ ١٤٤٨) (٥٢٦١).

وله ثمرة عظيمة: وهي ترويض النفس على ترك المحبوبات والمألوفات؛ طلبًا لمرضاة الله؛ وطمعًا في نيل ثوابه يوم القيامة.

وأمَّا الحج في اللغة: فهو القصد.

وفي الشرع: هو قصد بيت الله الحرام؛ للقيام بمناسك الحج، وأداء جميع شعائره.

*** وله ثمرات منها:**

- **أولاً:** ترويض النفس على بذل المال في سبيل الله؛ لأن الحج من سبيل الله.
- **ثانيًا:** التضحية بالنفس في جميع طاعات الله.

وبعد:

فإن التطبيق الفعلي لهذه الأصول العظيمة في واقع الحياة يجلب للأمة المحمديَّة كل صلاح وفلاح في أمور دينها ودنياها، فليتق العبدُ ربَّه وليحققها، فإنها أصول دينه، وعاصمة لدمه وماله وعرضه، ومفتاح أصيل لدخول جنَّة عرضها كعرض السَّمَوات والأرض أُعدَّت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم[١].

وذكر المؤلف -رحمه الله- بأن من أنواع العبادة: الإيمان، والإيمان مرتبة عظيمة من مراتب الدين، وأركانه ستة كما ذكرها النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام المشهور، وهي: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره من الله -تبارك وتعالى-»**[٢].

*** ولكل ركن من هذه الأركان الستة معنى ينبغي فهمه:**

- **فأما معنى الإيمان بالله** ﷻ: فهو التصديق بوجوده، والإقرار الصريح بربوبيته،

---

(١) انظر الأجوبة السديدة للشارح (١/ ١٠-١٣).

(٢) سبق تخريجه (ص١٠٦).

والاعتراف الظاهر والباطن بألوهيته، والإيمان على الوجه الحق بأسمائه الحسنى والصفات العلا، وتطبيق ذلك تطبيقًا عمليًا في واقع الحياة كما يريد الله، وكما شرع رسول الله ﷺ، كما قال الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام:١٠٢].

وقال سبحانه: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣].

وقال -تبارك وتعالى-: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ومن ثمرات الإيمان بالله: تحرير النفس من الرقِّ لغير الله من المعبودات على اختلاف أنواعها، وجعل العبادة خالصة لله وحده دون سواه.

- **وأما معنى الإيمان بالملائكة -الذي هو الركن الثاني من أركان الإيمان- فهو:** التصديق بوجودهم، وأنهم من مخلوقات الله العظيمة، خلقهم الله وجبلهم على طاعته، فلا سبيل لهم إلى مخالفة أمره، وقد أسند الله إليهم أعمالاً هَامَّة لا يقوم بها سواهم، فمنهم من ينزل بالوحي، ومنهم من يصرف القطر والنبات، ومنهم من يحفظ بني آدم من السوء والمكروهات .. إلى غير ذلك مما نعلم ومما لا نعلم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

*** وللإيمان بهذا الركن ثمرات جليلة منها:**

١- العلم بعظمة الخالق سبحانه وقوته ونفوذ سلطانه، حيث خلق هذا الخلق الذي لا يحصي عدده بشر، وهم الملائكة.

٢- شكر العبد ربه على ما أولاه من التربية العامَّة والخاصَّة والعناية البالغة، فقد هيأ له ما في السَّمَوات وما في الأرض، ومن جملة ذلك الملائكة على اختلاف وظائفهم المهمة، ومراتبهم العظيمة، فهم يحفظونه من كل سوء ومكروه، وهم يستغفرون لأهل الإيمان، وهم

يكتبون الأعمال خيرها وشرها .. إلى غير ذلك من وظائفهم التي هيأهم الله -تبارك وتعالى- لها.

٣- وُجُوب محبة الملائكة؛ لأنهم أنصح المخلوقات لعباد الله المؤمنين، كما قال الله -تبارك وتعالى- عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر:٧-٩].

- **وأما معنى الإيمان بالكتب:** فهو الاعتقاد الجازم بأنها منزلة من عند الله -تبارك وتعالى-، تكلم بها قولاً، وأنزلها على رسله وَحيًا، وصدق بها ذو الإيمان برسله حقًّا وصدقًا، وقد أمر الله الأمَّة المحمديَّة كلها أن تعلن إيمانها باطنًا وظاهرًا بما أنزله على الأنبياء السابقين، حيث قال سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦].

- **وأما معنى الإيمان بالرسل:** فهو الاعتقاد الذي لا شك فيه أنَّ الله بَعث رُسلاً مبشرين ومنذرين؛ لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل، أولهم نوح عليه السلام، وآخرهم محمد ﷺ، فمن اقتدى بهم، واستجاب لدعوتهم؛ فقد اهتدى، ومَن جَحَد رسالاتهم، وكذب بها؛ فقد ضلَّ وغوَى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٥٢].

*** وللإيمان بالرسل فوائد عظيمة، وثمرات جليلة منها:**

١- العلم القطعي برحمة الله العزيز الرحيم الذي لم يكل الخلق إلى عقولهم، بل أرسل إليهم رُسلاً، وأنزل عليهم كتبًا.

٢- اعتبار رسالاتهم نعمة كبرى أنعم الله بها على عباده في كل زمان ومكان.

٣- محبة أولئك الرسل الكرام أهل النصح والصِّدق والأمانة والإخلاص.

- **وأمَّا معنى الإيمان باليوم الآخر**: فهو التصديق المبني على العلم المستمد من كتاب ربنا، ومن سنَّة نبينا محمد ﷺ بأن الله سيبعث الخلائق بعد موتهم، ثم يجمعهم ليوم لا ريب فيه، ويجازي كلاً بعمله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

ومن كذب بهذا اليوم أو بشيء مما سيكون فيه من: الصِّراط، والميزان، والحوض، والجنة، والنار، والجزاء على الأعمال .. وغيرها مما هو معلوم من الشرع بالضَّرُورَة؛ فقد ضل سواء السبيل؛ إذ إن ثبوت وقوع ذلك قد دل عليه الكتاب والسنَّة وإجماع المسلمين.

*** وللإيمان بهذا الركن فوائد منها:**

١- الإقبال على فعل الخيرات، والحرص على اكتساب الحسنات من أقوال وأفعال ومعتقدات، وما ذلكم الإقبال إلاَّ لأن فاعلها يرجو ثوابها الذي وُعِد به في محكم التنزيل الحكيم، وصحيح السنَّة المطهرة.

٢- الكف عن المعاصي: أقوالها وأفعالها، باطنها وظاهرها؛ إذ إن اقترافها سبب في عقوبة الله التي توعد بها العُصَاة الذين تعدوا حُدوده، وأضاعوا فرائضه، وأعرضوا عما جاء به المرسلون الذي فيه صلاحهم وفلاحهم لو آمنوا به، واستقاموا عليه.

- **وأما معنى الإيمان بالقدر**: فهو الاعتقاد الجازم بأن جميع الكائنات: علويها وسفليها، كلياتها وجزئياتها، ناطقها وصامتها، متحركها وساكنها، قد قدرها الله، وأحاط بها في القدم، وستقع في أوقاتها وأماكنها المحدودة، وعلى صفاتها المخصوصة حسب ما قُدِّر لها في الأزل.

* وللإيمان بالقدر مراتب أربع هي:

- **الأولى**: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء.

- **الثانية**: الإيمان بكتاب الله الذي لم يفرط فيه من شيء.

- **الثالثة**: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة، فما شاء الله كونه؛ فهو كائن بقدرته لا محالة.

- **الرابعة**: الإيمان أن الله خلق كل شيء[1].

وأدلة الإيمان بهذا الركن العظيم كثيرة في الكتاب والسنَّة، لا ينكرها إلاَّ كافر، ولا يؤولها بغير تأويلها الحق إلا جاهل أو متجاهل، قال الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

وثبت في صحيح مسلم[2]، عن عبد الله بن عمرو بن العاص[3] رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الله كَتَبَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة**»[4]. وغير ذلك كثير.

ومن هذه النصوص الصَّريحة يتضح للمؤمن الصادق في إيمانه أن كل تحركات المخلوقات الاختيارية وغير الاختيارية لا تخرج عن إرادة الله -تبارك وتعالى-، بل كل ما

(١) انظر كتاب الحياة في ظل العقيدة الإسلامية للشارح (ص٦٤) وما بعدها.

(٢) **مسلم**: هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صاحب الصَّحيح، وأحد الأئمَّة الحفاظ، وأحد الأعلام المحدثين، ولد عام (٢٦٠هـ) وتوفي عام (٣١٥هـ)، وكان عمره خمسًا وخمسين سنة، تقريب التهذيب (٢/ ١٧٨).

(٣) عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد -بالتصغير- ابن سعد بن سهم السهمي، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصَّحَابة، وأحد العبادله الفقهاء، مات في ذي الحجَّة ليالي الحرَّة على الأصَحِّ، بالطائف على الراجح، تقريب التهذيب (١/ ٥١٧).

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٤٤).

يقع في العالم العلوي والسفلي من إحياء وإماتة، وصحة ومرض، وفقر وغنى، وطول عمر وقصره، ونزول الأجل ووقته، ومكانه وسببه، وشقاوة وسعادة، ورخاء وشدة، وعسر ويسر، وكفر وإيمان، وخير وشر؛ كل ذلك بتقدير الله الأزلي الذي سطره القلم الذي خلقه الله، وأمره أن يكتب مقادير كل شيء إلى أن تقوم الساعة.

فما من أمر من الأمور، أو حدث من الأحداث إلاَّ وقد جَرَى به القلم في تلك السَّاعَة، إلى قيام السَّاعَة، ولا يلزم من ذلك أن يتكل العباد على ما كُتب ويتركوا العمل، فذلك عجز وانحراف عن توجيهات القرآن الكريم، ووصية الرَّسُول الصَّادق الأمين، فلابد إذن من الجد والاجتهاد في اكتساب الحسنات وترك السيئات، فإن ذلك موجب لرضا رب الأرض والسَّمَوات، وسبب متين لدخول الجنات، وتبوء منازلها العاليات البهيات.

ولقد جاء في الحديث عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال للنبي ﷺ: «يا رسول الله، أرأيت ما نعمل فيه أمر مبتدع -أو مبتدأ-، أو فيما قد فُرِغ منه؟! فقال: **فيما قد فرغ منه يا بن الخطاب!! وكل ميسر، أما من كان من أهل السَّعَادة؛ فإنه يعمل للسَّعَادة، وأما من كان من أهل الشقاء؛ فإنه يعمل للشقاء**»[1]. وفي رواية قال عمر: «الآن نجتهد يا رسول الله».

*** ومن ثمرات الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، ما يأتي:**

١- الاعتماد على الله، وتفويض جميع الأمور إليه؛ لأنه واهب الحياة، وقاضي الحاجات، ومُفرِّج الكربات، ومتصرف في مخلوقاته كلها بما شاء وكيف يشاء.

٢- الابتعاد والحذر من الوقوع في داء العُجب عندما يحصل الإنسان على مُرَاده من حَاجَات الدِّين والدنيا، ويشعر نفسه أن حصول كل محبوب، ودفع كل مكروه؛ إنما هو

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٤٤٥)، وصَحَّحَه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٤٤٠)، ورواه بنحوه البخاري في صحيحه (٤/ ١٣١).

نعمة ربانيَّة مقدرة من لدن حكيم خبير، فليحمد الله عليها.

- **والمرتبة الأخيرة من مراتب الدين -وبها ينتهي درسنا- مرتبة الإحسان**: الذي فسره النبي ﷺ بقوله الصريح: «**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يَرَاك**».

والمعنى: أن تعبد ربك وأنت مُستَحضر عظمته وقربه منك، ومراقبته لك في كل حال من الأحوال، وذلك يوجب الخشية والتعظيم لربك، وحينئذٍ لا تقصر في طاعة، ولا ترتكب معصية؛ إجلالًا لله؛ وخوفًا منه -جل في عُلاه-، والدليل على ذلك قول الحق سبحانه: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

وقول النبي ﷺ: «**إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء**»[١].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

* * * * *

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٤٨).

الدرس الثامن

«ومنه الدعاء» [٤٨].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

أمَّا بعد:

فقد سبق معنا في الدرس الماضي الحديث عن التعريف بـ: الإسلام وأركانه الخمس، والتعريف بالإيمان وأركانه الستة، والتعريف بالإحسان وركنه، مع إيضاح ذلك ببعض الأدلة التي وردت في الكتاب والسنَّة تبين أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وركن الإحسان.

والمؤلف -رحمه الله- ذكر هنا من أنواع العبادة أمثلة من العبادة، صدَّرها بالإسلام الذي يشمل أنواع العبادات كلَّها، كما قال -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩]. وأردف ذلك بالإيمان والإحسان، وهذه الثلاثة مراتب الدين كله كما أسلفت، بحيث لا يخرج عنها نوع من أنواع العبادات، ولا مسألة من مسائل الدين، بل كل عبادة وكل مسألة من مسائل دين الإسلام فهي داخلة تحت الإسلام، والإيمان، والإحسان.

واسترسل المؤلف -رحمه الله- في ضرب أمثلة من العبادات، وهذه الأمثلة كالتفصيل بعد الإجمال، فذكر من أنواع العبادات :

[٤٨] **«الدعاء»: والدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة،** وكلاهما في الواقع عبادة.

١ - **فدعاء العبادة:** هو التوجه إلى الله -تبارك وتعالى- بكل عبادة مالية، أو بدنية، أو هما معًا وفق شرعه المطهر وأوامره القيمة.

وفي مقدمة هذا النوع من العبادة: توحيد الله -تبارك وتعالى- حيث دل عليه قول الحق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. أي: ليوحدون.

علمًا أنه لا يتم توحيد عبد إلاَّ بالبراءة من الشرك الذي هو ضد التوحيد؛ لأننا إذا أتينا نُعرِّف التوحيد بمعناه الشرعي نقول: «هو إفراد الله بالعبادة، والخلوص له من الشرك، والبراءة منه ومن أهله، قليله وكثيره، صغيره وكبيره»، فلا يتم توحيد إلاَّ ببراءة تامَّة من الشرك وأهله، وجميع ضروبه وصوره.

ولهذا قال العلماء: «لا ولاء إلاَّ ببراء»[1].

٢- **دعاء المسألة:** ودعاء المسألة هو الطلب من الله -تبارك وتعالى-؛ لجلب المصالح الدينية والدنيويَّة، ودفع المضار كذلك، وذلك فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله، والطلب بهذه الصورة عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله -تبارك وتعالى-.

وقد قسم العلماء دعاء المسألة إلى أقسام، منها: ما لا يجوز طلبه إلاَّ من الله -تبارك وتعالى- وحده، فمن صَرَف منه شيئًا لغير الله ﷻ؛ فقد أشرك بالله شركًا أكبر، وذلك كمن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله -تبارك وتعالى- من جلب مصلحة، أو دفع ضر، وأمَّا الطلب من المخلوق شيئًا يقدر عليه فلا محظور فيه.

❊ ❊ ❊

---

(١) هذه من عبارات أهل السنَّة والجماعة في الاعتقاد، أي: لا ولاء للمسلمين إلاَّ بالبراءة من الكافرين، فهي كلمة حق يُرَاد بها حق.

وهي من عبارات الشيعة في الاعتقاد، أي: لا ولاء لآل البيت إلاَّ بالبراءة من الشيخين: أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما فهي عند «الرافضة»: كلمة حق يُراد بها باطل. النظائر (ص٣٠٢)، وهجر المبتدع (ص١٨).

«والخوف» [٤٩].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٤٩] **الخوف من الله**: من أفضل مقامات الدِّين وأجلها، وقد أمر سبحانه بإخلاص ذلك له، فقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. وينبغي أن يكون مقرونًا بالرجاء والمحبة.

* وقد ذكر العلماء أن الخوف ثلاثة أقسام:

- **أحدها: خوف الشرك**: وهو أن يخاف من غير الله، من: وثن، أو طاغوت، أو ميِّت، أو غائب من جنٍّ أو إنس أن يصيبه بما يكره، وهذا هو الواقع اليوم من عُباد القبور في بعض الأقطار، يخافونها ويُخوِّفون بها أهل التوحيد، فهذا الخوف ينافي التوحيد.

- **الثاني**: أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفًا من بعض الناس؛ فهذا محرم، وهو شرك أصغر يجب الحذر منه.

- **الثالث: الخوف الطبيعي**: وهو الخوف من عدو، أو سبع، أو غير ذلك، فهذا لا يُذم صاحبه.

«**والرجاء**» [٥٠].

الشرح

[٥٠] «**الرجاء**»: والرجاء خُلق المؤمنين، والمراد به: الطمع فيما عند الله ﷻ من الفضل والإحسان، ومن خيري الدنيا والآخرة، مع الإتيان بالأسباب.

والخوف والرجاء قرينان، فلابد أن يكون أحدهما مع الآخر، فيكون العبد خائفًا من الله ﷻ، خائفًا من عذابه، راجيًا رحمته.

وقد ذكر العلماء -رحمهم الله- أنه يغلب جانب الرجاء على جانب الخوف عند الاحتضار؛ لئلا يجره الخوف إلى القنوط واليأس من رحمة الله، وهو في وقت يُودع فيه الدنيا.

وقد جاء في الحديث الثابت الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يَمُوت أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظن بربه**»[(١)].

كما يرجح جانب إلجام النفس بالتقوى على جانب مُرادها من شهوة جسديَّة، أو رغبة في المال الحرام، أو تقاعس عن فعل الطاعات، والإقبال على المعاصي، هنا ينبغي أن يرجح جانب الخوف؛ ليكون علاجًا للنفس، وهو ضرب من جهادها.

* * *

«**والتوكل**» [٥١].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٥١] «**التوكل**»: ومعناه: الاعتماد على الله في كل شأن من شئونك، وتفويض جميع الأمور إلى الله وحده دون سواه، كما أتى في الآية الكريمة الحصر والقصر: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

إذن؛ فالتوكل بهذا المعنى تفويض الأمور إلى الله ﷻ، والاعتماد عليه وحده في جلب كل مصلحة ودفع كل ضر فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله ﷻ، عبادة من صرفها لغير الله؛ فقد أشرك شركًا أكبر.

وأمَّا ما يُسَمَّى بالاعتماد على الغير من الأحياء فيما يقدر عليه من التسبب المباح في

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٥).

قضاء حاجة، أو دفع كربة، أو تنفيس همٍّ وغمٍّ في حدود ما يقدر عليه الإنسان؛ فهذا لا محظور فيه إذا أنزلته بغير الله -تبارك وتعالى-، مع الاعتقاد أن غير الله إنما هو سبب من الأسباب في قضاء الحاجات ودفع الكربات.

* * *

«والرغبة» [٥٢].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٥٢] «**الرغبة**»: والمراد بها: الطمع فيما عند الله -تبارك وتعالى- من خيري الدنيا والآخرة، مَصحُوبَة ببذل الجهد في أسباب المغفرة، وأسباب الرحمة، وأسباب الرضا.

* * *

«والرهبة» [٥٣].

[٥٣] «**والرهبة**»: وهي شدة الخوف من عقوبة الله -تبارك وتعالى- العاجلة والآجلة، فمن صرف منهما شيئًا لغير الله -تبارك وتعالى-؛ فقد كفر أو أشرك؛ لأن الله -تبارك وتعالى- لا يرضى لعباده أن يصرفوا هاتين العبادتين الجليلتين لأحد سواه.

وقد مدح الله -تبارك وتعالى- رسله وأنبياءه في سورة الأنبياء، حيث ابتدأ ذكرهم بإبراهيم عليه السلام وفي ختم القصص قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء:٩٠]. والرغبة والرهبة محلهما القلوب، أي: قلوب العباد.

* * *

«والخشوع والخشية» [٥٤].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٥٤] «الخشوع والخشية»: وكلاهما بمعنى التذلل لله ﷻ، والانقياد له ظاهرًا وباطنًا، مع كمال الحب لله -تبارك وتعالى-.

ولهذا فرق العلماء[1] بين الخشية والخوف، فقالوا: إنَّ الخشية خوف مصحوب بالتعظيم، بينما الخوف قد يكون معه تعظيم، وقد لا يكون معه تعظيم، وهذا حق، فقد يخاف الإنسان من عدو، فخوفه من العدو مجرد من التعظيم، وقد يخاف من سبع، فخوفه منه مجرد من التعظيم له، لكن الخشية لا تطلق إلاَّ مصحوبة بالتعظيم.

قال الله ﷻ عن ملائكته الكرام: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨].

وكما قال الله ﷻ عن العلماء صفوة الخلق: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

أي: علماء الشرع، والعلماء بكتاب الله وسنَّة نبيه -عليه الصَّلاة والسَّلام-، العاملون بذلك.

ولما كان صرفهما لغير الله شرك؛ حذَّرَ الله -تبارك وتعالى- من ذلك بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة:١٥٠].

❊ ❊ ❊

«والإنابة» [٥٤].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

---

(١) انظر كتاب الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٣٠٦).

[٥٤] «**الإنابة**»: ومعنى الإنابة: الرجوع إلى الله ﷻ في كل لحظة من لحظات العمر؛ لأن المؤمن لا يرى نفسه إلاَّ مُقصرًا مهما بذل من جهد في طاعة الله، لعظم نعم الله عليه وكثرتها، فهو مقصر دائمًا بما تحمل كلمة التقصير من معنى مهما بذل من جهد بالركوع، والسجود، والتحصيل العلمي، والذكر الشرعي، فالعبد مقصر؛ لأن الله -تبارك وتعالى- له المنَّة وله الفضل، وما من خير يفعله الإنسان إلاَّ ولله المن والفضل والنعمة عليه؛ لأنه هو الذي وفقه لعمل الخير وهداه إليه، وحال بينه وبين عدوه الذي يغزوه دائمًا، ويصرفه عن فعل الطاعات، ويوبقه في فعل المعاصي.

وعلى هذا فالعبد منيب إلى الله في كل لحظة من لحظات عمره، وبالأخص إذا أصيب بغفلة، أو وقع في معصية ما، وإذا قصر في طاعة؛ فعند ذلك يلوم نفسه، ويستيقظ قلبه، فيرجع إلى الله ﷻ منكسرًا بين يديه، معتذرًا إليه، عازمًا على أن يبدل السُّوء إحسانًا، وأن يُبدل الغفلة استيقاظًا، وأن يستأنف الحياة؛ لتكون حَيَاة عمل مصحوب بالصَّواب والإخلاص وصحة المعتقد.

والإنابة في الحقيقة توبة؛ لأنها تتضمن شروط التوبة من: ترك المعصية، والندم على ما سلف من التقصير، ونبذ الغفلة، والعزم على فعل الطاعة وعدم العودة إلى فعل المعصية، وهذه من شروط التوبة ولا شك.

❊ ❊ ❊

«**والاستعانة**» [٥٥].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٥٥] «**الاستعانة**»: والاستعانة التي لا يجوز أن تصرف إلى غير الله هي: الاستعانة

بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله ﷻ، فإذا صرفت هذه الاستعانة لغير الله، كمن يستعين بمخلوق حي أو ميِّت على إنجاب الولد، وجلب الرزق، ودفع المرض .. إلى غير ذلك مما لا يقدر عليه إلاَّ الله، كما يفعله المشركون الوثنيون وإن كانوا يعيشون بين أظهر المسلمين؛ فهذا شرك أكبر.

ولعظم شأنها؛ فإن الله ﷻ حصرها في التوجه إليه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. أي لا نعبد إلاَّ إيَّاك، ولا نستعين إلاَّ بك، وهذا وعد من العبد وعهد أبرمه بينه وبين ربِّه، فمن وفى فله الجزاء الأوفى، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه.

أمَّا الاستعانة بمخلوق حي فيما يقدر عليه الخلق، مع تعلق القلوب بالله ﷻ، واعتبار المعين سببًا من الأسباب فقط؛ فهذا لا محظور فيه ؛ كأن تستعين بإنسان يعطيك مالاً، أو يرفع لك متاعًا، أو يبني لك بناءً .. ونحو ذلك من الأمور التي يُستَعَان فيها بغير الله -تبارك وتعالى-؛ لأنها ليست من صور الشرك، وليست من ضروبه.

❊ ❊ ❊

«**والاستعاذة**» [٥٦].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٥٦] «**الاستعاذة**»: ومعناه: الالتجاء إلى الله ﷻ، وذلك إذا قال العبد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فالمعنى: ألتجئ إلى الله ﷻ، وألوذ بجنابه من الشيطان الذي أبعده الله وأخزاه؛ لأنه عدو له، وعدو لأولياء الله.

إذن؛ فاللياذ والالتجاء عمل قلبي يُعبِّر عنه اللسان، لا يكون إلاَّ بالله -تبارك وتعالى-؛ لأنه هو الذي يسهل الخير ويقدره، وهو الذي بيده التصرف المطلق في عالم

السَّماء وعالم الأرض: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

فمن التجأ إلى غير الله، واحتمى به، ولاذ بجنابه فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله ﷻ؛ فقد أشرك بالله شركًا أكبر يخرج من الملة.

❊ ❊ ❊

«والاستغاثة» [٥٧].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٥٧] **«الاستغاثة»**: والاستغاثة كسابقتها طلب الغوث، وطلب الغوث فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله ﷻ لا يجوز أن يصرف إلى سواه في جلب المصالح ودفع المضار التي لا يقدر عليها إلاَّ الله سبحانه كـ: شفاء المريض، ورد الغائب، وإنجاب الولد، وكشف الكربات، وإدرار الرزق، وإنزال المطر؛ إذ لا يُستَغاث في هذه الأمور إلاَّ بالله وحده، فإن استغاث أحد في شيء من هذه المسائل بغير الله؛ فقد كفر أو أشرك.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لأصحابه صبيحة ليلة: **«أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمَّا مَنْ قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته. فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأمَّا مَنْ قال: مُطرنا بنوء**[١] **كذا وكذا. فذلك كافر بي، مؤمن بالكواكب»**[٢].

---

(١) **قال الإمام الشافعي**: «مَنْ قَال: مُطرنا بنوء كذا وكذا. على ما كان عليه أهل الجاهلية، يعنون من إضافة المطر إلى أنه بنوء كذا؛ فذلك كفر، كما قال رسول الله ﷺ؛ لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا. ومَنْ قال: مُطرنا بنوء كذا. على معنى مُطرنا في وقت كذا؛ فلا يكون كفرًا، وغيره من الكلام أحب إليَّ منه». انظر: الأم (١/ ٢٥٢)، كراهية الاستمطار بالأنواء.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٣٢٦).

فإسناد النعم، وطلب الغوث من غير الله -تبارك وتعالى- من أعظم أنواع الشرك التي حَذَّرَ منها القرآن الكريم، والنبي ﷺ في صحيح سنته.

* * *

«**والذبح**» [٥٨].

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٥٨] «**الذبح**»: والمراد به: الذبح الذي يُذبح على سبيل القربة، ويدخل في ذلك كل دم يذبح للتقرب إلى الله ﷻ من هدي، وصدقة، ونذر .. وغير ذلك من الذبح المشروع، كله لا يجوز أن يتوجه به العبد إلاَّ لله وحده، فإذا ذبح لغير الله نذرًا أو قربة، يرجو من ورائها نجدة ذلك الغير في جلب مصلحة أو دفع ضر؛ فقد صَرَفَ هذه العبادة الفاضلة لغير الله ﷻ، وكان بذلك كافرًا مشركًا.

وأمَّا ما يتعلق بما يذبح عادة، أو يذبح ضيافة وتكريمًا لصديق أو قريب؛ فهذا لا محذور فيه إذا انتفت الموانع الشرعيَّة.

وقد أمر النبي ﷺ بإكرام الضيف في قوله: «**ومَنْ كَانَ يُؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه**»[١].

ومن جملة إكرام الضيف: الذبح له إكرامًا وإحياء للسنَّة، كما قص الله ﷻ عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات:٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٩٤)، ومسلم (١/ ٦٨)، (٧٤، ٧٥، ٧٧).

ولهذا يقول العلماء: إنَّ الواجب على القادر إذا نزل به ضيف أن يكرمه بذبيحة(١) إن كان قادرًا.

أمَّا ما كان نسكًا عبادة؛ فلا يجوز أن تصرف لغير الله، ومن صرفها لغير الله؛ فقد أشرك.

❊ ❊ ❊

«والنذر [٥٩] وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله».

الشرح

ومن أنواع العبادة:

[٥٩] «**النذر**»: بأي شيء كان، سَوَاء نذر بصوم، أو حج، أو اعتكاف، أو دراهم، أو أي شيء يكون؛ فهو عبادة لا يجوز صرفه لغير الله ﷻ، كأن يقول إنسان: نذرت لله -تبارك وتعالى- أن أصوم ثلاثة أيام تقربًا نذرًا مطلقًا، ليس مقيدًا؛ لأن النذر المقيد مكروه، قال فيه النبي ﷺ: «**إنَّ النذر لا يأتي بخير، إنما يُستَخرَج به من البخيل**»(٢).

وذلك كأن يقول: إن شفى الله مريضي؛ فلله عليَّ كذا، وإن تحصلت على كذا وكذا؛ فلله عَليَّ كذا من المال، أو كذا من الصوم، أو حج، أو عمرة، أو ما شاكل ذلك، فهذا هو الذي حَذَّرَ منه النبي ﷺ، وهو يعتبر نذرًا مقيدًا ألزم العبد به نفسه؛ فيأثم بعدم الوفاء به، فوجب عليه الوفاء وجوبًا.

والنذر المطلق: كأن ينذر من القربات لله -تبارك وتعالى- ليس لذلك سبب، كأن

(١) انظر: أضواء البيان (٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٢١١).

ينذر صيام ثلاثة أيام، أو ينذر مثلاً أن يذبح ذبيحة ويوزعها على الفقراء والمساكين، ليس لذلك باعث إلاَّ رَجَاء مغفرة الله ﷻ وفضله.

وهذه كأمثلة قدمها المؤلف -رحمه الله-، وكل ما كان مثلها حكمه حكمها من العبادات.

وبعد ذلك أتى بالأدلة مرتبة على هذه الأنواع ومنها:

*** *** ***

«**والدليل قوله تعالى:** ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾» [٦٠].

الشرح

[٦٠] قول الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]. أي: مواضع السجود وأعضاء السجود لله وحده؛ لأنه هو الذي انفرد بخلقها وتسويتها، وجعل القوى فيها، فلا تسجد هذه الأعضاء إلاَّ لله، لا لصنم، ولا لبشر، ولا لأي معبود من المعبودات الباطلة التي كان يعبدها أهل الشرك على اختلاف مللهم من وثنيين، ويهود، ونصارى، ومجوس .. وغير هؤلاء من أنواع المشركين.

*** *** ***

«**فمن صرف منها شيئًا لغير الله؛ فهو مشرك كافر، والدليل قوله تعالى:** ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾» [٦١].

الشرح

[٦١] ومن الأدلة قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

حكم الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية بالكفر على من يدعو مع الله إلهًا آخر -أي:

يعبد مع الله إلهًا آخر-؛ إذ لا معبود حق إلاَّ الله -تبارك وتعالى-.

وفي قوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾. هذا الوصف خرج مخرج الغالب.

بيان ذلك: أنه لا يوجد معبود يُعبد بحجَّة أو سلطان من كتاب أو سنَّة إلاَّ الله -تبارك وتعالى-، أمَّا سائر المعبودات المخترعة الباطلة المذمومة فإنه لا يقوم على عبادتها أي برهان من عقل أو نقل.

* * *

«وفي الحديث: «**الدعاء مخ العبادة**» [٦٢].

الشرح

[٦٢] وفي الحديث: «**الدعاء مخ العبادة**»(١). وهذا الحديث وإن كان في سنده ضعف، إلا أنه يشهد له حديث صحيح بمعناه، وهو قول النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(٢).

وأن الدعاء بنوعيه: دعاء العبادة، ودعاء المسألة هما أساس الدين وقاعدته، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في فضل الدعاء (٥/ ٤٢٥)، (٣٣٧١)، وانظر مشكاة المصابيح كتاب الدعوات (٢/ ٦٩٣)، (٢٢٣١)، وقال عنه الألباني -رحمه الله-: إسناده ضعيف، فيه ابن لهيعة وهو سيئ الحفظ.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٤٠٧).

«والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾» [٦٣].

الشرح

[٦٣] ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾: أمر صريح بالتوجه بدعاء العبادة ودعاء المسألة إلى الله وحده، فهو الذي أمر بالعبادة والدعاء، ووعد بالاستجابة، وهو لا يخلف الميعاد، بل هو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وهو من الإيمان بالله، والاستجابه له ولرسوله.

وحَذَّر من الاستكبار عن عبادته بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]. والوعيد الشديد فيه معنى النهي عن عبادة غير الله، والاستكبار عن عبادة الله، وكل مَنْ صَرَفَ شيئًا من أنواع العبادة لغير الله؛ فهو مستكبر ولا شك، وكل مَنْ ترك عبادة الله، سواء عبد غيره، أم لم يعبد غيره؛ فهو ممن يدخل تحت هذا الوعيد الشديد؛ علمًا أنه لا يوجد أحد يترك عبادة الله إلاَّ ويميل بعبادته إلى غير الله.

وقد لا يرى أنه يعبد الأصنام والأوثان، أو لا يرى أنه يعبد الشمس والقمر، ولكنه يعبد الهوى الذي تمكن من قلبه حتى صرفه عن عبادة الله.

❊ ❊ ❊

«ودليل الخوف قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾» [٦٤].

الشرح

[٦٤] وقال ﷻ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. تحذير لأهل الإيمان من أن يصل بهم الخوف من مخلوق يعتقدون بأنه يتصرف فيهم بإنزال الضر، أو صرف الخير عنهم؛ لأن هذا بيد الله -جل وعلا-.

❊ ❊ ❊

«**ودليل الرجاء قوله تعالى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. **وقوله:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

ودليل الرغبة والرهبة والخشوع قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

ودليل الخشية قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [المائدة:٣].

ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤].

ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. **وفي الحديث:** «**إذا استعنت؛ فاستعن بالله**».

ودليل الاستعاذة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق:١]، و: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١].

ودليل الاستغاثة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٩].

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]. **ومن السنَّة:** «لَعَنَ الله مَنْ ذبَحَ لغير الله».

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧] [٦٥].

الشرح

[٦٥] هذه النصوص دلت على وجوب إفراد الله ﷻ بتلك العبادات من: توكل، ورغبة، ورهبة، وخشوع، واستعانة، واستعاذة، واستغاثة، وذبح، ونذر، فمن صرف منها شيئًا لغير الله؛ فقد كفر أو أشرك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.

الدرس التاسع

«الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة» [٦٦].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

أما بعد:

فقد مضى معنا الحديث مُفصلاً على الأصل الأول من الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها، الذي هو معرفة الرب ﷻ، والإيمان بذاته وأسمائه وصفاته، وما يجب له من العبادة، وذكر شيء من أنواع العبادة مع أدلتها، والتي منها: الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنه: والدعاء، والخوف، والرجاء، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر .. وغير ذلك من أنواع العبادات التي كلف الله ﷻ بها المكلفين من عالم الإنس والجن.

وأما بيان الأصل الثاني من الأصول الثلاثة:

[٦٦] وهو «**معرفة دين الإسلام بأدلته من الكتاب والسنَّة**»: فدين الإسلام هو دين جميع المرسلين، من أولهم نوح ﷺ إلى خاتمهم محمد -عليه الصَّلاة والسَّلام-، كل رسول من الرسل، وكل نبي من الأنبياء جاء يدعو إلى دين الإسلام بمعناه الشرعي الذي هو الاستسلام، والانقياد لله بالطاعة، والخلوص له من الشرك.

ولم تختلف دعوة الرسل والأنبياء في هذا الأصل الأصيل، وهو دين الإسلام، دين العلم، والعمل به، والدعوة إليه، والصَّبر على الأذى فيه.

* * *

«وهو الاستسلام لله بالتوحيد [٦٧]، والانقياد له بالطاعة [٦٨]، والبراءة من الشرك وأهله» [٦٩].

الشرح

[٦٧] وقد عرفه المؤلف بقوله: «**هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله**».

وهذا تعريف شامل للإسلام بأنه استسلام، أي: خضوع وتذلل لمن يستحق الخضوع والتذلل: وهو الله ﷻ، الذي انفرد بالخلق، والرزق، والتدبير، والتصرف المطلق في جميع مخلوقاته، فله الحمد، وله الشكر، والثناء الحسن.

[٦٨] «**والانقياد بالطاعة**»: الذي يتجلى في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومتابعة رسله فيما جاءوا به من عند الله -تبارك وتعالى-.

وحيث إنه لا يتم ولاء إلاَّ ببراء، فإن من تمام التعريف بدين الإسلام:

[٦٩] «**البراءة من الشرك وأهله**»: فإذا وحدت الله -تبارك وتعالى- أيها المكلف؛ فعليك أن تتبرأ من الشرك والمشركين، الذين هم أعداء الله، وأعداء الرسل، وأعداء المؤمنين، لا تجوز محبتهم، ولا مودتهم، ولا نصرتهم على أحد من المسلمين، وإنما يجب بغضهم، وعداوتهم، والبراءة منهم؛ عَمَلاً بنصوص الكتاب، ونصوص صحيح سنَّة النبي ﷺ.

وبجانب ذلك لا يجوز الاعتداء عليهم، ولا الغدر بهم، ولا سفك دمائهم، إلا ما أذن فيه الشرع.

والدين كله مراتب ثلاث، وقد مضى التنويه على المراتب الثلاث، وأنها هي المنصوص عليها في حديث عمر بن الخطاب ﷺ في حديث جبريل ﷺ المشهور، الذي أتى إلى النبي ﷺ؛ ليعلم الأمة أمر دينها، فسأله عن أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وركن

الإحسان، والساعة، والنبي ﷺ يجيبه في كل ذلك بالجواب الشرعي، ولما انتهى قال النبي ﷺ لأصحابه: «**أتدرون من هذا؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**»[1]. يعني: لتسمعوا؛ فتعلموا؛ فتعملوا؛ فتنشروا العلم على طريقة الرسل والأنبياء.

ولهذا قال المصنف -رحمه الله- بعد تعريف الإسلام، قال:

❊ ❊ ❊

«**وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان**» [٧٠].

الشرح

[٧٠] «**وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان**»: أي أن الدين ثلاث مراتب: إسلام، وإيمان، وإحسان.

❊ ❊ ❊

«**وكل مرتبة لها أركان**» [٧١].

الشرح

[٧١] «**وكل مرتبة لها أركان**»: فأركان الإسلام خمسة، وأركان الإيمان ستة، وركن الإحسان واحد، وهذه قد مضى شرحها في درس سابق، إلاَّ أنه لا مانع من الإعادة المختصرة لكل ركن من الأركان التي قال فيها المؤلف:

❊ ❊ ❊

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٦).

«**فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا رسول الله**» [٧٢].

الشرح

[٧٢] «فأركان الإسلام خمسة: شهادة أن لا إله إلاَّ الله»: وسبق أن عرفنا أنَّ لشهادة أن لا إله إلاَّ الله أركانًا، وشروطًا، وحقوقًا، ومُكمِّلات، وهذا مُدوَّن فيما قد سبق، وعلى العموم فمعناها النفي والإثبات.

فجملة «**لا إله**»: تنفي جميع ما يُعبد من دون الله.

و«**إلا الله**»: تثبت العبادة لله وحده دون سواه.

وهي وشهادة «**أنَّ محمدًا رسول الله**» ركن واحد، وليست ركنين، وما ذلك إلاَّ لتلازم الشهادتين علمًا وعَمَلاً، فلا تقبل وتتم شهادة «أن لا إله إلاَّ الله» إلاَّ بشهادة «أنَّ محمدًا رسول الله»، ولا تقبل الثانية إلاَّ بالأولى.

ومن هنا فهما ركن واحد؛ إذ إنَّ من شهد «أن لا إله إلاَّ الله»؛ لزمه أن يشهد «أنَّ محمدًا رسول الله»؛ لأن الله هو الذي أرسله، وامتَنَّ برسالته على الأمَّة، ومن شهد «أنَّ محمدًا رسول الله»؛ لزمه أن يشهد «أن لا إله إلاَّ الله»؛ لأنَّ الله هو الذي أرسله، فصاحب الشهادتين آمن بالمرسِل، وآمن بالمرسَل.

* * *

«**وإقام الصَّلاة**» [٧٣].

الشرح

[٧٣] «**وإقام الصلاة**»: وهي الركن الثاني، والمراد بإقام الصلاة: الإتيان بها على الوجه المشروع بدءًا بطهارتها، ومرورًا بأركانها، وشروطها، وواجباتها، وبالكيفية التي

شرحها رسول الله ﷺ بقوله وفعله، وقال لنا: «**صَلُّوا كما رَأيتُمُوني أصَلِّي**»[1].

❊ ❊ ❊

«**وإيتاء الزكاة**» [٧٤].

الشرح

[٧٤] «**وإيتاء الزكاة**»: والمراد بإيتاء الزكاة: المال المخصوص من المال المخصوص من النقدين، وعروض التجارة، وبهيمة الأنعام، والخارج من الأرض لطائفة مخصوصة، ذكرهم الله ﷻ في سورة التوبة بقوله: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾ [التوبة:٦٠]. إلخ الآية التي تضمنت ذكر الأصناف الثمانية.

❊ ❊ ❊

«**وصوم رمضان**» [٧٥].

الشرح

[٧٥] «**وصوم رمضان**»: والمراد بالصوم: هو الشهر الذي فرض الله صيامه، وسنَّ النبي ﷺ قيامه، فرض صيامه من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، شهرًا في السَّنة، وكم من الأجر والفضل الذي رتبه الله -تبارك وتعالى- على صيامه، وأخبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «**مَنْ صَامَ رَمَضانَ إيمانًا واحتسابًا؛ غفر له ما تقَدَّمَ من ذنبه**»[2].

وأكرم الله الأمة فيه بليلة عبادتها خير من عبادة ألف شهر، وهي ليلة القدر، وهي من

---

(١) سبق تخريجه (ص١٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢٩)، ومسلم (١/ ٥٢٣).

خصائص أمَّة محمد ﷺ، الذين استجابوا لله والرسول إذا جَدوا واجتهدوا في رمضان -وبالأخص في العشر الأواخر منه-، وتجنبوا كبائر الإثم والفواحش، وتصدوا لهذه الفضيلة التي طوى الله ﷻ وقتها، بل أشار النبي ﷺ إلى ذلك إشارات، كقوله: «**التَمسُوهَا في العشر الأواخر**»[1].

وذكر ليلة إحدى وعشرين، وليلة ثلاث وعشرين، وليلة خمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين.

والسر في إخفائها -والله أعلم-: لتجتهد الأمَّة في الطاعة والعبادة في الشهر كله، لاسيما في العشر الأخيرة من الشهر؛ إتقانًا للصوم؛ واجتهادًا في القيام؛ وتفرغًا للعبادة وتلاوة للقرآن .. إلى غير ذلك من أنواع العبادات التي هي غذاء للأرواح، وحياة للقلوب، فمن وفق لهذه الليلة؛ فقد ظفر بعبادة ما يزيد على ثمانين سنة، فالحمد لله على عموم فضله وكثرة إحسانه.

❊ ❊ ❊

«**وحج بيت الله الحرام**» [٧٦].

الشرح

[٧٦] «**وحج بيت الله الحرام**»: وأمَّا الحج فقد فرضه الله ﷻ، وجعله ركنًا من أركان إسلامنا، وقيَّد فرضيته بالاستطاعة، والمستطيع هو الذي يملك زادًا، وراحلة، وتأمينًا لمن وراءه، وظفر بأمن الطريق؛ فهو المستطيع، لا يجوز له أن يُسَوِّفَ أو يُؤَجِّلَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٦٤)، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**التَمسُوهَا في العشر الأواخر من رَمضَان، ليلة القدر في تاسعة تبقى، في سابعة، تبقى في خامسة تبقى**». ومسلم (٢/ ٨٢٣).

وإنما يُبادر ويُسَارع؛ لأنه لا يعلم ما في المستقبل من العوائق.

والعلماء يختلفون في فرض الحج: هل هو على الفور، أو التراخي؟

والذي عليه جمهور أهل العلم(١) بـ: أنه على الفور، بمعنى: أنك متى استطعت وتمكنت؛ لا يجوز لك أن تؤجله، ولا يجوز لك أن تماطل، اللهم إلاَّ من عُذر، غير أنه لا يلزم من تَعَمُّد التأخير عدم القبول إذا أتى به في حياته.

وبعد أن ذكر المؤلف -رحمه الله- أركان الإسلام الخمسة؛ ذكر أدلة كل ركن من أركانها؛ لأنَّ اسم الكتاب: «**الثلاثه الأصول وأدلتها**» قال هنا:

❊ ❊ ❊

«**فدليل الشهادة: قوله تعالى**: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [٧٧].

الشرح

[٧٧] فدليل الشهادة -يعني: شهادة أن لا إله إلاَّ الله- قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]. وهي أعظم شهادة وأجلها؛ لأنها شهادة من الله لله على توحيده.

❊ **والجملة تؤدي معنى «لا إله إلاَّ الله»**: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

- **فالأولى**: تنفي جميع ما يعبد من دون الله.
- **والجملة الأخيرة**: ﴿إِلَّا هُوَ﴾. بمعنى: «إلاَّ الله» تثبت جميع العبادة لله وحده دون سواه.

---

(١) كالإمام أحمد، وأصحاب أبي حنيفة، والمزني، ومالك في الراجح عنه. انظر الموسوعة الفقهية (١٧/ ٢٤)، والأفنان الندية للشارح (٣/ ٢٠٤).

وشهد بهذه الشهادة تأسيًا بالله ﷻ وطاعة له: الملائكة الكرام، شهدوا كلهم بـ: «أن الله لا إله إلاَّ هو»، فهو الذي يجب أن يُعبَد وحده، ويُطاع وحده، ويُشكَر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وهذه منقبة عظيمة لملائكة الله الكرام؛ لأن الله قرن شهادتهم بشهادته مباشرة، وأشركهم في هذا الفضل.

والملائكة -كما سبق معنا- عالم من جملة العوالم، خلقهم الله -تبارك وتعالى- من نور، وجبلهم على طاعته، فلا سبيل لهم إلى المعصية أبدًا، وجعلهم على أعمال لا يقوم بها سواهم، جاءت مُوضَّحَة في نصوص الكتاب والسنَّة.

وأثنى الله ﷻ عليهم في آيات كريمات، وبين النبي ﷺ فضلهم كذلك، فقال الله في حقهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وهكذا ذكرهم بقوله: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ [فصلت:٣٨]. يعني: الملائكة.

وهكذا وصفهم الله بطول القنوت وحسن الطاعة، فقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]. لا يملون، ولا يقصرون.

وأثنى الله ﷻ عليهم لنصحهم لعباد الله المؤمنين، حيث يستغفرون لهم وهم لا يشعرون، ولكنهم يعلمون، ويعتقدون، ويبتغون من الله -تبارك وتعالى- لهم الفوز العظيم بجنات النعيم، كما في سورة «غافر» في مطلعها؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر:٧].

ولما ذكر الاستغفار ذكر كيفيته: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾. قائلين: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [غافر:٧-٩]. أي: عقوبات [illegible]
ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر:٩].

وذلك منهم استرسال في الدعاء، وإلحاح فيه؛ رحمة بأهل الإيمان الذين قد يعثرون في الخطأ، ويقعون في المعصية، ولكنهم يتوبون ويرجعون إلى ربِّهم نادمين، فهم يستغفرون الله، والملائكة الكرام يستغفرون لهم، والله -تبارك وتعالى- هو الغفور الرحيم.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾: وشهد أولو العلم أنَّ الله لا إله إلاَّ هو، وهذه أيضًا منقبة من المناقب العظيمة للعلماء ولطلاب العلم على العُمُوم علماء ومتعلمون، منقبة شريفة ومنزلة عالية رفيعة؛ لأنَّ الله سبحانه قَرَن شهادتهم بشهادة ملائكته، والمعطوفة على شهادته ﷻ، فلو علم الناس ما في العلم من الفضل والشرف والخير الدنيوي والبرزخي والأخروي؛ لتسابقوا إليه، وتنافسوا في تحصيله، وسلكوا طريقه، ما دامت الروح في الجسد، وليس لذلك منتهى حتى يأتي اليقين.

والمراد بـ: «**أولي العلم**»: أي: أهل العلم الشرعي، هذه الشهادة التي شهد الله بها لنفسه، وشهد بها الملائكة الكرام، وشهد بها أولو العلم بكتاب الله وسنَّة نبيه ﷺ: أنه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ثم بيَّن المؤلف المعنى باختصار، فقال:

❊ ❊ ❊

«ومعناه: لا معبود بحق إلاَّ الله، (لا إله): نافيًا جميع ما يُعبد من دون الله. (إلاَّ الله): مثبتًا العبادة لله وحده، لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه» [٧٨].

الشرح

[٧٨] **ومعناه** -معنى الشهادة-: «**لا معبود بحق إلا الله**».

فـ «**لا إله**»: نافيًا جميع ما يُعبَد من دون الله.

و«**إلاَّ الله**»: مثبتًا العبادة لله وحده، لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه.

نعم، لا يستطيع أَحَدٌ أن يدَّعي بأنه شريك لله في الخلق، أو في الرزق، أو في الإحياء، أو الإماتة .. ونحو ذلك مما لا يقدر عليه إلاَّ الله -تبارك وتعالى-؛ لأنه لو ادَّعى مُستكبر بأنه شريك لله ﷻ في الخلق، أو الرزق، أو الإحياء، أو الإماتة؛ لطلب منه أن يظهر تصرفه، أو أن يفعل ما ادعاه، وأنَّى له ذلك؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].

أي: لو اجتمعوا أن يخلقوا ذبابًا ما استطاعوا، وأسهل من ذلك أن الذباب لو سلبهم شيئًا، أو مسهم بأذى، وارتفع محلقًا في الأجواء؛ ما استطاعت الأيدي أن تصل إليه، وهذا يدل على ضعف الإنسان البشري، وأنَّ الله ﷻ على كل شيء قدير.

ولهذا ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾. أي: ضعف الرَّجُل الذي يطلب من الصَّنم المعبود شيئًا من المنافع أو دفع المضار.

فالمراد بـ «**ضعف الطالب**»: هو المخلوق. و«**المطلوب**»: هو الصنم.

أو المراد «**الطالب**»: هو الآدمي. و «**المطلوب**»: هو الذباب الطائر؛ إذ كلاهما ضعيف.

❊ ❊ ❊

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٧٩].

الشرح

[٧٩] وتفسير هذه الشهادة الذي يُوضحها ما قصَّه الله ﷻ عن خليله إبراهيم عليه السلام،

حيث أعلن لقومه، وفي مقدمتهم أبوه الضال، الذي رفض أن يستجيب لدعوة الحق، رغم ما بذل ابنه من النصائح اللطيفة التي تحمل الأدب وحسن الدعوة، كما قصَّ الله ﷻ ذلك علينا في القرآن: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٤١-٤٢]. واسترسل في النصيحة، ولكن حَقَّتْ على أبيه كلمة العذاب، فلم يستفد من دعوة ابنه البار شيئًا، حتى مات -والعياذ بالله- على الكفر، وقصَّ الله خبر مفتاح دعوة إبراهيم الخليل ﷺ بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾. فقد أخبر عن عبده وخليله إمام الحنفاء أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان.

ومن هنا نفهم أنه لا ولاء إلاَّ ببراء، وأعني به: الولاء والبراء الشرعيين اللذين جاء ذكرهما في نصوص الكتاب وصحيح السنَّة، فمن ادَّعَى التوحيد، ولم يتبرأ من المشركين، ولم يبغضهم ويبغض معبوداتهم وعقائدهم؛ فما تم توحيده، وقد أجمع أهل العلم على أن الكلمة هي: «لا إله إلاَّ الله»، وقد عبر عنها الخليل ﷺ بمعناها الذي أريد بها، فعبر عن المنفي بها بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾. وعبر عما أثبته بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾. فقصر العبادة على الله وحده، ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك، فما أحسن التفسير لهذه الكلمة، وما أعظمه.

ألا وإن تحقيق الشهادة، والبراءة من الشرك وأهله بقيت في ذرية إبراهيم مفطورون عليها، إلاَّ من انحرف، فإنه عدل عن الفطرة التي قال الله ﷻ في شأنها: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم:٣٠].

والتي قال النبي ﷺ في حقها: «**كُلُّ مولود يُولَدُ على الفطرة، فأبواه يُهوِّدَانه، أو يُنصِّرَانه، أو يُمجِّسَانه**»[1].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٤٢٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧).

«**وقوله تعالى**: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾» [٨٠].

الشرح

[٨٠] ومن جملة الأدلة على تحقيق شهادة «أن لا إله إلاَّ الله»، والبراءة من الشرك والمشركين: قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وهذا الخطاب للنبي ﷺ أمره الله أن يوجهه إلى اليهود والنصارى؛ لأنهم هم أهل الكتاب: التوراة، والإنجيل؛ ولأنهم يَدَّعُونَ بأنهم أهل رسالة وأهل عبادات، فأخبرهم النبي ﷺ بأنه رسول الله إلى الناس جميعًا، فيدخل في ذلك أهل الكتاب، غير أنهم امتنعوا من الإيمان برسالة النبي ﷺ.

ومن جملة عرض النبي ﷺ دعوته الكريمة عليهم ما قصَّه الله بقوله: ﴿تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا﴾. ثمَّ فُسِّرت هذه الكلمة بقوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾. هذه الكلمة هي التي بمعنى «لا إله إلاَّ الله».

وأخبره الله -تبارك وتعالى- في خاتمة الآية عند إعراض القوم واستكبارهم عن الإيمان برسالته التي تدعو إلى توحيد الله، وتحذر من الإشراك به، فإن أعرضوا يا محمد؛ فقل أنت وأصحابك: ﴿ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. أي: منقادون لأمر الله ﷻ، نفرده بالعبادة، وفي مقدمتها: توحيد رب العالمين، والبراءة من الشرك والمشركين.

* * *

«ودليل **شهادة (أنَّ محمدًا رسول الله) قوله تعالى:** ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾» [٨١].

الشرح

[٨١] وأتبع المصنف شهادة «أن لا إله إلاَّ الله» وأدلتها بالدليل على شهادة «أنَّ محمدًا رسول الله»، أي: الدليل الذي يثبت أنَّ محمدًا رسول الله حقًّا وصدقًا، لا شك في رسالته، فقال: «ودليل شهادة (أنَّ محمدًا رسول الله) قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]».

فأثبت الله ﷻ رسالة نبيه محمد ﷺ التي أنكرها اليهود والنصارى، وادَّعَوا بأنها إنما هي رسالة للعرب، أمَّا هم فليسوا من أهلها، وليسوا معنيين بها؛ لأنَّ رسالتهم رسالة كبرى كما يَدَّعُونَ.

فبيَّن الله ﷻ منزلة رسوله -عليه الصَّلاة والسَّلام- بأنه رسول، حيث قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾. والتنكير لهذه الكلمة يدل على التشريف والتعظيم، أي: رسول عظيم القدر، هو من أنفسكم، تعرفون نسبه وحسبه وصدقه وأمانته في الجاهلية والإسلام، وكان يسمى «الأمين» قبل إرساله وبعثته، ويضعون عنده الودائع لأمانته وصدقه، وكان مُطاعًا فيهم.

حتى جاء الحق الذي أنقذهم الله به، والذي فيه ما ينقلهم من باطلهم وضلالتهم وبدعهم -وفي مقدمتها الشرك بالله ﷻ -، وعندئذ أنكروا ما كانوا يعرفون من النبي ﷺ من الصِّدق والأمانة والوفاء، وغير ذلك من مكارم الأخلاق، فقالوا بعد ذلك: ساحر. وقالوا: مجنون. وقالوا: كاهن. وقالوا: يفتري الكذب .. إلى غير ذلك من الأقاويل الباطلة التي نَزَّهَ الله عنها رسوله -عليه الصَّلاة والسَّلام-، وزكاه في آيات متعددات:

منها: قول الله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ﴾ يعني: يشق عليه ما يعنتكم ويشق عليكم، ويحب لكم كل فرج ومخرج، وحريص عليكم لتهتدوا.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. صاحب رأفة ورحمة بأهل الإيمان؛ لأنهم استجابوا لله ولرسوله -عليه الصَّلاة والسَّلام-.

أمَّا أعداء الله الكفار على اختلاف مللهم من: يهود، ونصارى، ووثنيين، وملحدين ومنافقين، فهؤلاء أمره الله -تبارك وتعالى- أن يكون مُبغضًا لهم، وصاحب غلظة عليهم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣].

وزكاه ﷻ بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم:١-٥].. إلخ الآيات في هذا المعنى.

«ومعنى شهادة (أن محمدًا رسول الله): طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألاَّ يعبد الله إلاَّ بما شرع» [٨٢].

الشرح

[٨٢] وهذه الشهادة -شهادة: أنَّ محمدًا رسول الله- لها شروط ذكرها العلماء.

*** من معناها:**

١- طاعة النبي ﷺ فيما أمر.

٢- تصديقه فيما أخبر.

٣- اجتناب ما عنه نهى وزجر.

٤- ألاَّ يعبد الله إلاَّ بما شرع رسول الله ﷺ، فهو الطريق لها، لا طريق إلى مرضاة الله غيره، والله أعلم.

الدرس العاشر

«ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾» [٨٣].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

أما بعد:

فقد مضى معنا جملة من الأدلة على الأصل الثاني من الأصول الثلاثة: «**الذي هو معرفة دين الإسلام**»، كما مضى معنا تفصيل أركان الإسلام وأدلة الشهادتين، ثم واصل المؤلف الاستدلال على ثبوت هذه الأركان، فقال:

[٨٣] «**ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قوله تعالى:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾» [البينة:٥]. وهذه الآية الكريمة ذكر الله ﷻ فيها دليل التوحيد، ودليل الصَّلاة، ودليل الزكاة، وذكر وجوب الإخلاص في جميع الأعمال -أقوالها وأفعالها، ظاهرها وباطنها-.

ففي قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾. أي: ما أُمِرَت الخليقة إلاَّ ليُوحِّدُوا الله، ويتقربوا إليه بكل عبادة مالية أو بدنية، مستصحبين الإخلاص في ذلك؛ إذ إنَّ الإخلاص ركن من أركان قبول الأعمال، فإذا كان العمل غير خالص لله ﷻ؛ فهو غير مقبول، وإذا كان العَمَل غير صَوَاب؛ فهو غير مقبول، وإذا كان العَمَل صادرًا عن سيئ الاعتقاد؛ فهو غير مقبول أيضًا كذلك.

وأمرهم الله ﷻ أن يكونوا ﴿حُنَفَآءَ﴾، بمعنى: مائلين عن الشرك وضروبه -كبيره وصغيره-، مقبلين على التوحيد بجميع أنواعه وحقوقه ومكمِّلاته، مقيمين لصلواتهم بما تحمل كلمة الإقامة من معنى.

ومؤدين زكاة أموالهم مما يملكون من الأصناف التي تجب فيها الزكاة، بشروطها وضوابطها التي جاءت في الكتاب والسنَّة.

وختم الله ﷻ هذه الآية الكريمة من سورة البينة بقوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾. أي: من وحَّدَ الله -تبارك وتعالى- وعبده على سبيل الصَّواب والإخلاص، وكان مائلًا عن الشرك، مقبلًا على التوحيد، مقيمًا لصلاته، مؤديًا لزكاته؛ فقد أقام الدين الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- في قوله: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

وذكره الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

وألزم الله به العباد في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

ثم قال المؤلف -رحمه الله-:

* * *

«**ودليل الصيام قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾» [٨٤].

الشرح

[٨٤] ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]. وهو دليل صريح على فرض صيام شهر رمضان الذي فرضه الله -تبارك وتعالى- على أمَّة محمد ﷺ على صفة مخصوصة،

ذكرها الله ﷻ في كتابه، وذكرها النبي ﷺ في سنته.

ذكرها الله في كتابه -أي: ذكر بداية الصوم ونهايته- حيث قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ﴾ [البقرة:١٨٧]. فهذه المدة الزمنية التي أمر الله -تبارك وتعالى- أن تصام، وأن يمسك فيها المسلمون والمسلمات عن المفطرات في هذا الشهر العظيم الذي فرضه الله على الأمّة المسلمة في عامها؛ ليكون تطهيرًا لنفوسهم؛ وتزكية لجوارحهم؛ وإحياءً لقلوبهم؛ وتكثيرًا لحسناتهم؛ وتقليلاً لسيئاتهم، فكله خير، وكله صلاح وفلاح.

رحمة بهذه الأمة الضعيفة التي قصرت أعمارها، وكثرت أشغالها، فناداهم الله ﷻ في هذه الآية بوصف الإيمان وهو أشرف الأسماء بالنسبة للمخاطبين، وأشرف من النداء بـ: «يا أيها الناس، أو المسلمون»؛ لأن للإيمان معنى أعظم من معنى الإسلام، وأعظم مما دل عليه كلمة الناس التي يشترك فيها البر والفاجر، والمسلم والكافر، وهذا من حسن أساليب القرآن، ومن لطف الله -تبارك وتعالى- بعباده المؤمنين في دعوته لهم؛ ليمتثلوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه، شرفهم بهذا اللقب، وأتبعه بذكر فرض الصيام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾. وكتابة الصيام فرضيته على سبيل الوجوب.

وفي قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. دليل على أن فريضة الصِّيام ليست من خصائص أمة محمد ﷺ، بل هي فريضة فرضت على كل أمة من الأمم؛ ولهذا قال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: من الأمم، فأصل فريضة الصيام مكتوبة ومفروضة على الأمم السابقة عبر تأريخها.

* * *

«**ودليل الحج قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾» [٨٥].

الشرح

[٨٥] ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. والآية دليل واضح على فريضة الحج، ولكن فرضيته مقيدة بالاستطاعة، فمن لم يكن مستطيعًا؛ فلا يجب عليه حج ولا عمرة.

والاستطاعة -كما أسلفنا في حديث مضى(1)-: أن يجد المكلف زادًا وراحلة، ذهابًا وإيابًا، وإن لم يجد أيضًا راحلة، وكان متمكنًا وقادرًا على المشي لقرب المكان؛ فإنه أيضًا يجب عليه، وهكذا أيضًا يشترط أمن الطريق بحيث يأمن على نفسه، ويأمن على ماله، فلا يناله أحد بسوء، ومثل ذلك كفاية من يقول حتى يعود.

وختم الله -تبارك وتعالى- الآية بحكم كفر من جَحَدَ فرضًا من فرائض الله وأنكره، ولم يؤمن به، كمن ينكر فرض الحج وغيره من الفرائض؛ فإنه يكون بذلك كافرًا، ومن كفر فإن ضرر كفره على نفسه، كما قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [لقمان:٢٣]. وهنا قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]. وهم فقراء إليه.

وبهذه الأدلة ينتهي البحث في المرتبة الأولى التي هي الإسلام بجميع أركانه مُرَتَّبة، وقد أتبع المؤلف هذه المرتبة بالمرتبة الثانية، وهي:



(١) في (ص ١٣٨).

«المرتبة الثانية: الإيمان» [٨٦].

الشرح

[٨٦] مرتبة الإيمان: والإيمان قد انقسم الناس في حقيقته إلى أصناف متعددة:

أ- **الصنف الأول:** الجهميَّة: عرفوه بتعريف مرذول غير مقبول -لأنه يتضمن دخول إبليس -لعنه الله- في جملة المؤمنين- بـ: «أنه هو المعرفة بالقلب فقط»، وهذا تعريف غير صحيح، بل هو باطل وفاسد كما سيأتي تعريفه الصحيح عند أهل السنة والجماعة سابقًا ولاحقًا.

ب- **وعرفته فرقة ثانية من فرق الابتداع -وهم الكرامية[(١)]- فقالوا:** «إنَّ الإيمان هو النطق باللسان فقط». أي: عندهم إذا قال الإنسان بلسانه: آمنت بالله، أو شهد الشهادتين؛ فهو مؤمن ولو لم يعمل الأعمال التي فرضها الله، وأوجبها عليه، ولم يجتنب المحرمات التي حرمها الله عليه بدون عذر له في ذلك، فهو عندهم مؤمن كامل الإيمان!!! وهذا تعريف فاسد؛ لأنه يتضمن دخول المنافقين في جملة المؤمنين، وهم في الدَّرك الأسفل من النار.

ج- **وعرفته المعتزلة والخوارج بـ:** «أنه قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، ولكن لا يزيد، ولا ينقص».

---

(١) **الكرَّامية:** هم أصحاب أبي عبد الله بن محمد بن كَرَّام السجستاني المبتدع، شيخ الكرامية ومصنف كتبهم، لهم ضلالات كثيرة، منها قولهم: «الإيمان هو القول باللسان دون المعرفة بالقلب»، فمن نطق بلسانه، ولم يعترف بقلبه؛ فهو مؤمن، وزعموا أن المنافقين كانوا مؤمنين بالحقيقة، وهذا خلاف قول الله تعالى؛ إذ يقول وقوله الحق: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١-٢]. انظر: الملل والنحل (١/ ٩٩)، وعقائد الثلاث والسبعين فرقة (١/ ٢٧٥)، والفرق (٢١٥).

وهذا التعريف وإن كان كاد أن يقرب من تعريف أهل السنَّة والجماعة للإيمان؛ إلا أنه أيضًا تعريف ناقص، ومن ثَمَّ لا يُعتبر ولا يُؤخذ به؛ لفساده ومخالفته لمذهب أهل السنَّة والجماعة السَّلف الصَّالح.

د- **وعَرَّفه بعضهم** بـ: «أنه قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وفَصَلُوا عنه العمل»، وهذا التعريف لا شك في بطلانه؛ لأن الأعمال داخلة في مُسَمَّى الإيمان.

هـ- **وعرَّفه أهل السنَّة -السَّلف وأتباعهم-** بـ: «أنه نطق باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي»، وهذا هو الحق، فأولئك الذين هدى الله فقل بقولهم، والتزم بمنهجهم، فإن معهم الأدلة الصَّحيحَة الصَّريحة من الكتاب والسنَّة.

كما في قول الله ﷻ في وصف أهل الإيمان: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وكما في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد:١٧].

وكم لها من نظائر، وكلها تدل على زيادة الإيمان بالطاعة، كما أخبر النبي ﷺ عن نقصان الإيمان بقوله: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولايسرق السَّارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ...**»[1]. إلخ الحديث الذي يدل على أن الإيمان ينقص بارتكاب المعاصي واجتراح السيئات.

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٥٢)، ومسلم (١/ ٧٦).

قال البغوي: «وقيل: معناه نقصان الإيمان، يريد: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن مستكمل الإيمان، بل هو قبل أن يقدم على الفجور، وبعد ما نزع منه وتاب أكمل إيمانًا منه حالة اشتغاله بالفجور، وهو كقوله: «لا إيمان لمن لا أمانة له». يريد: لا إيمان له كاملاً، والله أعلم». شرح السنَّة البغوي بتصرف (١/ ٩٠) (٤٧).

وافترقت المعتزلة والخوارج الذين عرفوا الإيمان بما رأيت وسمعت في حكم مرتكب الكبيرة:

فقالت المعتزلة: «مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين -أي: بين الإسلام والكفر- فلا يكون كافرًا، ولا يكون مؤمنًا».

وقالت الخوارج في مرتكب الكبيرة: إنه كافر، حلال الدم والمال والعرض في الدنيا، ومخلد في النار في الآخرة».

وهذا قول على الله بدون علم ما لم تكن الكبيرة شركًا أكبر، أو كفرًا أكبر، أو نفاقًا اعتقاديًّا، والمعتزلة توافق الخوارج في الحكم الأخروي، وهو أن مرتكب الكبيرة وإن كان موحدًا؛ فإنه خالد مخلد في النار إذا مات ولم يتب.

وهذا الحكم الجائر ترده نصوص الكتاب والسنَّة، والتي تقتضي بأن من مات وهو يعلم أنه «لا إله إلاَّ الله»، قائمًا بحقها علمًا وعملاً؛ دخل الجنَّة، وإن عذبه الله -تبارك وتعالى- بقدر ما جنى من كبائر الذنوب، إلاَّ أنَّ مآله إلى الجنَّة، ولا شك في ذلك ولا ريب.

هذا هو مذهب أهل السنَّة والجماعة[1] حيث جمعوا بين نصوص الوعد والوعيد.

و- **وعرف بعض الفقهاء الإيمان** بـ: «أنه اعتقاد بالقلب، وقول باللسان»، واختزلوا الركن الثالث وهو العمل، فلم يدخلوه في مُسَمَّى الإيمان، مع اتفاقهم مع أهل السنَّة والجماعة على أنَّ أهل الكبائر متوعدون بالنار، وأن المكلفين مجزيون على أعمالهم خيرها وشرها، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

وبهذا العرض يظهر جليًّا بطلان تعريف الطوائف التي عرفت الإيمان بتعريفات خاطئة ناقصة، على اختلاف مراتبهم قربًا وبعدًا من الصَّواب.

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية (٤٥٩)، والموسوعة الفقهية (٧/ ٣١٥).

وظهر جليًا التعريف الحق للإيمان الذي نحن بصدد شرح أركانه، وهو تعريف أهل السنَّة والجماعة له بأنه قول باللسان كالنطق بالشهادتين والنطق بالإيمان، ويدخل في ذلك جميع الإقرار بالواجبات والفرائض، وجميع أنواع الذكر الواجب والمستحب، وأن الإيمان اعتقاد بالقلب؛ لأن الحقَّ ما نطق به اللسان، واتفق معه القلب، وعملت به الجوارح مما جَاءَ به من أُنزل عليه الفرقان، وأنه يزيد وينقص، يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي، والأدلة على ذلك قائمة كما مضى مَعنا قريبًا، والله أعلم وأحكم.

وشرع المؤلف -رحمه الله- في بيان المرتبة الثانية من مراتب الدِّين التي هي مرتبة الإيمان، وذكر بأنه شعب مُتعَدِّدة حيث قال:

❊ ❊ ❊

«وهو بضع وسبعون شعبة [٨٧] فأعلاها قول: لا إله إلا الله [٨٨] وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» [٨٩].

[٨٧] «**وهو بضع وسبعون شعبة**»: والبضع: من الثلاثة إلى التسعة، وأنَّ هذه الشُّعَب لكل منها معنى من المعاني، ومدلول من المدلولات الشرعيَّة، وأنَّ لها أعلى، ولها أدنى، ولما كانت كلمة «لا إله إلاَّ الله» أصدق الأقوال، وأزكى الأعمال الظاهرة والباطنة؛ قال:

[٨٨] «**فأعلاها قول: لا إله إلا الله**»: بما تحمل هذه الكلمة العظيمة من معنى.

[٨٩] «**وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»: مما يدل على أن بين الأعلى والأدنى شُعبًا مُتعَدِّدَة متنوعة كـ: الصَّلاة، والزكاة، والصَّوم، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وبذل النصيحة، وعمل الخير على اختلاف أنواعه وشتى طرقه، حتى إن من جملة الأعمال الزكيَّة التي تعتبر من شُعَب الإيمان: أن تميط عن

الطريق أذى؛ لتساهم في دفع الأذى عن إخوانك المسلمين؛ ولتبرهن أنك تَهتَمُّ بشأنهم.

ثم ذكر المؤلف -رحمه الله- أن من الإيمان:

* * *

«والحياء شعبة من الإيمان» [٩٠].

الشرح

[٩٠] الحياء: والمراد به الحياء الشرعي، وليس المراد به الذي يجر إلى الحرمان من العلم والخير، وإنما هو الحياء الشرعي الذي كان النبي ﷺ يتصف به، وهو الاستحياء من مواجهة الناس بالشر، والاستحياء أيضًا مما لا يحب الإنسان أن يُظهر عليه غيره.

وأعظم الاستحياء الشرعي: هو الاستحياء من الله -تبارك وتعالى-، والاستحياء من الله يجر إلى خير الأعمال وأزكاها، كما يجر أيضًا إلى الابتعاد عن معاصي الله التي تسخطه، كما يجر أيضًا إلى تذكر الموت، وما بعد الموت من الجزاء على الأعمال في دار البرزخ ودار الآخرة، هذا هو الاستحياء الشرعي، وهو من الإيمان ولا شك.

وقد ثبت أن النبي ﷺ مَرَّ برجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال له: «**دَعْهُ فإنَّ الحياء من الإيمان**»(١).

ومعنى الحديث: أنه يعظ أخاه في الحياء، فهو يريد منه أن يكون بغير هذا الوضع، بحيث يخشى عليه أن يجره هذا الاستحياء إلى الحرمان من حظوظ النفس، أو أشياء مُهمَّة، فأخبره النبي -عليه الصَّلاة والسَّلام- أن الحياء لا يأتي إلاَّ بخير، ولا يجر إلاَّ إلى خير.

ثم ذكر المؤلف -رحمه الله-:

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٤) ومسلم (١/ ٦٣).

«وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره [٩١].

والدليل على هذه الأركان الستة: قوله تعالى: ﴿۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾» [٩٢].

الشرح

[٩١] أركان الإيمان الستة التي مضى معنا التعريف بكل ركن من أركانها في درس سبق(١)، وهي علي سبيل الاجمال: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى.

وذكر المؤلف الدليل على هذه الأركان الستة حيث قال:

[٩٢] والدليل على هذه الأركان الستة: قوله تعالى: ﴿ ۞لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

*** فقد وصف الله أهل الإيمان والبر والتقوى في هذه الآية العظيمة بثمان صفات التي هي:**

١ - **الإيمان بالله**: الذي يشمل الإيمان بوجوده، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته.

---

(١) وهو الدرس السابع.

٢- **الإيمان باليوم الآخر**: وهو يوم القيامة الذي لا يوم بعده، وما يكون فيه مما ذكره الله ﷻ ورسوله ﷺ.

٣- **الإيمان بالملائكة**: وهم عالم غيبي، خلقهم الله من نور، وجبلهم على طاعته -كما سَبَق بَيَان ذلك-.

٤- **الإيمان بالكتاب**: والمراد به الكتب المنزلة من الله على الرسل المرسَلة.

٥- **الإيمان بجميع الأنبياء والرسل**: من ذُكِرَت لنا أسماؤهم، ومَنْ لم تذكر.

٦- **بذل النفقات الواجبة والمستحبة لمستحقيها**: رجاء ثواب الله.

٧- **الوفاء بالعهود والعقود المبرمة بين الناس**: المتفقة مع الشرع الكريم.

٨- **الصبر بجميع أنواعه**: ابتغاء مرضاة الله.

* * *

«ودليل القدر: وهو قوله ﷻ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾» [٩٣].

الشرح

[٩٣] وذكر دليل القدر، وهو قوله ﷻ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر:٤٩].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم ..

* * * * *

الدرس الحادي عشر

«المرتبة الثالثة: الإحسان ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [٩٤].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

مضى معنا في الدروس السابقة الكلام على المرتبة الأولى والمرتبة الثانية من مراتب الدين، وعرفنا أن المراد بالمرتبة الأولى: الإسلام بجميع أركانه الخمسة، والمراد بالمرتبة الثانية: الإيمان بجميع أركانه الستة.

وهذه هي المرتبة الثالثة وهي الإحسان، وبها تكتمل مراتب الدين؛ إذ هي: إسلام، وإيمان، وإحسان -كما علمت-، وكل مرتبة من هذه المراتب لها أركانها، وقد مضى الحديث على أركان الإسلام وأركان الإيمان بشيء من التفصيل، فلا نعيد ذلك.

* **وموضوع درسنا المرتبة الثالثة من مراتب الدين وهي:**

[٩٤] **الإحسان: ومعنى الإحسان:** هو فعل ما كان حَسَنًا شرعًا وعقلاً؛ لأنه ضد الإساءة، وقد أَحَبَّ الله الإحسان والمحسنين، وكره الإساءة في شأن الدُّنيا والدِّين، وكره المسيئين؛ لأن الإحسان خير، وفاعله فاعل خير، والإساءة شر يُفضي بصاحبه إلى سوء العاقبة وشر المنقلب.

والإحسان قد فسَّره النبي ﷺ تفسيرًا عَامًّا شاملاً كاملاً بقوله في حديث جبريل عليه السلام المشهور: «**والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك**»[١]. هكذا في

(١) سبق تخريجه (ص١٠٦).

جنتين قصيرتين، وكم تحت هاتين الجملتين من معانٍ.

* غير أنَّ الإحسان له مقامان، أحدهما أرفع من الآخر:

- **أما المقام الأعلى**: فهو عبادة العبد ربه كأنه يشاهده، وهذا مقام رفيع تشتاق النفوس فيه إلى خالقها وبارئها الذي كلفها بعبادته، ووعدها على العبادة أتم الجزاء وأوفاه في دار الكرامة التي كتب الله لها ولأهلها البقاء الدائم السَّرمدي، فهي من الغايات، والوصول إليها من مطالب النفوس المطمئنة؛ لأن العبد سينال فيها أعلى أنواع النعيم - وما في نعيمها دنيء -، وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم، والرضا الدائم من الرَّبِّ الرحيم، ثم ما ذكر الله فيها من مآكل، ومشارب، ومناكح، ومراكب، وملك كبير، وعيشة راضية .. إلى غير ذلك مما لم تسمع به الأذن، ولم يخطر على قلب بشر.

فَمَنْ عَبَدَ الله على استحضار قربه منه، وإقباله عليه، وأنه بين يديه كأنه يراه؛ أوجب له ذلك: الخشية، والخوف، والهيبة، والتعظيم، والخوف، والرَّجَاء.

أَمَّا المقام الثاني: فهو عبادة العبد ربه خوفًا منه، ووَجَلاً وهربًا من أليم عذابه، وطمعًا في نيل ثوابه، كما أمرنا الله ﷻ بذلك في قوله: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ [الذاريات:٥٠]. والفرار من الله إليه وحده، وهو بفعل الطاعة وترك المعصية، وفعل الخير وترك الشر.

إذن؛ هذا المقام أن يعبد العبد ربه؛ خوفًا منه ووجلاً، وهو مستيقن ومطمئن بأن الله يراه، يَرَاه في عبادته، ويَرَاه إن ارتكب معصية، ويَرَاه إن قصَّرَ في طاعته، فإذا استشعر العبد أيضًا هذا المقام؛ فإنه يكون له خير حافز على الإخلاص لله تعالى، وهذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلى المقام الأول.

وأما في أي شيء يكون؟

فإنه يكون في العبادة بفعل الأوامر وترك النواهي، وكما يكون في العقيدة، ويكون في الشعائر التعبديَّة كالأعمال الظاهرة جميعها من: صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وجهاد، ودعوة إلى الله، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وبذل للنصيحة، ودلالة على الخير .. إلى غير ذلك من أنواع البر والإحسان، وبالدرجة الأولى معرفة الله الكريم الرحمن بذاته وأسمائه وصفاته.

ويكون الإحسان في منهج الدعوة، كما يكون الإحسان في باب الولاء والبراء، أي: من يجب أن يوالي، ومن يجب أن يعادي على ضوء الكتاب والسنَّة، وبميزان الشرع الشريف، مجانبين ومبتعدين عن الهوى الذي ينحرف بصاحبه عن الخط المستقيم والطريق القويم.

فأما الإحسان في العقيدة -وهو الفقه الأكبر-: فحقيقته أن يتوجه العامل بعمله كله فعلاً وتركًا، ورغبًا ورهبًا، وغير ذلك من أنواع العبادة إلى الله مخلصًا له الدين، راجيًا رحمته ومغفرته ونيل رضاه، وخائفًا ووجلاً من أليم عقابه، وغضبه، وسخطه، ومقته.

والإحسان في العقيدة أيضًا: الاعتراف بألوهيَّة الله، بحيث لا تعبد الخليقة إلاَّ إيَّاه، ولا تستعين إلاَّ به، بل وتفرده بكل عبادة مالية وبدنية ظاهرًا وباطنًا.

*** عبادة مستوفية لركنين عظيمين:**

- **الركن الأول:** الحب لله ﷻ حبًّا شرعيًّا.

- **الركن الثاني:** الذل والخضوع له ﷻ ؛ إذ هو المستحق لذلك.

وهذان ركنا العبادة عند علماء السلف[1]، بخلاف من انحرف فعَبَدَ الله بغير هذه

(١) **قال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي** -رحمه الله-: «ثمَّ اعلم أنها لا تقبل الأعمال الظاهرة ما لم يساعدها عمل القلب، ومناط العبادة هي: غاية الحب، مع غاية الذل، ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر.
=

الطريقة، كمن عَبَدَ الله بالخوف وحده، وهؤلاء هم الخوارج والمعتزلة، بالغوا في قضية الخوف، وبالغوا في الوعيد حتى اعتبروا عُصَاة الموحدين خالدين مخلدين في النار، لا شفاعة لهم ترجى، ولا ذنب لهم يُغفر، ولا حظ لهم في الجنَّة، وهذا تعَسُّف وابتعاد عن رحمة الله، وتيئيس للخلق من مغفرة الله ﷻ وسعة رحمته.

وأهل العلم يعرفون في عقيدة الخوارج والمعتزلة: أنهم يرون أن مَنْ مات وهو مرتكب كبيرة ولو كان مُوحدًا؛ فإنه يكون يوم القيامة خالدًا مخلدًا في النَّار، وهؤلاء عبدوا الله بالخوف الذي غلو فيه، حتى إنهم ما رأوا إلاَّ نصوص الوعيد.

وبخلاف من عبدوا الله بالرجاء وحده، وهؤلاء هم المرجئة الذين غلوا في نصوص الوعد الكريم، حتى وصل بهم الحد أن قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة. وهذا خطأ ظاهر.

فإن الله تعالى قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨].

إلى غير ذلك من الآيات التي أنكر الله فيها على الكفار الذين ادَّعَوا بأنَّ الله تعالى إذا كان يوم القيامة -يوم الجزاء على الأعمال-؛ فإنه سيكون لهم عنده من المنازل ومن الجاه والتكريم ومن النعيم كالعيش الذي عاشوا فيه في الدنيا قياسًا لأمر الآخرة على أمر الدنيا،

=

ولذا قال من قال من السلف: من عَبَدَ الله بالحب وحده؛ فهو زنديق، ومن عبده بالرَّجَاء وحده؛ فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده؛ فهو حروري، ومن عَبَده بالحب والخوف والرجاء؛ فهو مؤمن موحد». اهـ. معارج القبول (٢/ ٤٣٧)، والفتاوى (١٠/ ١٤٩)، وما بعدها.

ألا ساء ما زعموا، وبئس ما اعتقدوا.

إذن؛ المرجئة قوم غلوا وبالغوا في الغلو في نصوص الوعد الكريم، وتركوا نصوص الوعيد جانبًا، بخلاف أهل السنَّة والجماعة علماء السَّلف وأتباعهم بإحسان؛ فإنهم عبدوا الله -تبارك وتعالى- بالحب والرَّجاء والخوف والذل له ﷻ، فوفقوا للصراط المستقيم؛ لأنَّ في هذه العبادة على هذه الصورة وعلى هذا الحال جمعًا بين نصوص الوعد والوعيد، فلم يسلكوا مسلك الخوارج والمعتزلة، ولم يسلكوا مسلك أهل الإرجاء الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. ولم يسلكوا مسلك الصوفية الضالة المضلة.

ومن الإحسان في العقيدة: الإقرار بربوبية الله ﷻ، وهذا النوع من التوحيد أقرَّ به المشركون، ولم يخالف فيه إلاَّ شرذمة قليلة من أهل الإلحاد، كانوا يُسمون الدهريين، سَمَّاهم القرآن بذلك، حيث قال -عز من قائل- عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤]. ويسمون بـ: «الملحدين، أو الطبائعيين، أو الماركسيين»؛ لأنهم أنكروا وجود الله ﷻ.

واشتهر عنهم قولهم: «لا إله، والحياة مادة». فنسوا الله ﷻ، ونسيانهم له إنما هو كبر وعناد، وإلاَّ فإنهم يعلمون أن لهم ربًّا خالقًا ورازقًا، أنشأهم من العدم في هذه الحياة، وينقلهم منها غير مختارين؛ إلاَّ أنهم يتفلسفون، ويقولون: «إن الطبيعة هي التي توجد وتُفني». وقالوا كلمتهم الذميمة: «إنَّ هي إلاَّ أرحام تدفع، وأرض تبلع».

فإذا سئلوا عن الطبيعة؛ قالوا: «قوة فاعلة». غير أنهم لا يدرون عن حقيقة هذه القوة ولا عن صفاتها؛ لأنَّ مقالتهم هذه مجرد افتراء واصطلاح إلحادي.

وأمَّا أهل السنَّة وأهل الحق من علماء وأتباع العلماء، فإنهم ينسبون الخلق والإيجاد

والإماتة والبعث والتصرف المطلق في عالم السَّماء وعالم الأرض إلى الله الواحد الأحد، الفرد الصَّمَد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

ومن **الإحسان في العقيدة**: الإيمان بذات الله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا على الوجه الذي يرضي الله -تبارك وتعالى- عنهم، إيمانًا بذاته وأسمائه وصفاته بدون تشبيه، أو تمثيل، وبدون تأويل، ولا تحريف، ولا تعطيل، بل على الوجه الصَّحيح، كما أمرهم الله ﷻ، وعلَّمهم بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

أمَّا الإحسان في الشعائر التعبدية بدءًا بالطهارة التي فرضها الله ﷻ في كتابه، وبيَّنها رسوله ﷺ بيانًا مُفصَّلاً في سنته، حيث قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦].

فبيَّنَ الله ﷻ فرض الطهارة لأهميتها، وكيف لا تكون مهمة وهي شرط أساسي من شروط صحة صلواتنا فريضة ونافلة، بل وفي غيرها كالطواف بالبيت، وتلاوة القرآن، ونحو ذلك، وبينها النبي ﷺ بقوله وفعله؛ إذ قال في تعليمه للمسيء في صلاته حيث قال له: «**إذا قُمت إلى الصَّلاة فأسبغ الوضوء**»(١). فأمره بادئ ذي بدء بالطهارة، وأمر أصحابه

(١) أخرجه البخاري في (١/ ٢٤٧)، ومسلم (١/ ٢٩٨)، ونصه عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنَّ رسول الله ﷺ دَخَل المسجد، فدخل رجل فصَلَّى، فسَلَّم على النبي ﷺ، فرد وقال: **ارجع فَصَل، فإنك لم تصل**. فرَجَعَ يُصَلي كما صَلَّى، ثمَّ جاء فَسَلَّمَ على النبي ﷺ، فقال: **ارجع فصَلَّ، فإنك لم تصل** -ثلاثًا-. فقال: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غيره، فعلمني. فقال ﷺ: **إذا قمت إلى الصَّلاة فكبر، ثمَّ اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتَّى تطمئنَّ راكعًا، ثم ارفع حتى تعتدل قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن سَاجدًا، ثمَّ ارفع حتى تطمئنَّ جالسًا، وافعل ذلك في صلاتك كلها**».

وزاد مسلم: «**إذا قُمتَ إلى الصَّلاة؛ فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة فكبر**».

أن يحضروا له ماءً في طست[١] فتوضأ لهم وهم يشاهدون[٢]. ليحملوا عنه فقه طهارتهم. فيعملوا به ويبلغوه غيرهم، وفعله هذا يعتبر بيانًا للآية الكريمة التي في سورة المائدة.

وأخبر الله ﷻ أنه متى فقد الماء، أو فقدت القدرة على استعماله؛ فعلينا أن نتيمم صعيدًا طيبًا، فنمسح وجوهنا وأيدينا.

وأوضح ذلك النبي ﷺ كما في حديث عمار حيث قال له: «**إنما يكفيك أن تضرب بيديك الأرض هكذا**»[٣]. وضرب بهما ضربة واحدة، ومسح الشمال على اليمين، ومسح وجهه، وهذا بيان لكيفية التيمم، سَوَاء كان الحدث أكبر، أو كان الحدث أصغر.

وامتدادًا إلى الإحسان في الصلاة، والإحسان في الصلاة: إقامتها، وإقامتها: تشمل نواحي متعددة تتعلق بالصَّلاة من: مُرَاعاة دخول الوقت، ومُرَاعَاة إتمام الطهارة، ومُرَاعَاة حفظ أقوالها وأفعالها وأذكارها التي قَسَّمَهَا العلماء بالتتبع والاستقراء من نصوص الكتاب والسنَّة إلى: شروط، وأركان، وواجبات، وسنن قوليَّة، وسنن فعليَّة.

ومحل التوسع في إقامة الصَّلاة: كتب شروح الحديث، وكتب الفقه، فقد أجاد العلماء وأفادوا -رحمهم الله- في بيان ذلك بما لا مزيد عليه، وما على طالب العلم إلاَّ أن يمشي على الأثر؛ ليحقق سنَّة سيِّد البشر -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

---

(١) **الطست**: جمعه طسوت، إناء من نحاس لغسل الأيدي، المنجد (ص٤٦٦).

(٢) يشير الشيخ إلى الحديث الذي روي عن حمران: «أن عثمان ﷺ دعا بوضوء، فغسل كفيه ثلاث مرات، ثم تمضمض، واستنشق، واستنثر، ثم غسل وجهه ثلاث مَرَّات، ثم غسل يده اليمنى إلى المرافق ثلاث مرات، ثم اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غَسَل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مَرَّات، ثمَّ اليسرى مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال رسول الله ﷺ: **مَنْ توضَّأ نحو وضوئي هذا، ثمَّ قام فركع ركعتين لا يُحدث فيهما نفسه؛ غفر له ما تقدم من ذنبه**». أخرجه البخاري (١/ ٧٢) ومسلم (١/ ٢٠٤).

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٢٧)، ومسلم (١/ ٢٨٠).

وهكذا الإحسان في بقية أركان الإسلام، وأركان الإيمان، وسائر العبادات من فرائض ونوافل وواجبات، كل ذلك يجب أن يكون على سبيل الإحسان؛ لأنه شرط أساسي من شروطها، وبدون الإحسان في العبادة لا تنال التقوى، وبدون تقوى الله لا يقبل العَمَل.

والدليل على أن الإحسان شرط في كل عبادة يقوم بها الإنسان ابتغاء مرضاة الله: قول الله ﷻ : ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢].

فقال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾. فاعتبر الإحسان شرطًا أساسيًا في إقامة الدِّين، وإسلام الوجه لله الذي هو التوجه إلى الله على طريق الحق علمًا وعملاً، ودعوةً وخلقًا، وأدبًا وسلوكًا، على مراد الله، وعلى نهج رسول الله ﷺ، وعلى منهج سلفنا الصَّالحين الذين تلقوا العلم عن رسول الله ﷺ، ورسول الله قد تلقاه عن جبريل ﷷ الأمين، وجبريل الأمين تلقاه عن ربِّ العالمين، فهذا السَّند العظيم الذي أوصل العلماء الربانيين وأتباعهم إلى الحق الواضح المبين الذي رضيه الله -تبارك وتعالى- لهم، وحثهم عليه، ورغبهم فيه، ودعاهم إليه، وأثابهم عليه، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وهكذا يجب الإحسان في منهج الجهاد، ومنهج الدعوة إلى الله ﷻ ، والدَّعوَة ضرب من ضروب الجهاد، وقد تكون الدَّعوَة بتعليم الخلق، وانتشالهم من الشرك إلى التوحيد على الوجه الصَّحيح، ومن ذل المعصية إلى عزِّ الطاعة، ومن حمأة الشرِّ إلى فعل الخير، فإنَّ ذلك كله يكون من أعظم أنواع الجهاد؛ لأن فيه إرضاءً للرب، وإحياءً للقلوب، وتبصرة للأمة؛ ليعبدوا الله ﷻ على الوجه الذي أراده منهم وارتضاه لهم.

ولا يكون إحسان في الدَّعوَة إلى الله إلاَّ إذا سلك الدعاة إلى الله مسلك الرسل والأنبياء في دعوتهم، وبالأخص بالنسبة لأمة محمد ﷺ ما جاء في كتابهم ليرسم لهم خط الدعوة ومنهجها الأصيل المأخوذ من قصص الرسل والأنبياء، والمأخوذ أيضًا من قصص رجال

أتقياء أولياء تابعوا الرسل في دعوتهم وصبروا، كما قص الله عن مؤمن آل ياسين، ومؤمن آل فرعون، وامرأة فرعون، كيف صبر الجميع، وآثروا مراضي الله ﷻ على ما نزل بهم من تعذيب الجبابرة لهم، وغير هؤلاء من الصالحين المصلحين في كل زمان ومكان -رحمهم الله وتولاهم، وجعل الجنة منزلهم ومأواهم-.

إذن؛ فالداعي إلى الله بحاجة إلى ترسم خُطَا الأنبياء والرسل الذين بدءوا بالدعوة إلى عقيدة التوحيد، وإلى التزام التكاليف الشرعيَّة أمرًا ونهيًا، وإلى الدعوة للخلق بالحكمة والموعظة الحسنة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

ومن أمعن النظر في دعوة الرسل والأنبياء والتابعين لهم؛ وجدها تختلف كل الاختلاف عن دعوات نشأت وأسست نتيجة أفكار خاطئة وسياسات مدمرة، قد تخرب ولا تبني، وتفسد ولا تصلح.

ألا وإن من بنودها: المظاهرات في كل البلدان لإزعاج الناس، وربما تكون مظاهرات تجمع رجالاً ونساءً، والاغتيالات، والتنظيمات السريَّة في الأماكن التي لا يجوز أن تكون فيها تنظيمات سريَّة، وغير ذلك من الأمور التي أساءت إلى الدَّعوَة، وأساءت بهذا التصرف إلى من يحب أن يدعو إلى الله؛ لأنهم انتقلوا بالدعوة من خطها المستقيم إلى خطوط غير مستقيمة شرعًا وعقلاً.

والذي يريد تبيان ذلك؛ فعليه أن يقرأ القصص القرآنية في دعوة الرسل والأنبياء، وفي توجيهات الله ﷻ للخلق، وعليه أن يقرأ سيرة النبي الكريم -عليه الصَّلاة والسَّلام- في دعوته الرحيمة، وعليه أن يقرأ سيرة العلماء الربانيين علماء الشرع، علماء تفسير القرآن، وتفسير الحديث، وفهم العقيدة على وجهها الصحيح.

وعلى طلاب العلم إن أرادوا أن يكونوا دُعَاة صالحين مصلحين أن يقرءوا نهج الدعوة فيما ذكرت من كتاب الله، وسنَّة رسول الله -عليه الصَّلاة والسَّلام-، وسنَّة الخلفاء

الراشدين من بعده، وطريقة علمائنا الربانيين الذين ورثوا لنا وبين أيدينا هذا العلم الشرعي في بطون الكتب، من تفسير، وعقيدة، وحديث، وشرح حديث، وفقه، ووسائل لهذه العلوم الشرعيَّة التي لا يستغني عنها طلاب العلم بحال.

إذن؛ فلابد من الإحسان في منهج الجهاد، ومنهج الدعوة إلى الله على الوجه الذي أشرت إليه، وهو مبسوط في مواضعه، وفي كتب ألفها العلماء في هذا الشأن.

وهكذا الإحسان يجب أن يكون في الولاء والبراء: يعني: من يجب عليك أن تواليه، ومن يجب عليك أن تعاديه، وهذا الركن من أركان الدين نص عليه القرآن الكريم، ونص عليه النبي ﷺ في سنته المطهرة.

ففي القرآن الكريم: قال الله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢]. إلى آخر الآية من سورة المجادلة.

وقال -تبارك وتعالى- ناهيًا عن موالاة الكفار: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة:١٤]. إلى غير ذلك من الآيات التي ترشد إلى مُعَادَاة الكافرين والعاصين بقدر معاصيهم.

وهكذا الآيات والنصوص التي ترشد إلى ولاء من تجب موالاتهم، ويجب فهمها، والعمل بها، فعلى المسلم أن يتولَّى الله ﷻ، فمن يتولَّى الله -تبارك وتعالى- حقًّا وصدقًا، قولاً وفعلاً، ظاهرًا وباطنًا؛ تولاه الله، ومن تولاه الله؛ حفظه في دنياه وبرزخه وأخراه.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥-٥٦].

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧].

إذن؛ يجب أن تتولى الله ﷻ، وتبرهن على هذه الولاية بفعل طاعته، وترك معصيته، وحبه حبًّا عظيمًا فوق محبَّة كل شيء سواه، ويجب أن نتولَّى رسول الله ﷺ محبَّة لشخصه، ومحبةً وإيمانًا لما جاء به، ورغبة ومحبة منَّا أن نُحشر تحت لوائه يوم تحشر الخلائق، ويوم تُدعى كل أمة إلى كتابها، ويوم يُدعى كل أناس بإمامهم.

والدليل على تولي رسول الله ﷺ يتضح بالتفاعل مع ما جاء به جملةً وتفصيلًا من كتاب الله وسنته، نقتدي بهما في الاعتقاد، وفي الأقوال والأفعال، وفي السيرة الطاهرة النقيَّة، وفي التعامل بيننا وبين الله، وفي التعامل بيننا وبين عباد الله على اختلاف أصنافهم وشتى مستوياتهم، والتولي لإخواننا المؤمنين محبة، ونصحًا، وصدقًا في الإخاء، وحبًّا للخير لهم، وكراهة لوصول الشر إليهم؛ تحقيقًا لقول النبي ﷺ: «**المسلم أخو المسلم**»(١).

ولقوله -عليه الصَّلاة والسَّلام: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(٢).

ولقوله -عليه الصَّلاة والسَّلام-: «**مثل المؤمنين في توَادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عُضو؛ تداعى له سائر الجسد بالسَّهَر والحمى**»(٣).

وجاء في الأثر: «**مَنْ أَحَبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومَنَعَ لله؛ فقد استكمل الإيمان**»(٤).

---

(١) وتمامه: «**لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه؛ كان الله في حاجته، ومَنْ فرَّجَ عن مسلم كربة؛ فرَّجَ الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومَنْ سَتَر مسلمًا؛ ستره الله يوم القيامة**». أخرجه البخاري في كتاب المظالم والغضب، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٢/ ١٩٠) (٢٤٤٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢١)، ومسلم (١/ ٦٧).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٢٠)، وصَحَّحَه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٨).

وقال ابن عباس ﵄: «الحبُّ في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، قال: وإن عَامَّة مؤاخاة الناس اليوم على الدنيا، ولا يُجدي عنهم ذلك شيئًا»[١] قالها وهو في عصر متصل بعصر النبوة، فكيف بعصرنا هذا، لكن لله ﷻ عبادًا ذكورًا وإناثًا في أرض الله يطبقون قاعدة الولاء والبراء كما جاءت بها النصوص؛ إيمانًا بما دلت عليه هذه النصوص، ووفاء بما رسم الله لها في كتابه المنزل، وعلى لسان رسوله المرسل.

ومن هنا وجب بغض الكافرين والمشركين بغضًا كاملاً؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء رسوله، وأعداء المؤمنين، ووجب أيضًا بغض المنحرفين عن منهج السَّلف بقدر بعدهم عن الحق، وتمسكهم بالباطل، وهم في ذلك درجات، منهم أهل البدع وما أشنعها، ويكفي أن النبي ﷺ قال في حقها: «**كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**»[٢]. أي: صاحبها، وهو حكم عام يشمل جميع البدع: الاعتقادية، والقولية، والفعلية، والعملية.

فموقف أهل السنة والجماعة -وفي مقدمتهم أصحاب رسول الله ﷺ- من أهل البدع الذين انحرفوا عن خط أصحاب رسول الله وما كانوا عليه: البغض لهم، والتحذير منهم، بل والبراءة من صنيعهم كما في قصَّة عبد الله بن عمر لما شكا إليه جماعة بأنهم سمعوا قومًا يقولون: «لا قدر». فأتوا إلى عبد الله بن عمر، فَاهتَمَّ بذلك اهتمامًا شديدًا،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٤١٧)، عن ابن عمر، وأورده ابن رجب في كتاب جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٥)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٤٠٦)، عن ابن عبَّاس، وإسناده ضعيف لأجل ليث، وهو ابن أبي سليم.

(٢) أخرجه مسلم (٢/)، والنسائي (١/ ٥٥٠)، وزاد: «وكل ضلالة في النار». وهي عند البيهقي أيضًا (٣/ ٣٠٣)، قال عنها الألباني: وسندها صحيح في إرواء الغليل (٣/ ٧٣) (٦٠٨).

وقال قولته المشهورة: «أخبروهم بأني بريء منهم، وهم برآء مني»[١]. وهو من هو: علمًا، وعملاً، وتأسيًا بالنبي ﷺ في كل شيء.

إذن؛ فأهل البدع الذين يَدعُونَ الناس إلى بدعهم -أيًّا كان نوع هذه البدع- يجب أن يُهجَروا، وأن يُحذَرُوا، وأن تُترك مجالسهم والاجتماع معهم، والغدو والرواح إليهم ومعهم، وما ذلك إلاَّ لخطر البدعة وشؤمها.

ولَـمَّا رتب العلماء الأفاضل المعاصي بالتتبع والاستقراء من نصوص الكتاب والسنَّة؛ ذكروا القول على الله بغير علم أعظم المعاصي وأكبر الذنوب؛ لأنه افتراء على الله، ثم الشرك بالله -تبارك وتعالى- الذي لا يغفره الله، وأتبعوا ذلك بالبدع الضَّالة المضلة لخطر البدع؛ لأنها إحداث في الدين ما ليس منه، والله ﷻ قد أكمل الدين، فليست الأمَّة بحاجة إلى أن يأتي من يزيد ويتوسع في الدِّين، ويأتي بما لم يكن مشروعًا فيه.

نعم، ليست الأمَّة بحاجة إلى ذلك، ولكن الأمَّة بحاجة إلى أن تعرف دينها، وأن تعمل بمقتضاه، وتدعو إليه، فهو دين كامل متكامل بشهادة الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

ومن جملة البدع: بدع الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، والحلولية، والاتحادية، والمفوضة، والأشاعرة، ونحلهم مُفصَّلَة في كتب العقائد.

كما من جملة البدع على السَّاحَة: التنظيمات السريَّة التي سميت بأسماء جديدة كـ: إخوانية، أو سرورية قطبية، أو جماعة تبليغية، أو جبهة كذا، وحزب كذا، ونحو ذلك من الأسماء التي سماها زعماء هذه الطوائف، ودعوا الناس إلى الانخراط في نظمها ومناهجها،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان الإسلام والإيمان والإحسان (١/ ٣٦) (٨)، ورواه أحمد (١/ ٢٧، ٢٨، ٥٢).

كل هذه بدع باطلة، وكم فيها من الشرور والفوضى، قد أصيب أهلها بانحراف عن منهج الولاء والبراء الشرعيين، فعكسوا القضية، فجعلوا الولاء والبراء لأئمَّة تلك الأحزاب والجماعات وإن كانوا في خطأ وابتداع.

وأذكر عبارة قالها رجل إخواني مؤلف اسمه: جاسم المهلهل في كتابه «جلسات مع كتاب وقفات للدعاة فقط»، وهو يرد على: محمد بن سيف العجمي -أثابه الله- الذي نصر منهج السَّلف، ورَدَّ على المبتدعين، هذه العبارة هي قول جاسم المهلهل: «وإنَّ مَنهَجَ الإخوان ليرفض أي شخص لا يتقيد بنظامه، وإن كان من أورع الناس علمًا وعَمَلاً، ومن أخشعهم في الصَّلاة»(١). يعني: أنَّ الذي يقوم بهذه الطاعات، ولكنه لا يتقيد ببنود منهج «الإخوان المسلمين»، الذين خططوا له ورتبوه على غير منهج الحق في جل بنوده.

إذن؛ إنه لم يطبق في هذا المنهج الإخواني قاعدة «الولاء والبراء» بحق، بل عكست فيه القضية، فقد يوالي في المنهج الإخواني مَنْ لا يستحق الولاء، ويُعَادي فيه مَنْ لا تجوز مُعَاداته. ونعوذ بالله من تصرفات الحمقى.

ونحن نحذر دائمًا إخواننا وأبناءنا من هذه الكتب التي هي نتيجة أفكار وتخطيط وملابسات أحاطت بالقوم، وغايات أرادها القوم، سواء كانوا تبليغيين، أو إخوانيين، أو غيرهم من أهل التنظيمات والسريات، وما شاكل ذلك من أنواع الانحرافات.

نعم، إننا نحذر أنفسنا، ونحذر أبناءنا وإخواننا، ونربطهم نصحًا لهم بكتاب الله ﷻ بالفهم الصَّحيح، وبصحيح سنَّة رسول الله ﷺ كذلك، وبمنهج السَّلف الصَّالحين في دعوتهم وولائهم وبرائهم على ضوء الكتاب والسنَّة، هذا هو الحق، فمَنْ أَحَبَّ لنفسه أن يمشي في صراط مستقيم؛ ليرضي الرب الرحيم، وينقذ نفسه من عذاب الله ومقته

---

(١) انظر كتاب «وقفات مع كتاب للدعاة فقط» (ص١١٢) لمحمد بن سيف العجمي -أثابه الله-.

وسخطه؛ فعليه أن يَترسَّمَ خُطا منهج السلف الصَّالح؛ لأنه منهج رباني، ومنهج نبوي، ومنهج سلفي مأخوذ من كتاب الله ومن سنَّة نبيه -عليه الصَّلاة والسَّلام-، ولا يعدل عن هذين المصدرين الكريمين يَمنَة ولا يَسرَة، فالعدول عنهما انحراف عن جادة الحق وسبيل الصواب.

وهكذا أيضًا الإحسان في السنن التي هي دون الفرائض -أعني: سنن الصلاة الراتبة، وغير الراتبة، وسنن الذكر-: بأن يكون على الوجه الشرعي، لا ذكرًا صوفيًّا، ولا غفلة عن الذكر.

وهكذا في الصَّدَقات النافلة، ثم في طلب العلم، والتوسع فيه ونشره ابتغاء مرضاة الله والدار الآخرة.

ولا يكون العبد محسنًا في ذلك إلاَّ إذا أخذ ما ذكر من العبادات من كتاب ربِّه، وسنَّة رسوله -عليه الصَّلاة والسَّلام- الصَّحيحة، ودرج على ما عليه سلفنا الصَّالح الذين فهموا هذا الدِّين حق الفهم، وما أشكل من الأمور ذات الخلاف التي يسوغ فيها الخلاف تبحث بواسطة العلماء الربانيين الذين إذا اختلفوا في مسألة ما من مسائل الشرع والدين؛ ردوا ذلك إلى الكتاب والسنَّة؛ امتثالًا لقول الله ﷻ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى:١٠].

وامتثالاً لقول الله ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]. أي: إلى كتاب الله، وإلى رسول الله ﷺ أيام حياته، وإلى سنته الكريمة الصَّحيحة بعد مماته، وفي الكتاب والسنَّة حَل لكل مشكلة ولكل قضية؛ لأنَّ الله ﷻ شرع هذا الدِّين ليكون للأمة جمعاء إلى أن تقوم السَّاعَة، وإلى أن يُرفَعَ هذا العلم إلى الله الذي أنزله.

هذه حقائق شرعيَّة سبيل معرفتها وفهمها حق الفهم السير المستمر في طلب العلم، والجلوس في حلقاته؛ ابتغاء مرضاة الله؛ وابتغاء تبصير النفس بالحق، ومن ثَمَّ تبصير الغير.

فخير الحسنات وأفضل القربات وأزكى العبادات: أن يوفقك الله -أيها المسلم- لتتعلم علمًا شرعيًّا تنتفع به، ثمَّ تعود به إلى إخوانك المسلمين داعيًا ومُعلمًا، ومبشرًا ومحذرًا، وناصحًا ومجاهدًا، كما كان إمامك محمد ﷺ يفعل ذلك، فكان أيام حياته المباركة -وغالب مكثه في المسجد- يعلم الجاهل، ويفتي المستفتي، ويعقد ألوية الجهاد، ويجهز السَّرايا، ويعلم الناس، وبهذه السنَّة المجيدة أخذ أصحابه الكرام، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون.

وما نصيحة أبي هريرة ﷺ لأهل السوق في المدينة عن الأذهان ببعيد، فقد غدا إلى المسجد، ثم غدا إلى السوق، وكان قد خرج من المسجد وهو زاخر بحلقات العلم والذكر الشرعي والقراءة، حلقات كل يرغب نوعًا من أنواع العلم، ونوعًا من أنواع العبادة، وخرج أبو هريرة من عندهم، ونادى في أهل السوق: «يا أهل السوق، ما أعجزكم!! قالوا: وماذا؟! قال: ميراث رسول الله ﷺ يُقسَّم في المسجد وأنتم هاهنا. فخرجوا مسرعين إلى المسجد، ثم رَجَعُوا، فقالوا: ما رأينا شيئًا. فقال: وماذا رأيتم؟ قالوا: رأينا حلقًا: حلقة يتذاكرون فيها الحلال والحرام، وحلقة يقرءون فيها القرآن، وحلقة يذكرون الله -تبارك وتعالى-. فقال: ذاك ميراث رسول الله ﷺ»(١).

فكلمة الإحسان -يا أبناءنا الكرام، ويا إخواننا الفضلاء- كلمة عظيمة، جليلة القدر، واسعة المعاني بحيث لا نستطيع حصرها في مقام واحد، وحسبنا ما دَوَّناهُ هنا على سبيل الاختصار؛ ليعلم ويفهم، والله أعلم وأحكم، وبعباده أرحم.

وقد أورد المؤلف -رحمه الله- من الأدلة على الإحسان، فقال:

* * *

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٢/ ١١٤)، وقال الهيثمي في المجمع: وإسناده حسن. (١/ ١٢٣).

«**والدليل قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾» [٩٥].

الشرح

[٩٥] قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨].

قلت: ويكفيهم شرفًا أن الله معهم، ومن كان الله معه؛ فإنه لا يضيع، ولا يمكن أن ينحرف، ولا يخيب لا في الدنيا، ولا في البرزخ، ولا في الآخرة، وإذا أحببت أن يكون الله معك؛ فعليك أن تكون محسنًا في أعمالك الظاهرة والباطنة، وقد وعدك الله وعدًا كريمًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]. فالتقوى قرينة الإحسان وهو شقيقها، شيئان متلازمان، وركنان عظيمان.

تقوى الله: التي تتجلى في امتثال أمره، واجتناب نهيه، ومتابعة رسوله -عليه الصَّلاة والسَّلام- قولاً، وفعلاً، وعملاً، ظاهرًا وباطنًا.

والإحسان: في كل شيء من العبادات الظاهرة والباطنة، أقوالها وأفعالها وأعمالها على المنهج الصَّحيح والوجه الصريح.

* * *

«وقوله: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾» [٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس:٦١].

الشرح

[٩٦] واستدل -رحمه الله- بقوله -تبارك وتعالى-: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾

ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ [illegible]

أبلغ المواعظ والتوجيهات الربانيَّة السديدة؛ لأنه أمر بالتوكل على [illegible]

على الله كفاه، وفيه إعلام لأمَّة القرآن بأنَّ الله -تبارك وتعالى- يرى حركاتهم [illegible]

وتقلبهم، لا تخفى عليه خافية من ذلك.

وختم الآية باسمين كريمين:

أحدهما: السميع. والثاني: العليم.

* وفيهما إثبات صفتين ذاتيتين:

الأولى: إثبات السَّمع لله ﷻ الذي يسمع لجميع الخلائق، لا يعزب عن سمعه مثقال ذرة في الأرض، ولا في السماء.

الثانية: إثبات العلم كذلك؛ لأنه قد أحاط بكل شيء علمًا.

صفتان حقيقيتان تليقان بعظمة الله وجلاله.

وصلى الله وسلم وبارك على النبي الكريم، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

* * * * *

الدرس الثاني عشر

«والأصل الثالث [٩٧]: معرفة نبيكم محمد ﷺ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليه وعلى نبينا أفضل الصَّلاة والسَّلام- [٩٨]. وله من العمر ثلاث وستون سنة: منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون، نبيًّا ورسولاً [٩٩]. نبئ بـ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، وأرسل بـ: ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [١٠٠].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

أما بعد: فقد مضى معنا الحديث في الدروس الماضية عن إيضاح الأصل الأول والثاني من الأصول الثلاثة ..

وموضوع هذا الدرس: الأصل الثالث.

[٩٧] **والأصل الثالث:** يتعلق بمعرفة نبينا محمد ﷺ معرفة حقيقية شرعيَّة، من حيث النسب، ومن حيث البلد، ومن حيث ما جاء به النبي ﷺ من كتاب وسنَّة، وهو أهم شيء في الموضوع، والذي يجب أن يعتنى بمعرفته بالتفصيل.

[٩٨] وقد بيَّن المؤلف -رحمه الله- نسب النبي ﷺ بقوله: «وهو محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل -عليه وعلى نبينا أفضل الصَّلاة والسَّلام-».

[٩٩] وبيَّن أنَّ عُمْرَ النبي ﷺ ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًّا رَسُولاً.

[١٠٠] كما أوضح المؤلف -رحمه الله- بأنه -عليه الصَّلاة والسَّلام- نبئ بـ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾.
وأرسل بـ: ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

نبئ بـ: ﴿اقْرَأْ﴾. أي: أوحى الله ﷻ إليه صدر سورة ... ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥].

ثم فتر الوحي بعد ذلك مُدَّة، ثمَّ بعد ذلك أمره الله -تبارك وتعالى- ... حيث قال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١-٢].

وهذا النداء له سبب: وهو أنَّ النبي ﷺ لما أنزل عليه الوحي أول ما نزل صدر سورة «إقرأ»؛ رجع إلى أهله، وقال: «**دَثِّروني، دثروني**». أي: يطلب أن يغطى بالثياب لشدة ما وجد، وفي رواية: «**زَمِّلوني، زَمِّلوني**». فأنزل الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:١-٢][(١)].

ففي نزول صدر سورة «اقرأ» لم يُؤمر بالبلاغ مباشرة، ولكن ليعلم شيئًا من الوحي، وأمَّا في سورة «المدثر» فقد أمره -تبارك وتعالى- بالإنذار والعبادة.

❊ ❊ ❊

«**بعثه الله بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد**» [١٠١].

الشرح

[١٠١] **والإنذار لغة:** إعلام مع التخويف، أي: لينذر قومه ويخوفهم بعقوبة الله -تبارك وتعالى- لمن عصاه، وعصى رسوله -عليه الصَّلاة والسلام-.

وأكبر معصية: ما كان عليه كفار قريش قبل البعثة في جاهليتهم، التي فيها من الفساد والضَّلال ما هو معلوم مما بيَّنه الله -تبارك وتعالى- في كتابه، وبيَّنه النبيﷺ في سنته، وحفظته لنا وثائق التأريخ، فأمره الله بالنذارة عن الشرك وعن كل رذيلة وكل

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٤)، ومسلم (١/ ١٣٩).

جهالة؛ ليحل محل الشركَ: التوحيدُ، ويحل محل الرذيلة: الفضيلةُ، ويحل محل الجهل: العلمُ، ويحل محل قوانين الجاهلية شرعُ الله المطهر في بيان الحلال والحرام وسائر الأحكام.

* * *

«**وبلده مكة** [١٠٢] **والدليل قوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ [١٠٣] ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر:١-٧].

ومعنى: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾: **ينذر عن الشرك، ويدعو إلى التوحيد** [١٠٤].

الشرح

[١٠٢] ثم أخبر المؤلف -رحمه الله- أن مكة -حرسها الله- هي بلد النبي ﷺ، ولا شك في ذلك فـ: «بلده مكة» وبلد آبائه وأجداده خير البقاع وأفضلها، وزادها الله ﷻ تشريفًا وتكريمًا ببعثة النبي ﷺ منها، وتطهيره هذا البيت الحرام الذي كان موطنًا ومكانًا للآلهة المتعددة، فقد ثبت أنه كان حول البيت ثلثمائة وستون صنمًا تعبد من دون الله ﷻ، حتى حطمها النبي ﷺ عام الفتح، فقد كان يُشير إليها بعَصَاه، ويقول: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ [الإسراء:٨١][(١)].

[١٠٣] وقد فسرَّ المؤلف -رحمه الله- صدر سورة المدثر التي أرسل بها النبي ﷺ.

فالمدثر: هو المتغطي بالثياب نتيجة الفزع الذي أصابه من نزول الوحي.

[١٠٤] وفي قوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ خطاب للنبي ﷺ؛ لينذر قومه -أي: ليخوفهم- عذاب الله إن استمروا على الإشراك بالله.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ (٣/ ٢٥٢)، (٤٧٢٠)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب: إزالة الأصنام من حول الكعبة (٣/ ١٤٠٨)، (١٧٨١).

«﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. أي: **عظمه بالتوحيد**» [١٠٥].

الشرح

[١٠٥] وأمره بتعظيمه سبحانه في قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. أي: عظم ربَّك بتوحيده بما تحمل كلمة التوحيد من معنى: توحيد الألوهيَّة، وتوحيد الربوبيَّة، وتوحيد الأسماء والصفات، هذه أنواع التوحيد وتقسيمها، هذا هو الحق الذي دلت عليها نصوص الكتاب والسنَّة، من استكملها وأتى بلوازمها؛ فهو الموحد، ومن انتقص شيئًا منها؛ فعنده نقص في التوحيد يجب أن يُكمله وأن يُتمِّمه.

والأمر للنبي ﷺ أمر لأمته، فكل مكلف من عالم الإنس والجن فهو مأمور بتوحيد الله ﷻ الذي يتجلى في تحقيق تلك الأنواع الثلاثة ولوازمها.

❊ ❊ ❊

«﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾. أي: **طهر أعمالك من الشرك**» [١٠٦].

[١٠٦] كما أمره ربه بالطهارة في قوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾. قال المؤلف: «طهر أعمالك من الشرك». وهو تفسير حق، غير أنَّ الطهارة إذا أطلقت على العُمُوم هكذا؛ فهي تشمل الطهارتين: الطهارة الحسيَّة، والطهارة المعنويَّة(١).

---

(١) **قال ابن القيم -رحمه الله- في كتابه «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (ص٦٤) ما نصه:**

«**فاعلم أن هاهنا أربعة أمور**: أمران حسيان، وأمران معنويان.

فالنجاسة التي تزول بالماء هي ومزيلها حسيان، وأثر الخطايا التي تزول بالتوبة والاستغفار هي ومزيلها معنويان، وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم إلاَّ بهذا وهذا، فذكر النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- من كل شطر قسمًا نبه به على القسم الآخر، فتضمن كلامه الأقسام الأربعة في غاية الاختصار وحسن البيان، كما في حديث الدعاء بعد الوضوء: «**اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**». فإنه يتضمن ذكر الأقسام الأربعة». اهـ

«﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ الرجز: الأصنام. وهجرها: تركها وأهلها، والبراءة منها وأهلها» [١٠٧].

الشرح

والطهارة المعنوية: المراد بها التطهر من دنس الشرك بنوعيه: كبيره، وصغيره، وشتى صوره وسائر البدع والمعاصي؛ إذ إنَّ الشرك والبدع والمعاصي قذارة ووساخة للقلوب والأرواح والجوارح؛ ولذا نلمس معنى الدعاء المأثور في الاستفتاح، وهو قول النبي ﷺ: «**اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس**»[1].

فالخطايا تكون قذارة ووسخًا ودنسًا يلوث القلوب، ويلوث الأرواح والجوارح، ولا يتطهر منها الإنسان إلاَّ بفعل الطاعة.

كما تشمل الطهارة الحسية التي أمر بها النبي ﷺ، وأمرت بها الأمَّة، وهي طهارة الثوب، وطهارة البدن، وطهارة البقعة التي تتخذ مُصَلًّى.

والآية تحتمل المعنيين وتتجه إليهما؛ لأن التطهير من دنس الشرك أمر مطلوب بالدرجة الأولى، والتطهير أيضًا من النجاسات والحدث ومن الخبائث على اختلاف أنواعها أمر مطلوب للشارع كذلك.

[١٠٧] **وفسر المؤلف «الرجز»** بـ: الأصنام، وأمر بهجرها؛ إذ إنه لا يتم التوحيد إلاَّ باجتناب عبادة الأصنام والأوثان التي كان يعبدها كفار قريش، بل كفار العرب قاطبة، قريش ومن يأوي إليها وغيرهم من مخلوقات الله على وجه الأرض قبل البعثة النبويَّة، إلا من كان على ملة إبراهيم ﷺ، فبقي عليها أو بقايا من أهل الكتاب.

ولما كان إعلان البراءة من الشرك وأهله أمرٌ مطلوب؛ إذ لا يكفي أن تترك الشرك،

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٤٢)، ومسلم (١/ ٤١٩).

ولكن تترك الشرك، وتتبرأ منه -أي: من عمله-، وتتبرأ من أهله، وتعلن لهم البراءة، وهذا أصل في البراءة من المعاصي على عمومها ومن العُصَاة، سواءً من أهل الشرك، أو من أهل النفاق، أو من أهل البدع، أو من أهل كبائر الذنوب، تتبرأ منهم، والبراءة من كل شيء بحسبه، وكل شيء يقدر بقدره.

ولما كان شأن التوحيد عظيم؛ إذ إنه مفتاح الجنَّة، والعاصم في الدنيا للدم والمال والعرض، وفارق بين المسلمين والكفار؛ فالموحد هو المسلم، والمشرك شركًا أكبر هو الكافر.

ولما كان القوم في جاهليتهم لا يعرفون من العبادات إلاَّ الأصنام والأوثان، والتبرك بها، واللجوء إليها في حال الشدائد والكروب غالبًا؛ إذ قد يخلصون لله في بعض الشدائد والكروب، كما في قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥].

أمَّا في حال الرخاء فإنهم لا يُقدِّمون ولا يُؤخِّرُون إلاَّ بعد التَّمسُّح بأصنامهم وأوثانهم، سواءً كانت أشجارًا، أو أحجارًا، أو أخشابًا منحوتة، أو شمسًا، أو قمرًا .. أو نحو ذلك من المعبودات الباطلة التي كانت تُعبد من دون الله، حيث قد زَيَّن الشيطان لهم عبادتها، كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر:٨].

ولما كان هذا شأن التوحيد، وكان ذلك وصف الأمَّة وحالها الذي هو الاتفاق على الباطل، وفي مقدمته: الشرك، والبدع، والرذائل.

* * *

«أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد» [١٠٨].

الشرح

[١٠٨] فقد مكث النبي ﷺ عشر سنين يدعو إلى تحقيق التوحيد، يدعوهم إلى كلمة: «لا إله إلاَّ الله، محمد رَسُول الله».

لأن كلمة «لا إله إلا الله» بتحقيقها يكون العبد قد توَجَّهَ بالعبادة لله وحده دون سواه، ونبذ تلك الأصنام والأوثان.

وبتحقيق شهادة «أنَّ محمدًا رسول الله» إيمان بالرسالة، وتصديق ببعثة النبي ﷺ، وأنه مرسل من عند الله في هذه المدَّة الطويلة عشر سنين قبل أن تفرض الصَّلاة، وقبل أن تفرض أي عبادة من العبادات، وما ذلكم إلاَّ لأهمية شأن العقيدة وعلم توحيد رب العالمين الذي كلف الله -تبارك وتعالى- به عالم الإنس والجن بادئ ذي بدء قبل أن يُكلفهم بأي عبادة أخرى، ولا شك أن أزكى العبادات بعد التوحيد هي الصَّلاة، ولكن تأخرت فرضيتها لأهمية شأن عقيدة التوحيد وفهمها.

وكان يستجيب لدعوة النبي ﷺ الأفراد والجماعات من الرجال، والصبيان، والنساء، والأحرار، والعبيد على بطء، ولكنه ما كان يستعجل، وعندما قام بدعوته الرحيمة المتواصلة صابرًا محتسبًا حكيمًا، لين الجانب كما أمره ربُّه -تبارك وتعالى- أن يخاطب الخلق، وأن يصبر على أذاهم، وأن يَتَحمَّل كل شيء في سبيل دعوته الكريمة التي فيها انتشال لعالم الجن والإنس من مُوجبَات الغضب إلى مُوجبَات الرضا والجنَّة لمن أطاع الله، ولمن تابع الرَّسُول -عليه الصلاة والسلام- واستجاب لدعوته.

ولما آمن مع النبي ﷺ ما يقرب من سبعين رجلاً وامرأة، وكانوا يُؤذَون أشد الأذى من أولئك الأعداء؛ لأن هذا العدد بالنسبة للباقين على الشرك عدد ضئيل، فلما لحقهم

صنوف من الأذى؛ أمرهم النبي ﷺ أن يُهاجروا إلى الحبشة؛ ليقيموا شعائر الدين بدون أذى، فهاجروا إلى الحبشة؛ لأن فيها النجاشي، وهو كما قال النبي ﷺ: «**فيها مَلك لا يظلم الناس عنده**»[(١)]. إلا أنه لاحقهم كفار قريش إلى هناك حسدًا وبغيًا وحقدًا على الرسول -عليه الصَّلاة والسلام- وعلى أصحابه ليستأصلوهم؛ لتبقى لهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى وغيرها من الأصنام والأوثان التي تعبد بالباطل وترجى.

ولكنَّ الله ﷻ ربَّى هذه الطائفة المؤمنة، ودافع عنها رغم ما أصابها من بلاء وجهد، فكانت الهجرة إلى الحبشة مرتين، وكانت الهجرة الثالثة إلى المدينة، ارتفعت فيها راية الإسلام بفضل الله ﷻ، ثم بجهود الأنصار والمهاجرين الذين نصروا الله ورسوله، فنصرهم الله على كل عدو داخلي وخارجي.

❊ ❊ ❊

«**وبعد العشر عرج به إلى السَّماء، وفرضت عليه الصَّلَوَات الخمس**» [١٠٩].

الشرح

[١٠٩] وبعد العشرة السنين عرج بالنبي ﷺ إلى السَّماء، وصفة الإسراء والمعراج جاءت في القرآن الكريم[(٢)]، وجاءت في صحيح السنَّة المطهرة[(٣)]، وذلك أنَّ النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٦)، والطبراني في الكبير (٢/ ١١١)، وقال الهيثمي في المجمع: ورجاله رجال الصحيح غير إسحاق، وقد صَرَّح بالسماع. (٦/ ٢٤)، وأورده أبو نعيم في الحلية (١/ ١١٥) من حديث أم سَلَمَة وابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٦٤)، وابن هشام في السيرة (١/ ٢١٤)، وابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ١٥٥).

(٢) يشير الشيخ -حفظه الله- إلى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١].

(٣) كما في البخاري (١/ ١٣٢)، ومسلم (١/ ١١٤٨).

كان في الحجر ذات ليلة، فأتته الملائكة، وشقت صدره من ثغرته إلى سرته، واستخرجوا قلبه وحشوه حكمة وإيمانًا، ثمَّ أسري به على البراق -دابة تضع حافرها عند منتهى طرفها- إلى بيت المقدس، ولما وصل بيت المقدس؛ جمع الله له رسله وأنبياءه، فَصَلَّى بهم إمامًا، وكيفية ذلك من أمور الغيب التي لا ينبغي السؤال عن كيفيتها، وأمة الإسلام أمة تؤمن بالغيب، فصلى بهم حقيقة؛ ليظهر فضل النبي ﷺ على جميع الرسل والأنبياء.

وعرج به إلى السماء في المرقاة التي يعرج فيها الأنبياء، والحديث معلوم ومشهور، وذلك أنَّ جبريل كان يرافقه، ولما وَصَلا إلى السَّماء الدنيا استفتح جبريل، مما يدل على أن السَّموات محروسة، وأنَّ لها أبوابًا، وأنها مملوءة من خلق الله من ملائكته الكرام وغيرهم ممن جاء ذكرهم في شريعة الإسلام، فلما استفتح السماء الدنيا وسئل من معك ؟ قال محمد. قالوا: وقد أوحي إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحبًا بالنبي الصَّالح.

وهكذا كان رقيهما من سَماء إلى سماء، ويُسَلِّم على مَنْ فيها من الرسل والأنبياء، حتى انتهى إلى السَّماء السَّابعة، وفُرِضَت عليه الصَّلوات في تلك الليلة خمسين صلاة، فمَرَّ على موسى عليه السلام، وقال له: «ماذا فرض عليك ربك يا محمد؟ قال: **خمسين صلاة**. قال: إنَّ أمَّتك لا تستطيع ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف. فرجع النبي ﷺ إلى ربه فسأله التخفيف، فوضع عنه عشرًا، فكان يرجع بين موسى وبين ربِّه، ويضع عنه عشرًا عشرًا، حتى استقرت خمس صلوات، فقال الله -تبارك وتعالى-: «**أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي: هُنَّ خمسٌ، وهُنَّ خمسون، لا يُبدَّل القول لدي، خمسٌ في العدد، وخمسون في الأجر**». لأن الله قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام:١٦٠].

وأصبح في مكة بين ظهرانيهم، وظهر الخبر، وأخبرهم النبي ﷺ، فكذبته الكثرة الكاثرة، حتى أتوا إلى أبي بكر، وأخبروه الخبر، وقالوا: «أتصدقه؟ فقال: كيف لا أصدقه!!

وخبر السماء يأتيه صباحًا ومساءً »[1]. ولـم يتلعثم، ولـم يتوقف، ولـم يقل إلاَّ بالحق والحكمة.

❊ ❊ ❊

«وصلى في مكة ثلاث سنين» [١١٠].

الشرح

[١١٠] ثمَّ بعد العشر التي كانت خَاصَّة بدعوة التوحيد، ومحاربة الشرك بالله ﷻ، وهو ما كانوا عليه من عبادة الأصنام والأوثان؛ جلس النبي ﷺ ثلاث سنين بعدها يُصَلي في مكة بعد أن بيَّن له جبريل مواقيت الصَّلاة، كما ثبت في الحديث عن النبي ﷺ بأنه صلى به جبريل في أول الوقت وفي آخر الوقت ما عدا المغرب، وقال له: «**الصَّلاة بين هذين الوقتين**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٤٠٧)، ومسلم (١/ ١٤٥).

(٢) يشير الشيخ -حفظه الله- إلى الحديث الذي رواه جابر بن عبد الله: «أنَّ جبريل أتى النبيﷺ ليعلمه مواقيت الصَّلاة؛ فتقدم جبريل ورسول الله خلفه، والناس خلف رسول اللهﷺ، فصلى الظهر حين زالت الشمس، وأتاه حين كان ظل الرجل مثل شخصه، فصنع كما صنع، فتقدم جبريل ورسول اللهﷺ خلفه، والناس خلف رسول اللهﷺ، فَصَلى العصر، ثم أتاه حين وجبت الشمس، فتقدم جبريل ورسول اللهﷺ خلفه، والناس خلف رسول اللهﷺ، فصلى المغرب، ثم أتاه حين غاب الشَّفَق، فتقدم جبريل ورسول اللهﷺ خلفه، والناس خلف رسول اللهﷺ، فصلى العشاء، ثم أتاه حين انشَقَّ الفجر، فتقدم جبريل ورسول اللهﷺ خلفه، والناس خلف رسول اللهﷺ، فصلى الغداة، ثم أتاه اليوم الثاني حين كان ظل الرَّجُل مثل شخصه، فصنع مثل ما صنع بالأمس، فصلى الظهر، ثم أتاه حين كان ظل الرَّجُل مثل شخصه، فصنع كما صَنعَ بالأمس، فصلى العصر، ثم أتاه حين وَجَبت الشَّمس، فصنع كما صنع بالأمس، فصلى المغرب، فنمنا ثمَّ قمنا، ثمَّ نمنا، ثمَّ قمنا، فأتاه فصنع كما صنع بالأمس، فصلى العشاء، ثم قال: **ما بين هاتين الصلاتين وقت**».

رواه النسائي (١/ ٤٦٩ ١/ ٢٨٢ ١/ ٣١٠)، وقال عنه: «هذا حديث صحيح مشهور من حديث عبد الله بن =

«**وبعدها أُمر بالهجرة إلى المدينة**» [١١١].

الشرح

[١١١] وبعد إكمال المدَّة ثلاث عشرة سنة أُمر النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة النبويَّة، فهاجر إلى المدينة، وكان قد أتاه قبل ذلك وفد من المدينة واعدهم عند العقبة في موسم الحج، وعَلَّمَهم النبي ﷺ شرائع الإسلام، وآمنوا به، وصَدَّقوا ورجعوا إلى أهليهم ينشرون دعوة الإسلام، وينتظرون قدوم النبي ﷺ، فقدم عليهم بعد هذه المدة [(١)].

وكانت الهجرة من أعظم أبواب الخير التي فُتحت لنشر الإسلام؛ لأن أصحاب النبي ﷺ كثر عددهم، وانتشروا دعاة، ونزلت آيات الجهاد لمن يقف في وجه الدعوة ويصد عن السبيل، وأمر الله ﷻ نبيَّه -عليه الصَّلاة والسَّلام- ومن معه بمُجَاهَدَتهم، فعقدت الألوية والرايات، وجمعت الجيوش، وتمت الغزوات، وكان النصر حليفًا لهم، وإن أديل عليهم؛ فإنهم يصبرون ويحتسبون ذلك؛ لأن المجاهدين في سبيل الله قد وعدهم الله إحدى الحسنيين: إمَّا النصر والغنيمة، وإمَّا الشهادة، فكم للشهيد من الأجر العظيم.

والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة على هذه الأمَّة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم السَّاعة، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ

=

المبارك، والشيخان لم يخرجاه، لعله حديث الحسن بن علي الأصغر». ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١/ ٥٤١).

(١) انظر البداية والنهاية (٣/ ١٧٥)، والسيرة النبويَّة ابتداء هجرة النبي ﷺ وأبي بكر الصديق ﷺ (١/ ٣٣٥)، وصفة الصفوة، باب: ذكر هجرة رسول الله إلى المدينة (١/ ٢١٥).

﴿وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [١١٢].

الشرح

[١١٢] ولا يردهم ذلك عن مواصلة السير في الجهاد والدعوة إلى الإسلام. فأصبحت الهجرة فريضة من الفرائض التي كلَّف الله ﷻ بها مَنْ أسلم وهم في ديار الكفر؛ بل ذمَّ الذين يتخلفون بين أظهر الكفار وهم قادرون على الهجرة إلى بلاد الإسلام، ذمَّهم الله -تبارك وتعالى-؛ لحرصهم على أوطانهم وأموالهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾.

ولم يستثن من الذمِّ إلاَّ المستضعفين بقوله: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٩٧-٩٩]. فهؤلاء قوم عذرهم الله -تبارك وتعالى-؛ لأنهم غير قادرين على الهجرة، إما لأنهم يخافون على أنفسهم من أئمَّة الكفر؛ أو لأنهم لا قدرة لديهم تمكنهم من الوصول إلى المدينة.

وبقي حكم الهجرة ثابتًا إلى يوم القيامة من ديار الكفر إلى ديار الإسلام.

وديار الكفر: هي التي يُعبَد فيها غير الله ﷻ، ويحكم فيها بغير شرعه، ولا يستطيع المسلم أن يقيم شعائر الإسلام فيها، هذه بلدة كفر يُغزَى أهلها، ويُجاهدون ويُقاتلون حتى يكون الدين كله لله، فإذا هزموا، وتغلب الجيش الإسلامي عليهم، أخذوا أموالهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، واسترقوا رقابهم؛ فكانوا غنيمة للمسلمين.

وبلاد الإسلام: هي التي يحكم فيها بشرع الله ﷻ، وتقام فيها شعائر الدين، وفي

مقدمتها: توحيد رب العالمين، وقمع الشرك والمشركين ولو حصلت فيها معاصٍ، ولو وجد فيها أفراد كفار؛ فهي بلد إسلامي ما دام الحكم فيها لشرع الله، وطهرت من المعبودات الباطلة، وارتفعت فيها راية التوحيد، وقامت فيها شعائر الدين، وبُنيت فيها بيوت الله الطاهرة، فهي بلدة الإسلام على أي حال تكون.

إذن؛ من كان في ديار الكفر وهو مسلم وجب عليه أن يُهاجر إلى بلاد الإسلام، إلاَّ أن يكون معذورًا ممن عذرهم الله من الضعفاء؛ فهؤلاء إذا لم يستطيعوا الهجرة، فقد عَذرَهُم الله -تبارك وتعالى-، ووَعَدهُم بمغفرته، أمَّا مَنْ يستطيع الهجرة، ولم تحبسه إلاَّ مصالحه كالأموال والأولاد ومسقط الرأس والوطن؛ فهذا محجوج قد ظلم نفسه، ولا ينتظر إلاَّ ما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ﴾ الآية. وهذا توبيخ من الملائكة بأمر الله لهذا الصِّنف الذين يستطيعون أن يخرجوا من ديار الكفر، ولكنهم لم يخرجوا؛ إيثارًا للعاجلة على الآجلة.

*** وهنا مسائل تتعلق بهذا البحث منها:**

- تحريم السفر إلى بلاد أهل الكفر بدون حاجة ملزمة، واختيار المكث فيها كذلك، وزيادة في الشر عندما يختار الإنسان بلاد الكفر، وبجانب ذلك يطعن في بلاد الإسلام، هذا أجهل الناس، وأبعد الناس عن معرفة الحق، وكأنه أعمى ما تبين له سبيل الحق من سبل الباطل، فالفرار إنما يكون من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام مهما كان حالها؛ لأن النبي ﷺ قد حذر من مجامعة المشركين، والركون إليهم، والسكنى معهم، اللَّهُمَّ إلاَّ من ألجأته ضرورة من الضرورات، وحاجات من الحاجات التي لا تُقضى إلاَّ من ديار الكافرين، وكل ضرورة وحاجة تقدر بقدرها.

- أمَّا مَنْ ذَهَبَ ليدعو إلى الإسلام، وقد تحصَّنَ بالعلوم الشرعيَّة، والأسباب التي

تحول بينه وبين الوقوع في الرذيلة أو الانحراف في مبادئ القوم؛ فيكون هذا مثله كمثل الغازي يغزوهم بدعوة الخير، ثم يعود إلى وطنه، لاسيما إذا كانت هذه الأعمال تنظمها دولة إسلاميَّة.

- وقد تكون هناك ضَرُورَات تلجأ إلى الذهاب إلى بلد الكفار: إمَّا للعلاج، وإمَّا لتعلم علم تحتاجه الأمَّة المسلمة، ولايوجد في بلادها وديارها، وإمَّا ليمثل دولة الإسلام في أمور دولية لا غنى عنها، فهذه من الأمور التي قد تستثنى، ولكن لا يذهب إلاَّ من كان صاحب حصانة بالعلوم الشرعيَّة والتقوى والإيمان، والخوف من الله -تبارك وتعالى-.

* * *

«**وقوله تعالى:** ﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾» [١١٣].

الشرح

[١١٣] **والدليل على أنَّ حكم الهجرة باقٍ:** ما ذكره الله ﷻ في القرآن في قوله: ﴿يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦]. أي: واسعة، فلابد من الانتقال من الضيق إلى السعة، وبلاد الضيق هي بلاد الكفر ،وبلاد السعة هي بلاد الإسلام.

* * *

«وقال البغوي -رحمه الله تعالى-: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يُهَاجروا ناداهم الله باسم الإيمان.

والدليل على الهجرة من السنَّة: قوله ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها» [١١٤].

الشرح

[١١٤] وقول النبي ﷺ: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١). وهذا دليل على امتدادها وبقائها متى وجد سببها، وانتفت موانعها.

غير أن مَن استوطنوا وهم مسلمون في ديار الكفر بدون عذر شرعي، لا يحكم عليهم بالكفر، ولكنهم وقعوا في كبيرة من كبائر الذنوب، اللَّهُمَّ إلاَّ إذا أتوا بالأسباب التي تنقلهم من إسلامهم إلى الكفر -والعياذ بالله-، كأن يُفضِّلوا معاملة الكفار على مُعَاملة الإسلام والمسلمين، أو يَرَوا بأن أُنسَهم وحياتهم الطيبة المباركة إنما هي في بلاد الكفر، وحياة الشؤم في بلاد الإسلام، فهذا -والعياذ بالله- بُعْدٌ عن الله، وانحراف عظيم ومصيبة عظمى.

وسبب ذلك كله: الجهل بالإسلام وجلالة قدره.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ..

* * * * *

(١) أخرجه أبو داود (٣/ ٣)، وأحمد (١/ ١٩٢)، (٤/ ٩٩)، وصححه الألباني في الإرواء (١٢٠٨).

الدرس الثالث عشر

«فلمَّا استقرَّ في المدينة؛ أمر ببقية شرائع الإسلام، مثل: الزكاة، والصَّلاة، والصَّوم، والحج، والأذان، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام، أخذ على هذا عشر سنين، وبعدها توفي -صلوات الله وسلامه عليه-» [١١٥].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

أما بعد:

فقد مضى معنا في الدرس الثاني عشر أنَّ النبيﷺ نبئ بـ: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾؛ حيث أنزل الله عليه صدر سورتها إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:٥]. وأرسل بـ: ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾. لما أنزل الله ﷻ عليه قوله -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر:١-٧].

وعرفنا ما تيسر من المعاني المتعلقة بذاك الدرس، كما عرفنا حكم الهجرة، وأنها فريضة على هذه الأمَّة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وأنها باقية إلى أن تقوم السَّاعَة، وأنَّ من كان في بلد الكفر وهو من أهل الإسلام لا يُعذر بالبقاء في بلد الكفر، إلاَّ إذا كان من المستضعفين من الرِّجَال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلاً.

[١١٥] ثم واصل المؤلف -رحمه الله- في بَيَان شرح سيرة النبي ﷺ بعدُ، فقد أذن الله له -عليه الصلاة والسلام- في الهجرة؛ لأنَّ الكفار كانوا يريدون القضاء عليه وعلى هذه الدعوة المباركة -دعوة التوحيد الحق- في بدايتها، ولكنَّ الله ﷻ قضى لنبيِّه بالهجرة،

فأمره بها، فهاجر إلى المدينة وكان بصحبته أبو بكر ﷺ، وكان أهل المدينة من الأنصار الكرام الذين أثنى الله عليهم في محكم القرآن، كانوا ينتظرون قدوم النبي ﷺ كل يوم فرحين مستبشرين، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، واستقر بها؛ أمر ببقية شرائع الإسلام.

وكانت الصَّلاة قد فرضت ركعتين ركعتين في مكة، فأقرت صلاة السَّفر، وأتمت صلاة الحضر، فكان يصليها في المدينة أربعًا أربعًا، إلاَّ المغرب فتصلى ثلاثًا، وإلاَّ الصبح فتصلى ركعتين.

ثم أنزل الله ﷻ بقية الفرائض في المدينة خلال عشر سنين، والقرآن المدني ينزل على النبي ﷺ: منه ما هو أحكام في بيان الحلال والحرام، ومنه ما هو إجابات على أسئلة، ومنه ما هو قصص وأمثال؛ لتأخذ منها الأمة العبرة والعظة .. إلى غير ذلك من أحكام الله التي كُلِّفَ بها المكلفون من: زكاة، وصوم، وحج، وأذان، وجهاد، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ودعوة إلى الله ﷻ علنًا؛ لأن وقت السريَّة قد ذهب.

أخذ على ذلك عشر سنين والآيات تتنزل، والنبي ﷺ يبلغها، ويفسرها للناس، وهم أوعية العلم يحفظونها حفظًا جيدًا، ويبلغونها إلى أهل الأرض في الآفاق، حتى أتى التابعون، وأخذوا عنهم العلم، وكان منهم العلماء الربانيون الذين بلَّغوا من بعدهم، وهكذا يبلَّغ هذا العلم، ويؤخذ جيلاً بعد جيل حتى يأتي اليوم الذي يُرفع من الأرض بموت أهله.

ولما حج النبي ﷺ حجَّة الوداع، وبيَّنَ للناس في حجَّة الوداع ما يحتاجون إليه في معاشهم ومعادهم، إذ خطبهم خطبة عظيمة جامعة، ومنها خطبة يوم عَرَفة التي بيَّن فيها أحكامًا كثيرة لا تدخل تحت العَدِّ والحصر في هذا المقام، ومن ذلك أنه أعلم الأمَّة بأنَّ دماءهم وأموالهم وأعراضهم حرام عليهم.

وبيَّن لهم بأن الربا كله موضوع، ولا يجوز التعامل به بعد ذلك، وأشهد الله على الجميع بأنه بلغهم الرسالة، وأوضح لهم معالم الحق، وأنه لم يبق شيء يحتاجون إليه إلاَّ بينه لهم، وأنزل الله -تبارك وتعالى- في ذلك آيات بينات تعتبر من آخر آيات القرآن نزولاً، منها قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

ومن ذلك قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:١-٣]. فقد أتت هذه السورة الكريمة تشير إلى قُرب وفاة النبي ﷺ، كما فهم ذلك هو، وفهم ذلك ابن عبَّاس وغيره سبب نزولها(١).

وآخر آية نزلت على النبي ﷺ، ولم ينزل بعدها شيء على قول جمهور المفسرين: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١]. وقال لهم النبي ﷺ: «**اجعلوها بين آية الدَّين وآية الرِّبا**»(٢).

---

(١) كما أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن من صحيحه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عبَّاس قال: «كان عمر ﷺ يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟! قال عمر: إنه من حيث علمتم. فدعا ذات يوم فأدخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلاَّ ليريهم. قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا، وفتح علينا. وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾. وذلك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾. فقال عمر: ما أعلم منها إلاَّ ما تقول». (٣/ ٣٣٢).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٣/ ٣٧٥)، وابن حجر في الفتح (٩/ ٦٦).

ولما أكمل الله الدين، وأتمَّ النعمة، ولم يبق شيء تحتاج البشريَّة إلى علمه وفهمه؛ أتى النبيَّ ﷺ الأجلُ المحتوم؛ لأنَّ الله قضى بالموت على المخلوقات، ويدخل في ذلك الرسل والأنبياء والملائكة وسائر المخلوقات: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]. إلاَّ مَن ثبت استثناؤهم بنص.

وأخبر الله نبيه ﷺ في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

وأخبر بذلك في قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وهكذا أخبر الله ﷻ في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥].

فمرض النبي ﷺ في آخر شهر صفر وأول شهر ربيع الأول إلى اليوم الثاني عشر من ربيع الأول أو الثالث عشر، وتوفي النبي ﷺ، وكانت وفاته من أعظم المصائب التي عمَّت الأرض طولها والعرض، وأثرت على أصحابه تأثيرًا بالغًا حتى إن بعضهم لم يُصَدِّق بأن رسول الله ﷺ قد مات، ومنهم عمر ﷺ.

حتى أتى أبو بكر وكان رَجُلاً مُسَددًا ومُوفقًا في مواطن الكروب والأزمات، فدخل على النبي ﷺ فقبله، وقال قولته التي حفظتها وثائق التأريخ: «طبت حيًّا وميتًا». وخرج إلى الناس وهم مضطربون، فقال: «أيها الناس، مَنْ كان يَعبُدُ محمدًا؛ فإن محمدًا قد مات، ومَنْ كان يَعبد الله؛ فإنَّ الله حيٌّ لا يموت»[1]. فزال عنهم الاضطراب، وأيقنوا أنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٣٨٤).

سنَّة الله في مخلوقاته أن يُقضَى عليها بالموت، وما هو إلاَّ انتقال من الحياة الدنيويَّة إلى الحياة البرزخية.

وقد أخبرنا الله -تبارك وتعالى- في آخر سورة الواقعة بأقسام الخلق عند الموت، حيث قال سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٨٣-٩٦].

وهذا التقسيم للخليقة كلها بعد الموت، قسَّمَهُم الله إلى هذه الأقسام الثلاثة: إلى مقربين، وأصحاب يمين، وأصحاب شمال، وهم المكذبون الذين كذبوا بما يجب التصديق به من شرع الله الذي أتى به رسل الله وأنبياؤه، وأقامه ودعا إليه أتباعهم وورثتهم.

ولما كان اجتماع الكلمة على سلطان وعلى إمام أمر من أهم الأمور؛ لِمَا في ذلك من نفي الفوضى، وحقن الدماء، وحفظ الأموال والأعراض، وأمن الناس، من أجل أن يُؤدوا شعائر الإسلام وهم آمنون مطمئنون؛ بقي النبي ﷺ لم يدفن في وقت وفاته؛ بل بقي إلى أن تمت البيعة لأبي بكر، واجتمع الناس، وأجمعوا على خلافته، فدفن النبي ﷺ ليلة الأربعاء، وقد توفي يوم الإثنين، وما هو إلاَّ انتقال من حياة الهمِّ والغمِّ والتعب والنصب إلى الحياة الطيبة المباركة في الرفيق الأعلى في أعلى الجنان، كما ثبت أن النبي ﷺ لما شخص ببصره إلى السماء قال: «**اللهم الرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب: دعاء النبي ﷺ: «**اللهم الرفيق الأعلى**». (٤/ ١٦٢)، (٦٣٤٨).
ومسلم في كتاب فضائل الصَّحَابة، باب: فضل عائشة رضي الله عنها (٤/ ١٨٩٤)، (٨٧).

وأوصى قبل موته بالصَّلاة وما ملكت الأيمان[1] لأهمية شأن الصَّلاة في الإسلام، وأكرم الله ﷻ الأمَّة بعد وفاته بخلافة الصِّدِّيق التي مشى فيها على النهج الذي كان النبي ﷺ يَسُوس الأمة به، وهو كتاب الله، وسنَّة النبي ﷺ، لا يزيد على ذلك، ولا ينقص.

* * *

«ودينه باقٍ، وهذا دينه: لا خير إلاَّ دل الأمة عليه، ولا شر إلاَّ حذرها منه، والخير الذي دل عليه: التوحيد، وجميع ما يحبه الله ويرضاه، والشر الذي حذرها منه: الشرك وجميع ما يكرهه الله ويأباه، بعثه الله إلى الناس كافة» [١١٦].

الشرح

[١١٦] وقد بيَّن المؤلف -رحمه الله- بأنَّ دين النبي ﷺ باقٍ، وأنه لم يتغير شيء بالنسبة للتكاليف الشرعيَّة على اختلاف أنواعها والأحكام المرعيَّة.

فقال المؤلف: **«وهذا دينه»**. يعني: دينه بين أيدينا وبين أظهرنا كامل كما وصفه الله، وهذا الدين ما من خير إلاَّ ودل عليه، وما من شر إلاَّ وحَذَّرَ منه.

وأساس الخير: توحيد الله -تبارك وتعالى- في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته، ومكملات ذلك بالتقرب إلى الله بكل ما يحبه ويرضاه من الأقوال، والأفعال، والأعمال الظاهرة والباطنة، والبعد كل البعد من كل ما يُبغضه الله ويأباه من شر الأقوال، والأفعال، والأعمال، والمعتقدات، فهذا دين الله -تبارك وتعالى- الذي ارتضاه لأمَّة محمد ﷺ؛ لأن رسالة النبي ﷺ عامَّة وشاملة، وليس كغيره ممن سبقه من الأنبياء والمرسلين الذين كانوا يرسلون إلى أقوامهم خَاصَّة.

* * *

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الوصايا، باب: هل أوصى رسول الله ﷺ (٢/ ٩٠٠)، (٢٦٩٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ١٠٩)، (٢١٨٤).

وافترض الله طاعته على جميع الثقلين الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [١١٧].

الشرح

[١١٧] وهذا العموم والشمول دل عليه قول الله ﷻ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

كما دل عليه قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨].

وغيرها من الآيات في هذا المعنى الجليل.

وقال النبي ﷺ في بَيَان عموم رسالته: «**وبعث كل نبي إلى قومه خَاصَّة، وبعثت إلى الناس عَامَّة**»[1].

وقوله ﷺ: «**والله لا يسمع بي أحَدٌ من هذه الأمَّة -يهودي أو نصراني-، ثمَّ يَمُوت ولم يؤمن بالذي جئتُ به؛ إلاَّ كان من أصحاب النار**»[2]. الحديث.

❊ ❊ ❊

«**وكمَّلَ الله به الدِّين، والدليل قوله تعالى:** ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [١١٨].

والدليل على موته ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ١٨٥)، ومسلم (١/ ٢٧٠).

(٢) سبق تخريجه (ص٢٠).

﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾» [١١٩].

الشرح

[١١٨] وقد أورد المؤلف -رحمه الله- الآيات الدالة على عُمُوم الرسالة وشمولها، وعلى كمال الدِّين كما رأيت.

[١١٩] وأورد الدليل على موت النبي ﷺ، وأنه سنَّة الله في خلقه التي لا تتخلف، حيث قال ﷻ خطابًا لنبيه -عليه الصَّلاة والسَّلام: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١].

❊ ❊ ❊

«**والناس إذا ماتوا يبعثون، والدليل قوله تعالى:** ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [١٢١].

وبعد البعث محاسبون ومجزيون بإذن الله، والدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾» [١٢٢].

الشرح

[١٢٠] وأورد الأدلة القرآنيَّة التي تدل على أنَّ الناس إذا ماتوا يبعثون من قبورهم، كقول الله ﷻ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]. وهو خطاب للأمَّة كلها، والضمير في «منها» يعود إلى الأرض، وهو معروف من السياق.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: بخلق أبيكم آدم من تراب.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بعد الموت في قبوركم.

﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ للبعث والجزاء على الأعمال.

[١٢١] وهكذا قال -تبارك وتعالى- مؤكدًا هذا المعنى بآية أخرى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾. وهي كقوله: ﴿۞مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾.

[١٢٢] وأخبر الله -تبارك وتعالى- بأنَّ العباد بعد البعث محاسبون ومجزيون على أعمالهم -خيرها وشرها-، كما قال ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

ومثلها قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية:١٥].

ومثلها قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

* * *

«**ومَنْ كَذَّب بالبعث كفر، والدليل قوله تعالى:** ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١٢٣].

الشرح

[١٢٣] وأخبر سبحانه بأن إنكار الكفار للبعث والجزاء على الأعمال افتراء منهم على الله، وتكذيب بما جاء به رسول الله -عليه الصَّلاة والسَّلام-، وأن ذلك زعم باطل بيّن الله بطلانه في قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد ..

الدرس الرابع عشر

«وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين، والدليل قوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾» [١٢٤].

الشرح

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله ..

وبعد:

مضى معنا في الدرس الماضي بَيَان أنَّ دين الله ﷻ باقٍ بعد وفاة النبي ﷺ ما بقيت الدنيا، وأنه ما من خير إلاَّ دل الأمَّة عليه، ولا شر إلاَّ حَذَّرَهَا منه، وأساس الخير: توحيد الله -تبارك وتعالى-، وأصل الشر: عبادة غير الله، أو عبادة غيره معه، وهو الشرك بالله ﷻ، وكل معصية عصي الله بها فهي شر، وكل طاعة تركت بدون عذر؛ فتركها شر كذلك.

كما مضى معنا الأدلة القائمة على عموم وشمول بعثة النبي ﷺ لعالم الإنس وعالم الجن، بدليل قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وبرسالة النبي ﷺ خُتمت الرسالات، كما مضى معنا الأدلة على ثبوت موت النبي ﷺ، وأن الناس يَمُوتون، ثم يُبعَثون ويجزون على أعمالهم -خيرها وشرها-.

وموضوع هذا الدرس هو: «إثبات رسالة المرسلين».

حيث قال المؤلف -رحمه الله-:

[١٢٤] «**وأرسل الله جميع الرسل مبشرين ومنذرين**»: والرسل جميع رسول، والرسول: رجل حر مكلف من بني آدم، أوحى الله إليه بشرع، وأمره بتبليغه.

❊ ❊ ❊

«**وأولهم نوح** عليه السلام» [١٢٥].

الشرح

[١٢٥] وأول الرسل نوح عليه السلام، وقد ثبت عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أنَّ الناس من لدن آدم إلى نوح عشرة قرون على الحنيفية السَّمحَة على التوحيد، حتى نشأ الشرك في قوم نوح، فأرسل الله إليهم نوحًا»[(١)].

فهو أول رسول أرسله الله -تبارك وتعالى-؛ لينذر قومه خطر الشرك، ويبين لهم معالم التوحيد، ومكث في قومه مدة طويلة وهو يَدعُوهُم إلى الله -تبارك وتعالى-، رغم ما واجه من الصُّعُوبات والعقبات، ومن الإعراض عن دعوته الكريمة الرحيمة، ومع ذلك فكان يدعو إلى الله، كما وصف الله دعوته في آيات بينات:

منها: قول الله عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ١-٩].

---

(١) أخرجه البخاري، انظر: فتح الباري (٩/ ٦٦٩)، (٤٩٢٠)، والطبري (١٩/ ٢٥٤)، وإغاثة اللهفان (ص١٩٠)، ومجموع الفتاوى (١٤/ ٣٦٣).

إلى آخر السورة التي ختمت بما أمره الله -تبارك وتعالى- به من الدعوة على أولئك القوم الذين لم يزدادوا إلاَّ طغيانًا وإعراضًا عن دعوة نوح ﵇، وإيذاءً لشخصه الكريم، فدعا عليهم، كما قصَّ الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

وكان الحامل له على ذلك: أن الله ﷻ قد قال له: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦]. ثم خوفه على العصبة المؤمنة القليلة التي آمنت بدعوته، الذين قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠].

❊ ❊ ❊

«وآخرهم محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين» [١٢٦].

الشرح

[١٢٦] وآخر الرسل والأنبياء محمد ﷺ، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٠]. وبين أولهم وآخرهم رسل كرام وأنبياء عظام، ودعاة من أمَّة الإسلام، يَدْعُونَ بدعوة الرسل والأنبياء؛ لئلا يكون للناس حُجَّة بعد قيام الحجَّة عليهم.

وبيَّن الله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

❊ بين فيها شيئين مهمين:

- **الشيء الأول:** تحديد وظيفة الرسل والأنبياء، وأنها محصورة في البشارة والنذارة.

أمَّا البشارة: فهي لأتباعهم الذين استجابوا لدعوتهم وآمنوا برسالاتهم.

وأما النذارة: فهي لأعداء الله، وأعداء رسله، وأعداء عباده المؤمنين ممن أعرض عن رسالات الرسل، ودعوة الأنبياء، ونصيحة الناصحين.

وأمَّا الشيء الثاني: فلإقامة الحجَّة على مَنْ بلغته الحجَّة، والحجَّة هي إرسال الرسل، وإنزال الكتب عليهم؛ ليبينوا للناس ما أنزل الله -تبارك وتعالى- عليهم من كتاب وحكمة؛ إذ إن الرسالات التي أتى بها المرسلون إذا بينت للناس، ودُعي الناس إليها؛ قامت على الناس الحجَّة، فمن استجاب لدعوة المرسلين؛ فهو من أتباعهم حقًّا ومن أولياء الله، ومن أعرض عن دعوة المرسلين؛ فقد عَرَّض نفسه لأعظم الخطر وأشد الوعيد، ويصدق عليه قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

كما يصدق عليه قول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

* * *

والدليل على أنَّ أولهم نوح قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [١٢٧].

الشرح

[١٢٧] والأدلة قائمة على أن أول الرسل نوح عليه السلام في الكتاب والسنة ومنها قول الله تبارك وتعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء:١٦٣] .. إلى آخر الآيات من سورة النساء.

* * *

«وكل أمَّة بعث الله إليها رَسُولاً من نوح إلى محمد يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة الطاغوت» [١٢٨].

الشرح

[١٢٨] وما من أمَّة من أمم الأرض إلاَّ وخلا فيها نذير، كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

والله -تبارك وتعالى- أحكم الحاكمين، وهو أرحم الراحمين، لا يُعذِّب أمَّة من الأمم حتى يقيم عليها الحجَّة الرسالية، كما في قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

وما كان من فترات بين رسول ورسول تطول مدتها أو تقصر إلاَّ ويبعث الله -تبارك وتعالى- من أتباع الرسل وأهل التأسي بهم في الدعوة والتبليغ للرسالة أفرادٌ من الناس، فإن لم تصل إلى بعض الناس دعوة الرسل من رسول، أو نبي، أو من يدعو بدعوة الرسل والأنبياء؛ فهذا يعتبر من أهل الفترة، وأهل الفترة ومَنْ في حكمهم لهم يوم القيامة معاملة جاءت بها النصوص من أنهم يمتحنون في عَرَصَات القيامة، فالمطيع في الجنَّة، والعاصي في النار.

ومنها ما رواه الإمام أحمد وغيره من حديث الأسود بن سريع[1]: أن النبي ﷺ قال: **«أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع، ورجل هرم، ورجل أحمق، ورجل مات في الفترة.**

وأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وأنا ما أسمع شيئًا.

---

(١) الأسود بن سَريع -بفتح السين- التميمي السعدي: صحابي نزل البصرة، ومات في أيام الجمل، وقيل: سنة اثنتين وأربعين. التقريب (١/ ١٠١) (٥٠١).

وأما الأحمق فيقول: رب لقد جَاءَ الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر.

وأمَّا الهرم فيقول: رب لقد جَاءَ الإسلام وما أعقل.

وأمَّا الذي في الفترة فيقول: رب ما أتاني رسول.

فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه، فيرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار، فوالذي نفسي بيده، لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا». ولهذا الحديث طرق وشواهد يكون بها من قسم المقبول، كما قَرَّرَ ذلك ابن القيم -رحمه الله- في كتاب «طريق الهجرتين وباب السعادتين»[1].

وكل رسول من الرسل وكل نبي من الأنبياء يبدأ دعوته وينادي قومه إلى توحيد الله، وترك الشرك، والبراءة منه ومن أهله؛ ولهذا تجد في الآيات القرآنية التي قصَّ الله فيها دعوة الرسل والأنبياء أن كل واحد منهم يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]. وهو أمر بعبادة الله وحده، ونهي عن الإشراك بالله ﷻ.

* * *

«والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [١٢٩]. وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله».

الشرح

[١٢٩] وقد بيَّن الله ﷻ ذلك بيانًا عَامًّا في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. وكل من أدوات العموم.

ثمَّ بين دعوة الرسل التي يبدأ بها قومه، فقال: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. يأمرهم بعبادة الله وحده؛ لأنه المستحق لذلك، ويحذرهم من عبادة الطاغوت

---

(١) (ص٣٩٧).

التي هي عبادة غير الله ﷻ ، أو عبادة غيره معه.

وهذه الجملة: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾. هي معنى «لا إله إلاَّ الله»، ولا يتم توحيد عبد وإيمانه حتى يضيف إلى إيمانه بالله الكفر بالطاغوت؛ ولذا قال الله ﷻ : ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦].

* * *

«قال ابن القيم -رحمه الله-: الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من: معبود، أو متبوع، أو مطاع» [١٣٠].

الشرح

[١٣٠] وذكر ابن القيم -رحمه الله- معنى الطاغوت، وقد اختلف العلماء -رحمهم الله- في معنى هذه الكلمة، فمنهم مَنْ يُفسِّر الطاغوت بالشيطان، ومنهم مَنْ يُفسِّره بالسَّاحر أو الكاهن[١]، وتفسير ابن القيم له أعم وأشمل، حيث قال -رحمه الله-: «**معنى الطاغوت**: ما تجاوز به العبد حده من: معبود، أو متبوع، أو مطاع».

فهذا يعتبر تجاوز بمعنى أنه ترك عبادة الله، وتجاوزها إلى الحرام وإلى المحظور:

من «**معبود**»: من المعبودات الباطلة على اختلاف أنواعها.

أو «**متبوع**»: دعا إلى باطل، فاتبعه الناس على باطله، سواءً كان ذلك المتبوع دعا إلى شرك، أو إلى بدعة، أو إلى فواحش وكبائر.

أو «**مُطاع**»: دعا الناس إلى الباطل فأطاعوه.

وكل هذه الأمور فيها تجاوز وخروج عن محيط الحق إلى الباطل.

---

(١) كما ورد ذلك عن: عكرمة، وأبي العالية، ومجاهد، ومالك بن أنس. انظر: الدر المنثور (١/ ٥٨٤).

والطاغوت: يُجمَع على طواغيت، وذكر المؤلف -رحمه الله- رءوس الطواغيت - أي: أئمَّة الطواغيت وقادتهم إلى النار- فأولهم:

❊ ❊ ❊

«والطواغيت كثيرون، رءوسهم خمسة: **إبليس** -لعنه الله-» [١٣١].

الشرح

[١٣١] **إبليس** -لعنه الله-: وهو الذي أخرج الأبوين من الجنَّة بالغرور والمكر والخديعة، واشتهر بذلك، وعرف به، ونادى الله ﷻ المؤمنين أجمعين، وحَذَّرَهُم من اتباعه، كما في قول الله ﷻ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ﴾ [النور:٢١]. فهو يدعو إلى كل فحشاء، وإلى كل منكر.

وذكر الله -تبارك وتعالى- خبره وقصته في يوم القيامة، يوم يعلن براءته ممن اتبعه، حيث قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [ابراهيم:٢٢].

وهذه براءة يعلنها في الوقت الذي لا يغني عن نفسه شيئًا، ولا يغني عن أتباعه كذلك شيئًا من عذاب الله، حيث يقول: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾. أي: لست بمنقذ لكم، ولا مخرج لكم من النَّار، ولستم بمنقذين لي من النَّار، بل الكل فيها، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾. إخبار عن الأتباع والمتبوعين: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر:٤٨].

❊ ❊ ❊

«**ومَنْ عُبِدَ وهو رَاضٍ**» [١٣٢].

[١٣٢] **ومن الطواغيت من عُبد وهو راض**: عبده الناس، طلبوا منه ما لا يُطلب إلاَّ من الله، من: دعوة، واستغاثة، ورجاء جلب مصلحة، أو دفع ضرٍ، مما لا يقدر عليه إلاَّ الله، وهو راضٍ، قد جَعَلَ نفسه إلهًا؛ فهو طاغوت.

❊ ❊ ❊

«**ومَنْ دَعَا الناس إلى عبادة نفسه**» [١٣٣].

الشرح

[١٣٣] **والثالث: من دعا الناس إلى عبادة نفسه**: إمَّا بلسان الحال، أو بلسان المقال، أي: إمَّا أنه قال لهم: أنا أملك شيئًا من جلب المنافع ودفع المضار، وجلب الخير ودفع السوء، وإغاثة الملهوف، وتفريج الكربات، وإنجاب الولد، وإدرار الرزق، وما عليكم إلاَّ أن تقربوا القرابين، وتتوجهوا إليَّ بطلباتكم. فهذا دَعَا الناس إلى عبادة نفسه، فهو أعظم جرمًا؛ فيعتبر رأسًا في دعوة الشيطان ومخالفة الرحمن.

❊ ❊ ❊

«**ومن ادعى شيئًا من علم الغيب**» [١٣٤].

[١٣٤] **والرابع: من ادعى شيئًا من علم الغيب**: بحيث يدَّعي بأنه يعلم ما في المستقبل، أو يعلم مكان الضَّالة، أو يعلم ما سيكون غدًا، أو في العام القادم، أو في اللحظة القادمة؛ فهو كاذب في ذلك كله، وطاغوت من الطواغيت الذين لعنهم الله وأخزاهم، وجعلهم أئمَّة يَدْعُونَ إلى النار، ويوم القيامة لا يُنصَرون.

❊ ❊ ❊

«ومَنْ حَكَمَ بغير ما أنزل الله[١٣٥]. والدليل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]. **وهذا هو معنى: لا إله إلاَّ الله**».

الشرح

[١٣٥] **ومن حكم بغير ما أنزل الله**: وهو القسم الخامس من رءوس الطواغيت؛ لأنَّ الله ﷻ كلف الخليقة بالحكم بما أنزل الله من كتاب وسنَّة، فإذا تحاكم الناس إلى غير شرع الله ﷻ، واعتبروا ذلك تشريعًا لهم، واعتبروه نافعًا وخادمًا لمصالحهم، واتَّهمُوا شرع الله ﷻ بالجور والقسوة، أو عدم الملاءمة لزمنهم وأوضاعهم؛ فلا غرابة أن يكونوا من الطواغيت.

وقد فصل العلماء -رحمهم الله- القول في الحكم على مَنْ حكم بغير ما أنزل الله، فقال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: قوله: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]. قال: «مَنْ جَحَدَ ما أنزل الله؛ فقد كفر، ومن أقرَّ به، ولم يحكم؛ فهو ظالم فاسق»[١].

وهذا لا شك في كفره إذا جحد حكم ما أنزل الله، أو رأى أنَّ ما حكم به من أحكام البشر أفضل وأنفع من حكم الله، أو رأى أنَّ حكم الله وحكم غيره في المنزلة سواء؛ فهذا كُفر صريح يخرج من ملة الإسلام بعد إقامة الحجَّة على القائل به، ومثل ذلك من يلغي الشريعة الإسلامية، ويُعطل أحكامها ومحاكمها، ويختار بَديلاً عنها القوانين الوضعيَّة بالبشريَّة؛ مؤثرًا لها ومستحسنًا، راغبًا عن شريعة رب العالمين، فلا شك في كفره الكفر المخرج من الملة.

---

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٥٩٧)، (٢٠٦٨).

وأمّا إن حكم حاكم بغير ما أنزل الله مع إيمانه بما أنزل الله، وبما جاء به رَسُولُ الله ﷺ، وهو غير مُستَحل لذلك، وإنما يرى بأنه ارتكب خطأ؛ فهذا يُعتَبَر صاحب كبيرة من كبائر الذنوب، أو صاحب كفر عملي، كما فَصَّلَ ذلك أهل العلم -رحمهم الله-.

إذن؛ فالآية الكريمة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]. ومثلها الآيتان اللتان بعدها: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧]. هذه ينبغي أن يعرف ما دلت عليه من الأحكام بالتفصيل، وذلك بالرجوع إلى كتب التفسير كـ: تفسير الإمام ابن جرير، وابن كثير، وغيرهما من المفسرين ممن هو على منهج السَّلف، وإلى ما أفتى به هيئة كبار العلماء في موضوع ظاهرة الإرجاء[١].

وقد ختم المؤلف -رحمه الله- هذه الأصول الثلاثة التي هي أصول الإسلام بحق.

❊ ❊ ❊

«وفي الحديث: «رأس الأمر الإسلام ...» [١٣٦].

الشرح

[١٣٦] **قوله: «رأس الأمر الإسلام»**: لأنه أول شيء دعا إليه النبي ﷺ إلى الإسلام، الذي هو الاستسلام والخضوع والانقياد لله ﷻ بالطاعة، وللرسول -عليه الصَّلاة والسَّلام- بالمتابعة، وفي حديث جبريل ﷺ سَمَّاه النبي ﷺ دينًا[٢]، أول مرتبة من المراتب التي ذكرها النبي ﷺ: الإسلام وأركانه، فلا غرابة أن يكون رأسًا في الأمر؛ إذ

---

(١) برقم (٢١١٥٤)، وتأريخ (٢٤/ ١٠/ ١٤٢٠هـ).

(٢) سبق تخريجه (ص١٠٦).

بالإسلام يعصم الدم، ويعصم المال، ويُعصم العرض، ويكون لصاحبه الحقوق الإسلاميَّة، والحقوق الإيمانية.

❊ ❊ ❊

«وعموده الصلاة» [١٣٧].

الشرح

[١٣٧] **وعموده الصلاة**: وذلك لأهميتها؛ إذ إنها أول فريضة فرضت بعد دعوة النبي ﷺ إلى حقيقة الإسلام والإيمان، حيث سبق معنا[١] بأن النبي ﷺ دَعَا عشر سنين قبل أن يُعرَج به إلى السَّماء، وفُرضَت عليه الصَّلَوَات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين ركعتين ركعتين، حتى قدم المدينة، فأقرت صلاة السَّفَر، وأتمت صلاة الحضر، وبعد ذلك تتابعت الفرائض والأحكام.

❊ ❊ ❊

«وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله [١٣٨]. والله أعلم».

الشرح

[١٣٨] وذروة سنام الإسلام: الجهاد في سبيل الله بما تحمل كلمة الجهاد من معنى: جهاد النفس، وجهاد الشيطان والهوى، وجهاد الكفار الصرحاء، وجهاد المنافقين بالكلمة والبيان، وجهاد أهل البدع بإقامة الحجَّة عليهم، وجهاد أهل الكبائر والفواحش حتى يرتدعوا عنها.

---

(١) في (ص١٠٩).

هذه كلها أنواع من الجهاد الذي على البال، أيضًا أن يبذل الجهد في طلب العلم، والتوسع فيه، والعمل على نشره؛ ابتغاء مرضاة الله؛ أنه ضرب من ضروب الجهاد، بل قد يكون أنفع وأقوم من الجهاد في المعارك؛ وما ذلك إلاَّ لأنه به يتبين الحق من الباطل، والخير من الشر، والتوحيد من الشرك، ولا يحصل ذلك إلاَّ بالفقه في الدين، ولا يبين ذلك إلاَّ العلماء، ولا يمكن للناس أن يكونوا علماء؛ إلاَّ إذا بذلوا جهودهم في تحصيل العلم بالله وبأمره.

وقد أشار الله ﷻ إلى هذا في قوله -تبارك وتعالى-: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

إذن؛ فطلب العلم جهاد وأيما جهاد؛ لأنَّ فيه إنقاذًا للنفس من الجهل، وحراسة للعقيدة التي لا تحرس إلاَّ بالعلم؛ ولأن في العلم نشرًا له؛ لتحيا الأرواح، وتحيا القلوب، ولا يمكن لها ذلك إلاَّ بواسطة العلماء، الذين لا يمكن أن يحرزوا هذا اللقب إلاَّ إذا بذلوا جهودهم، وعكفوا على كتب العلم وعلى أشياخه مُدَّة ليست بالمدة القصيرة، وإنما هي مدة طويلة جدًّا، لا يكون لها نهاية حتى يأتي اليقين من الله -تبارك وتعالى-، وطالب العلم في طلبه ومستمر في جهاده؛ ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، والله ﷻ لا يضيع أجر من أحسن عَمَلاً.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا ...

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الفهرس

فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊ ❊ ❊



ردمك : 978-9961-943-66-1

